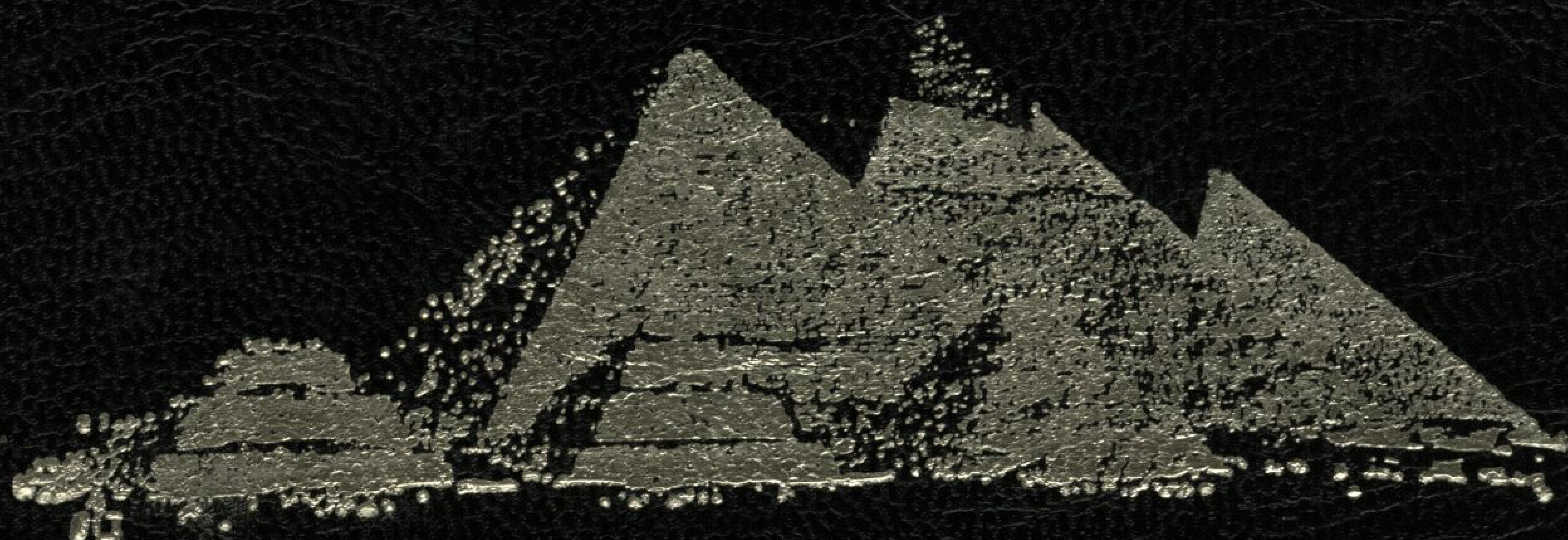
موسوعة
جغرافية مصر وتاريخها





موسوعة

جغرافية مصر وتاريخها

(٦)

عبد الرحمان الجبرتي

موسوعة

جغرافية مصر وتاريخها

المجلّد السادس

عجائب الآثار في التراجم والأخبار ـ ٢ ـ

الجزء الثاني: قيام وسقوط علي بك ـ ٢ ـ

إعداد وتحقيق

عبد العزيز جمال الدين

دار نوبليس

اسم الموسوعة: موسوعة جغرافية مصر وتاريخها

اسم الكتـــاب: عجائب الآثار في التراجم والأخبار ـ ٢ ـ
الجزء الثاني: قيام وسقوط علي بك ـ ٢ ـ

المؤلــــــف: عبد الرحمان الجبرتي

إعداد وتحقيق: عبد العزيز جمال الدين

قياس الكتاب: ١٧ × ٢٤

عدد الصفحات: ٢٤٠

عدد صفحات الموسوعة: ٥٧٨٤

مكــان النشــر: بيروت

دار النشر والتوزيع: دار نوبليس

تلفاكس: ٧٥ ٣٤ ٥٨ (١) ٩٦١

هاتـــف: ٢١ ١١ ٥٨ (١) ٩٦١ ـ ٢١ ١١ ٥٨ (٣) ٩٦١

صندوق بريـد: ٧٠ ٦٩ ١٦ بيروت لبنان

بريد إلكتروني: info@nobilis-int.com

الطبعة الأولى: ٢٠١٢

EAN 9786144031353

ISBN 978-614-403-135-3

سياسة السلطنة العثمانية تجاه المصريين من أهل الذمة

(١) الجزية:

تعتبر الجزية أحد الشروط الواردة فى الشريعة الإسلامية لصحة عقد الذمة، وقد التزمت السلطنة العثمانية بتطبيق ذلك الشرط شأنها فى ذلك شان الممالك الإسلامية الدول السابقة التى غزت مصر، وقد أخذت السلطنة فى التطبيق بالتفسير الحنفى حيث ورد بشأن الجزية أنه «إذا وضعت بتراض أو صلح لا تغير، وان فتحت بلدة عنوة وأقر أهلها عليها توضع على الظاهر الغنى فى السنة ثمانية وأربعون درهما، وعلى المتوسط نصفها، وعلى الفقير القادر على الكسب ربعها ، وتوضع على كتابى ومجوسى وورثنى عجمى لا عربى ولا على مرتد فلا يقبل منهما إلا الإسلام أو السيف وتسترق أنثاهما وطفلهما ، ولا جزية على صبى وامرأة ومملوك ومكاتب وشيخ كبير وذمى أعمى ومقعد وفقير لا يكسب وراهب لا يخالط.

وهكذا طبقت السلطنة العثمانية على مصر جزية الفتح عنوة.

أما عن أوجه انفاق (الجزية) فلقد حددها تفسير الحنفية «فى مصالح المسلمين كسد الثغور وبناء القناطر والجسور وكفاية العلماء والمدرسين والقضاة والعمال والمقاتلة وذراريهم، ومن مات فى نصف السنة حرم من العطاء .

أخذت السلطنة العثمانية - منذ بداية احتلالها لمصر - بالنظام الذى كان متبعا فى سلطنة المماليك فيما يختص بتحصيل وانفاق ضريبة الجزية التى كانت تعرف وقتذاك باسم «الجوالى» . وقد ظل هذا النظام قائما حتى أوائل عام ١٥٢٥م عندما وصل الصدر الأعظم ابراهيم باشا الشهير بالاسكندرلى، عندئذ أصبحت ضريبة الجوالى مقاطعة قائمة بذاتها أطلق عليها «مقاطعة الجوالى» وكان المتولى أمر تحصيلها وأنفاقها يعرف باسم «أمين الجوالى».

وكان الاعتبار الذى أخذت به السلطنة العثمانية - كما ورد فى الشريعة الاسلامية - بالنسبة لأولئك الذين وقع عليهم عبء ضريبة الجوالى، ألا ينظر فقط الى قدرتهم على الدفع بل أيضا ينظر الى القدر الذى يمكن أن يساهم به الفرد فى هذا الشأن، ولهذا فقد قسموا الى فئات ثلاث : غنى ، متوسط ، وفقير . وعلى حساب ما جرى عليه العرف كان أصحاب الممتلكات والصرافون وكافة التجار من الفئة الغنية، وأصحاب الحرف الصناعية كالاسكافى مثلا من الفئة الفقيرة، وما عدا ذلك من الفئة المتوسطة. كذلك تقرر المعايير التى يدفعها أفراد كل فئة طبقا لما حددته الشريعة، فالغنى عليه أن يدفع ٤٨ درهما فضة والمتوسط ٢٤ درهما فضة والفقير ١٢ درهما فضة.

وقد روعى تغيير قيمة العملة لذلك تقرر أن تدفع الفئات الثلاث على التوالى ٤، ٢، ١ ، جنيه ذهبى (نقد) يعرف بالشريفى - الذى كان يساوى فى بداية العصر العثمانى ١٢ نصف فضة. كما حددت أوجه صرف الجزية على العلماء والفقراء والايتام والأرامل.

ولقد ذكر ستانفورد شو - أن الصدر الأعظم ابراهيم باشا منذ وصوله مصر، وضع جدولا منفصلا للنظام الذى يجب أن يتبع فى ايراد وانفاق أموال الجزية ومن الشروط الواجبه فى ذلك النظام ألا يستخدم دخل الجزية فى نفقات كنسية ومنها

أيضـا أنه فى السنة التى تحـقق زيادة فى الايراد لا تضـاف تلك الزيادة الى الخـزانة بل تتـرك جـانبـا لاستخدامها فى النفقات والمصاريف فى السنوات التى تقل فيها متحصلات الجزية عن المعتاد.

وفى دراسة أعدها شو فى هذا الشأن أوضح من خلالها أنه حدث بالفعل أن المتحصلات خلال النصف الثانى من القرن السادس عشر كانت تقل عن المعدل المعتاد لنفقات تحصيل الجوالى وأن العجز فى الايراد كان يعوض من الخزينة السلطانية، كما أوضح أن العجز فى سنة ٩٦٤هـ ١٥٥٦ - ١٥٥٧ م بلغ ١٩٤,٥٢٢ بارة بينما بلغ العجز عام ٩٧٨هـ / ١٥٧٠ - ١٥٧١ م حوالى ٣٣٦,٠٠٠ بارة.

وفى خلال القرن السابع عشر أصبحت مقاطعة الجوالى فى حيازة التزام أمراء مصر المماليك - كما هو متبع فى معظم المقاطعات المدنية والريفية الأخرى - ولقد أدى هذا النظام الى فقدان السلطات الدينية القبطية جزءا من ادارتها اذ كانت عملية الجباية فى بادئ الأمر من اختصاصها . فقد ورد فى احدى وثائق المحكمة الشرعية ما يفيد أن البطريرك القسبطى يؤانس الرابع (١٥٧١ - ١٥٨٦م) كان ملزما بجزية النصارى الأقباط كذلك كان أمين الجوالى الذى أصبح فى الحقيقة هو الملتزم بدفع مبلغ ثابت سنويا الى «مال الجوالى» والى «مال كشوفية كبير» و «كشوفية صغير» وكان يستبقى الفائض من الجباية لصالحه اذا ما بلغت الحد الأعلى من المقرر لها، وكان المتبع أن يسند أمين الجوالى مهمة الجباية فى المناطق الريفية الى حكامها على أن يلتزموا بتسليمه مبلغا ثابتا كل سنة، وفى نفس الوقت يحتفظون لأنفسهم بما يعود عليهم بالنفع والفائدة وحيث ان أمين الجوالى يدير جابية الجزية مباشرة فى المدن الا أنه فى الاسكندرية ودمياط والسويس كانت من اختصاص قائمقام القبطان العثمانى فى تلك الموانئ.

ويستفاد من سجلات المحكمة الشرعية - المودعة فى دار الوثائق القومية بالقلعة أنه كانت هناك ادارة مالية تابعة للخزانة السلطانية خاصة بالأموال التى تدفع بواسطة أمين الجوالى ، ،وهذه الادارة تحتفظ بسجلات الجزية المفروضة على الذميين - وكان يطلق عليها «دفاتر بيان أوراق الجزية» ويتم تسجيل الايرادات والمصروفات بمعرفة كتبة يعرف الواحد منهم باسم «جوالى افندى».

ولقد أوضح أحمد شلبى فى كتابه «أوضح الاشارات فيمن تولى مصر من أنه فى الربع الأخير من القرن السابع عشر كان مفروضا على الذميين جميعا دفع جزية موحدة مقدارها ١٢٠ بارة كان يتولى جبايتها جباة يعرفون باسم «الحشار» وكان هؤلاء يتركون للممول بعد سداد الضريبة - تذكرة من الورق الملون حاملة خاتم رئيسهم وحاوية اسم الذمى وبلدته ومديريته وسكنه وسنه وتاريخ اليوم والشهر والسنة التى سدد ضريبتها، وكان على الذميين حمل تلك الورقة بصفة دائمة ليقدموها الى رجال الالتزام وقت المطالبة لأنها كانت تقوم مقام ايصال السداد.

وفى عام ١١٠٦هـ/ ١٦٩٤م وضع الصدر الأعظم محمد زاد باشا نظاما جديدا لجباية الجزية فى الدولة العثمانية، ويقضى ذلك النظام بأن ترفع يد الملتزمين من المقاطعات المختصة بتحصيل ضريبة الجزية ومنحها لأولئك المعنيين من قبل الادارة المركزية لديوان الجزية فى مدينة ادرنه، وعلى هذا النحو تصبح الجبايات فى الدولة تجبى عن طريق متخصصين يعرف الواحد منهم باسم «ملتزم

الجوالى» أو «جزية دار / مأمور تحصيل». وهؤلاء يرسلون إلى الولايات بالدولة عن طريق «ديوان الجزية» كأمناء مكلفين بأن يسلموا إليه ما تحصل من الجزية كاملة بعد عودتهم نظير مرتب ثابت.

ولقد قسم أهل الذمة – طبقا لهذا النظام – الى ثلاث فئات عند دفعهم ضريبة الجزية تبعا لمقدرتهم على الدفع، فأولئك الذين يعتبرون أغنياء كانوا فى الفئة العليا (عالى) وعلى كل فرد من تلك الفئة دفع أربع قطع ذهبيـــة كل سنة، وأولئك الذين يعتبرون متوسطى الحال كانوا فى الفئة الوسطى (أوسط) بدفع الواحد منهم قطعتين ذهبا سنويا، والباقى كانوا فى الفئة الدنيا (أدنى) وعلى الفرد منها دفع قطعة ذهبية واحدة كل سنة.

ويقضى هذا النظام باجراء مسح شامل لجميع الذميين فى كل اقليم، وتحديد عدد أشخاص كل فئة سنويا، وعلى الرغم من تحديد أعداد كل فئة الا أن ذلك ذلك كان عرضة لأنى يتغير فى السنة التالية كما يقضى هذا النظام أيضا بأن يقوم ديوان الجزية باصدار أوراق الجزية «تذاكر أو بطاقات» كل سنة هجرية بحيث يطابق أعداد كل فئة من الفئات الثلاث، وترسل الاوراق فى صورة الى جميع قضاة الأقاليم فى ولايات الدولة التى تخضع لضريبة الجزية، وتقضى التعليمات بألا تفض هذه الصور الا فى أول أيام السنة الجديدة فى شهر المحرم فى المحاكم الشرعية بتلك الأقاليم . ومن الأمور التى تتميز بها أوراق الجزية أنه مؤشر عليها بالأحرف الاولى ومسجلة ومدموغة فى الادارة المالية بالقسم الثامن بخزانة الحكومة المعروفة باسم «جزية محاسبة سى» أو محاسبو الجزية. ويوجد على كل ورقة السنة واسم الدفتر دار واسم الجزية دار وختمه وختم اثنين من الشهود اللذين يصحبانه كمساعدين له واسم المقاطعة وبيان الفئة وكانت ألوان الاوراق كالآتى: حمراء للفئة العليا، وبيضاء للفئة الوسطى وصفراء للفئة الدنيا. وكان على الجزية دار طبقا لذلك النظام أن يقوم بتسليم تلك الأوراق الى الممولين بعد أن يسجل أسماءهم وبياناتهم اذ أن تلك الأوراق تشكل بالنسبة لهم نوعا من الحماية. فلم يكن لهم أى حق فى حماية السلطان اذا أهملوا الاحتفاظ بها.

وقد روعى فى ذلك النظام ألا يترك ذمى بدون اعداد ورقة سداد له فى أى مكان وتقضى التعليمات بمنع الأشخاص القادرين على دفع الجزية من مغادرة بيوتهم خشية فرارهم وذلك قبل بدء عملية التحصيل كما يوقف أى ذمى فى الطريق ويطلب منه ابراز الورقة الدالة على سداد ضريبة الجزية.

وكان أول تطبيق لذلك النظام فى الأناضول وروم ايلى فى عام ١١٠٧هـ / ١٦٩٦م – ١٦٩٦م، وفى السنة التالية اجرى تطبيقه فى سوريا ومعظم اجزاء من العراق ولقد كان لوفاة الصدر الأعظم محمد زاد باشا وكثرة المشاكل الداخلية والخارجية التى تعرضت لها السلطنة العثمانية وقتذاك أن تأجل تطبيق ذلك النظام فى مصر الى عهد السلطان محمد الأول (١٧٣٠ – ١٧٥٤). فقد أصدر الباب العالى فى ربيع أول سنة ١١٤٧هـ / اغسطس ١٧٣٤م ثلاث فرمانات الى السلطة الحاكمة فى مصر بخصوص تنظيم ضريبة الجوالى. يقضى الفرمان الأول بأن يؤخذ التزام الجوالى من الملتزمين المماليك ويعطى فى امانة الباشا العثمانى وأن تتولى الجوالى أو الجزية دار من سيأتى سنويا من قبل ديوان الجزية فى ادرنة لترتيب وتسوية المتحصلات الفعلية للجزية. ويقضى الفرمان الثانى

بتقسيم النصارى واليهود الى ثلاث فئات يدفع الشخص من الفئة العليا (عالى) ٤٠٠ بارة ومن الفئة الوسطى (اوسط) ٢٠٠ بارة ومن الفئة الدنيا (ادنى) ١٠٠ بارة. أما الفرمان الثالث فيقضى بأن يتولى الجزية دار بعد أن يتم تسوية حسابات الجزية بعد الجباية تنظيم حساباته مع ديوان الروزنامة.

ويستفاد مما اورده أحمد شلبى أن النظام الجديد لتنظيم ضريبة الجزية فى مصر بدأ فى تنفيذه فى غرة جماد آخر سنة ١١٤٧هـ/ ٢٩ اكتوبر ١٧٣٤م، فقد ذكر [وفى يوم الخميس خامس جماد آخر ورد رجل يقال له على أغا وكان دفتر دار القسطنطينية وصحبته سبعة خطوط شريفة قريت بالديوان بحضرة العلما وأرباب السجاجيد وشيخ الاسلام وقاضى مصر عبد الله افندى ونقيب الاشراف والصناجق والأغوات والعساكر واختياريهم ثلاث خطوط بسبب الجوالى، جوالى اليهود والنصارى بآيات قرآنية واحاديث نبوية وأن على أغا هذا يكون قائما بخدمتنا وقبضة من غرة جماد آخر سنة ١١٤٧ (٢٩ اكتوبر ١٧٣٤) وأن يقبض من الأعلى أربعماية والأوسط مايتين والأدنى ماية ديوانى (بارة) فأجابوا بالسمع والطاعة واخذوا الدفاتر من حسين كتخدا الدمياطى واسلموها الى على أفندى.

.. ثم ان القباض قبضوا من غرة جماد آخر سنة ١١٤٧ وكل من قبضوا منه يعطوله ورقة مختومة بأربعة ختوم، ختم التاريخ وختم باسم ابراهيم اغا دفتر دار اسلامبول وختم بالأعلى والأوسط والأدنى، وختم فى ظهر الورقة وصاروا يكتبون شكل الذمى وملبوسه فى الورقة].

ويبدو واضحا مما رواه أحمد شلبى أن تطبيق النظام الجديد لسداد ضريبة الجزية قد الحق الضرر بفئات أهل الذمة. فقد روى [أن النصارى أجمعوا أمرهم بأن يطلعوا الى الديوان يراجعون فى هذا الأمر وكانوا نحو ألف نصرانى، فهم فى الرميلة واذا بالعسكر قامت عليهم فضربوهم ومات منهم اثنان ورجعوا معاكيس].

كما روى أيضا [ان الذميين قد أخذ منهم الحشار نحو نصف الجوالى واعطاهم الوصلات (الايصالات) على الحساب القديم، ماية وعشرون [كيسا] نصف فضة كل ذمى بالغ وغير بالغ من ستين الى ثلاثين فأبت خدمة الجوالى أن يقعدوا (يردوا) بشىء مما أخذوه منهم فرجع النصارى على حسين كتخدا الدمياطى فصار يأخذ منهم الوصول (الايصالات) ويدفع لهم أربعة ارباع ريال تعجز فى الوزن عجزا فاحشا، فصار النصرانى الفقير يأخذ وغير الفقير يتعفف عن الخمسين نصفا].

ومما لا شك فيه أن النظام الجديد لجباية الجزية الذى بدأ تطبيقه فى مصر منذ عام ١٧٣٤ كان نتيجة جهود الباب العالى من أجل ضبط وإحكام نظام الجباية من أجل أن يحصل لنفسه على عائد من الجزية كان يذهب الى الملتزمين، فقد ذكر أحمد شلبى أن الجباة «قبضوا تلك العام (١٧٣٤م) ثمانمائة كيس ديوانى وشىء وقد كانوا يأخذها الملتزمون بالجوالى من الوزير بثمانين كيسا ويأخذون من النصارى واليهود ماية وعشرين».

ومنذ أصدر الباب العالى الفرمانات الثلاثة فى عام ١٧٣٤م صارت الجوالى خارجة عن التزام مصر، وقد بدأ منذ ذلك العام اعداد حصر شامل لجميع الذميين المكلفين بدفع الجزية. ويذكر الجبرتى أن أمراء المماليك «تشاوروا فيمن ينزل بصحبة الاغا (على افندى) والكاتب من الأمراء

الصناجق لتحرير بلاد قبلى فقال حسين بيك الخشاب: أنا مسافر بمنصب جرجا وينزل بصحبتى الأغا المعين وانظروا من يذهب الى بحرى. فقال محمد بيك قطامش : كل اقليم يتقيد بتحريره الكاشف المتولى عليه ومعه الأغا والكاتب. فاتفق الرأى على ذلك».

وقد أعد تقرير فى عام ١١٤٩هـ/ ١٧٣٧م يتضمن وجود ١٢٠,٠٠٠ ذمى فى مصر يمكن أن يدفعوا ضريبة الجزية، منهم ١٢,٠٠٠ فى الفئة العليا، ٢٤,٠٠٠ فى الفئة الوسطى ، ٨٤,٠٠٠ فى الفئة الدنيا. وعلى أساس هذا التقرير قرر الباب العالى فى نفس هذا العام ان من بين كل ماية ممول يدفع عشرة أشخاص من الفئة العليا لكل واحد ٤٠٠ بارة، وعشرون من الفئة الوسطى يدفع الواحد ٢٠٠ بارة، وسبعون من الفئة الدنيا يدفع الواحد ١٠٠ بارة، وعلى هذا النحو فقد قدرت الضريبة التى سوف يدفعها ١٢٠,٠٠٠ ذمى بنحو ١٨,٠٠٠,٠٠٠ (ثمانية عشر مليون بارة) على ان يستقطع من تلك الحصيلة الاجمالية مبلغ ٦٧٩,٧١٠ بارة لحساب كاشفيه صغير ومرتبات تدفع للباشا العثمانى ولآخرين فى مصر حسبما تقرر فى النظام الجديد. والى جانب ذلك يدفع الجزية دار مالا ميريا للخزانة السلطانية قدر بمبلغ ١,٩١٦,٠٠٠ بارة كما يدفع مبلغ ٤٠٠,٠٠٠ بارة بمثابة كاشفيه كبير وما تبقى بعد ذلك وقدره ١٥,٠٠٧,٢٩٠ بارة ترسل الى الباب العالى.

وبالاضافة الى ذلك كانت هناك رسوم اضافية تقدر بثلاثين بارة عن كل ذمى فى الفئة العليا، وعشر بارات عن كل ذمى فى الفئة الوسطى، وسبع بارات عن كل ذمى فى الفئة الدنيا، وكانت تجمع لتسديد مبلغ ٩٨٤,٠٠٠ بارة قيمة نفقات السفر والاقامة لأولئك الذين يتولون عملية الجباية.

وعلى أية حال فأنه على الرغم من تطبيق النظام الجديد لجباية الجزية فى مصر فان أولئك الذين استفادوا فى الماضى من حق الجباية ظلوا فى حقيقة الأمر قادرين على الاحتفاظ بمعظم الفوائد التى كانت تعود عليهم. بينما أصبحت الخزانة السلطانية فى ظل النظام الجديد تحصل من المال على الأقل مما كانت تحصل عليه فى ظل النظام القديم. فلقد بدا واضحا أن نظام الجباية الجديد قد تعمد أن يحرم الحكام المحليين والملتزمين من حقهم فى جمع الجزية بينما جعل من نظام المسح الشامل للذميين أساسا للجباية الا أنه فى الحقيقة مضطر الى أن يعتمد على أولئك الذين فى يدهم السلطة الفعلية فى القرى والنواحى .. أى الملتزمين – فعند اعداد بيان الحصر كان الملتزمون يخفون وجود أعداد كبيرة من الذميين فى النواحى التابعة لهم لكى يستمروا هم فى جمع ضريبة الجزية من هؤلاء لمصلحتهم. وكان يحدث عند الجباية من تلك الاعداد المدونة فى بيان الحصر أن يقوم الجزية دار بتسليم ما يماثل تلك الاعداد من أوراق الجزية الى الملتزمين لجبايتها وكثيرا ما كان الملتزمون يجمعون الجزية لمصلحتهم ويردون الأوراق مدعين أن بعض الذميين الذين اشتمل عليهم بيان الحصر أما هربوا أو ماتوا وفى بعض الأحيان يقومون بجمع الضريبة المستحقة من رجال الفئة العليا ويعطونه أوراق الفئة الوسطى ويردون أوراق الفئة العليا على أنها لم تحصل محتفظين بالفرق لأنفسهم.

وعلى هذا النحو فانه يمكن القول بأن الباب العالى لم يكن فى مقدوره ـ بالرغم من تطبيق النظام الجديد – ان يجمع من ضريبة الجزية اكثر مما

يسمح به الملتزمون الذين كانوا يتحكمون فى قيمة الفائض الذى كان يرسل اليه فلقد اثبتت الاحصاءات على مدى حوالى ربع قرن من عام ١١٤٩ هـ/ ١٧٣٧م هـ إلى عام ١١٧٧ هـ/ ١٧٦٣م – ان عدد الذميين الممولين وأموال الجباية التى جمعت والفائض المخصص للباب العالى كانت جميعا أقل بكثير مما قدر لها فى المراسيم السلطانية كما أثبتت تلك الاحصاءات مدى عجز الباب العالى فى الحصول على نصيبه من التزام جوالى مصر. وسوف نوضح ذلك على النحو التالى:

١ ـ فى عام ١١٤٩هـ/ ١٧٣٧م قدر الباب العالى ان هناك ٣٠٠,٠٠٠ ذمى ارسلت لهم ٢٤٠,٠٠٠ ورقة جزية لجبايتها ولم يستطع على افندى الجزية دار أن يكشف الا عن ١٢٠,٠٠٠ ذمى من المموالين وبمهارة على أفندى الادارية وبأمانته وزعت ١٠٧,٨٠٠ ورقة جزية وتم جمع مبلغ عشرة ملايين بارة.

٢ ـ فى الفترة م عام ١١٥٠هـ / ١٧٣٧م الى عام ١١٥٣هـ/ ١٧٤٠م امكن توزيع ٣٥,٠٠٠ ورقة جمعت متحصلات قيمتها أربعة ملايين بارة فى كل د - وقد جمعت تلك المتحصلات على وجه التحديد من أشخاص الفئة الوسطى.

٣ ـ فى مطلع عام ١١٥٣هـ/ ١٧٤٠م ازسل الباب العالى خليل أفندى ـ رئيس الكتاب بالباب العالى ـ ملتزما جديدا للجوالى فى مصر. وقد قام باعداد احصاء شامل اسفر عن وجود ٧٠,٠٠٠ ذمى من المموالين، وازاء هذا الاحصاء الذى قورن بمتحصلات الجزية خلال السنوات الأربع الماضية، اصدر الباب العالى اوامره بأن ضرائب الجزية لعام ١١٥٥ هـ / ١٧٤٢م وما بعد ذلك تدبر على أساس أن يتحمل معظم الضرائب اشخاص الفئة الوسطى وانه بالامكان جمع مبلغ ١٣,٢٥٠,٠٠٠ بيارة ومن هذا المبلغ يدفع ٢,٣١٦,٠٠٠ بارة الى الخزينة السلطانية ويدفع مبلغ ٦٧٩,٧١٠ الى الباشا والآخرين والباقى وقدره ١٠,٢٥٤,٢٩٠ بارة ترسل الى الباب العالى.

٤ ـ فى عام ١١٥٤هـ/ ١٧٤١م أرسل الباب العالى ـ طبقا لما قدره فى العام الماضى ـ ٧٠,٠٠٠ ورقة ـ ومما هو جدير بالذكر أن الملتزمين لم يصرفوا منها سوى نصفها فقط ، وقد تمت جباية مبلغ ٦,٢٢٥,٠٠٠ بارة فى كل سنة . وقد أرسل الى الباب العالى مبلغ ٣,٢٢٩,٢٩٠ بارة بعد أن دفع الجزية دار مستحقات الخزانة السلطانية والوالى والآخرين.

٥ ـ فى عام ١١٥٥هـ/ ١٧٤٢م هبط عدد الذميين المموالين الى ٣٥,٠٠٠ ذمى مما جعل الباب العالى يصدر أوامره بزيادة الضريبة المفروضة على كل فئة من الفئات الثلاث ، وأصبحت الفئة العليا يدفع الواحد منها ٤٢٠ بارة والوسطى ٢١٠ بارة والدنيا ١٠٥ بارة وعلى هذا النحو يكون مجموع الجزية المستحقة ٧,٤٥٥,٠٠٠ بارة وقد زاد تبعا لذلك الميرى الى

٦٠٠, ١,٩٣٦ بارة وكشوفية كبير الى ٤٥٠,٠٠٠ وكشوفية صغير والمرتبات الى ٦٨١,٠٠٠ بارة وما تبقى بعد ذلك وقدره ٤,٣٨٧,٤٠٠ بارة كان المفروض أن يرسل الى الباب العالى سنويا.

٦ ـ وفى عام ١١٦٣هـ/ ١٧٤٩ – ١٧٥٠م حاول الباب العالى زيادة أعداد الذميين الممولين الى ٤٠,٠٠٠ ذمى مما يمكنه من جمع مبلغ يصل الى ٨,٠٨٥,٠٠٠ بارة كل سنة وفى نفس الوقت تظل مستحقات الخزانة السلطانية والوالى والآخرين كما هى دون تغيير، وعلى هذا تضاف الزيادة فى حصيلة الضرائب وقدرها ٦٣٠,٠٠٠ بارة بكاملها الى المبلغ المرسل الى الباب العالى ونتيجة لذلك يصبح ما يخص الباب العالى مبلغ ٥,٠١٧,٤٠٠ بارة.

٧ ـ استمرت ضرائب الجزية خلال السنوات ـ من ١١٧١هـ/ ١٧٥٦م الى ١١٧٣هـ/ ١٧٥٩ – ١٧٦٠ تجمع بالكامل الا أن البكوات المماليك أرادوا أن يخولوا لأنفسهم الحق فى متحصلات الجزية، ولكن تهديدا عثمانيا أتاهم بغزو البلاد أرغمهم على قبول زيادة ضرائب الجزية، وقد صدر فرمان تلك الزيادة فى عام ١١٧٤هـ/ ١٧٦٠م يقضى بأن يدفع الذمى فى الفئة العليا ٤٤٠ بارة، ٢٢٠ بارة للوسطى، ١١٠ بارة للفئة الدنيا. وهذا يجعل دخل الجزية السنوى يصل الى ٨,٤٧٠,٠٠٠ بارة كما تقرر زيادة الميرى الذى يدفع الى الخزانة السلطانية الى ٢,٠٠٣,٦٦٤ بارة أما كشوفية كبير وقدره ٤٥٠,٠٠٠ بارة وكشوفية صغير ومرتبات وقدره ٦٨٩,٧١٠ بارة فظلت مستحقاتهما كما هى دون تعديل وعلى هذا فان الفائض المخصص للباب العالى قد زيد تبعا لذلك الى مبلغ ٥,٣٢٦,٦٢٠ بارة منذ تلك السنة.

وفى حقيقة الأمر كان معدل المطلوب من متحصلات الجزية للخزانة مبلغ ١١,٠٥٠,٠٠٠ بارة سنويا بينما المبالغ الفعلية التى سددت خلال تلك المدة كان بمعدل ٦,٢٢٥,٠٠ بارة فقط أى بنسبة ٥٢٪ فقط من مجموع المبلغ المطلوب وهذا يعنى أن الملتزمين صرفوا ما مقداره نصف أوراق الجزية التى أرسلت فى الوقت الذى كان يأمل فيه الباب العالى ـ كما أشارت بذلك الفرمانات الصادرة خلال تلك المدة ـ أن يحصل على ثلاثة ملايين بارة سنويا على الأقل.

ومهما يكن من أمر ـ فعلى حد قول شو ـ كانت معظم متحصلات الجزية تجد طريقها باستمرار الى الأمراء المماليك، وكان على الذميين الممولين تبعا لتلك السياسة المالية أن يتحملوا تلك الزيادات التى كانت تتقرر فى سنة بعد أخرى وهذا كان ـ بطبيعة الحال ـ يمثل عبئا باهظا كما كان أحد العوامل الرئيسية فى زيادة ضيقهم وبؤسهم.

ولقد بذلت مجهودات من جانب الباب العالى عام ١١٧٩هـ/ ١٧٦٥م لإعادة ترتيب نظام الجزية فى مصر على أساس اعادة النظر فى نظام عام ١١٤٧هـ/ ١٧٣٤م بما يحقق لها عائداً أكبر وقد رؤى أن تسترد جزية المقاطعات من الأمراء المماليك مرة أخرى وأن تسند إلى أمانة الباشا العثمانى الذى كان يدير أمرها من قبل، وذلك من خلال مدير ادارة الضرب فى مصر، وبهذا تحولت عملية ضبط وادارة الجزية مرة أخرى إلى الباب العالى ومندوبيه.

وفي ذلك العام حضر الى مصر أحمد أغا يحمل فرمانا من الباب العالى للاشراف على تطبيق النظام الجديد وتوزيع أوراق الجزية على الممولين.

ولقد حدث في عام ١١٨٢ هـ/ ١٧٦٨م أن أجرى مسح شامل للذميين في مصر أسفر عن وجود ٩٠,٠٠٠ ذمى ملزمين بدفع ضريبة الجزية، ولكن ظهور على بك الكبير في السنة التالية ـ والذى جعل من نفسه حاكما مستقلا بمصر ـ أرجأ العمل بالنظام الجديد مدة خمس سنين.

وعندما استعيدت السلطة العثمانية على مصر عام ١١٨٨ هـ/ ١٧٧٥م أرسل درويش عبد الرحيم أفندى ـ رئيس الكتاب بالباب العالى ـ كجزية دار ولكى يتم اصلاح نظام الجزية الذى كان قد بدأ قبل حركة على بك الكبير وأصبحت جزية المقاطعات تبعا لذلك النظام في التزام الباشا العثمانى كما أسندت ادارتها الى مدير ادارة الضرب كأمين للجوالي.

ويبدو أن أعداد الجباة ـ الذين كانوا يرسلون الى النواحى لتحصيل ضريبة الجزية ـ كانت كبيرة للغاية مما كان يكبد الممولين أموالا باهظة نظير نفقات سفر هؤلاء الجباة واقامتهم. ولهذا فقد أصدر الباشا العثمانى خليل.باشا فرمانا بتاريخ ١٥ ذى القعدة ١١٨٨هـ/ ١٧ يناير ١٧٧٥ م يقضى بألا يزيد عدد الجباة المكلفين بجمع الجزية في أى مقاطعة على خمسة أشخاص هم الجزية دار والكاتب ـ وهذان يمثلان أمانة الباشا العثمانى ، وفرد واحد من فرقة الجاوشان أو المتفرقة وفرد واحد يمثل أمراء المماليك . وجندى واحد يرسل عن طريق شيخ البلد. كذلك يقضى الفرمان بألا يجمع هؤلاء من أجل مصاريف اقامتهم ـ أكثر من ١٣ بارة من كل ذمى في الفئة العليا ، و١٠ بارات من الفئة الوسطى ، و٧ بارات من الفئة الدنيا .

ولقد ذكر شو أن هناك زيادة تقررت على الفئات الثلاث في عام ١٧٧٥ بحيث صارت الضريبة المفروضة على أشخاص الفئة العليا ٤٥٣ بارة والفئة الوسطى ٢٣٠ بارة والفئة الدنيا ١١٧ بارة. وقد يعنى هذا أن الرسوم الاضافية التى تقررت للجباة طبقا للفرمان ـ فرمان خليل باشا السابق ذكره ـ لم تكن تجمع مباشرة من الذميين وانما كانت تضاف الى الخزينة نفسها وقد ذكر شو أيضا أن المبلغ الاجمالى لحصيلة الضرائب ارتفع طبقا لتلك الزيادة التى تقررت ـ حيث أشار الى أن هناك ٩٠,٠٠٠ ذمى ممول ـ ارتفع الى ٢٠,٤٥٠,٠٠٠ بارة.

كما أثبتت الوثائق الرسمية أنه في خلال السنوات الأربع من ١١٩٧هـ / ١٧٨٣م الى ١٢٠٠هـ ١٧٨٦م قام ابراهيم بك ومراد بك ـ اللذان جعلا من نفسيهما حاكمين مستقلين على مصر ـ بتحويل معدل سنويا قدره ١,٥٠٠,٠٠٠ بارة فقط الى الخزانة السلطانية . أما الباقى فقد احتفظ به الأمراء المماليك لمصلحتهم وأثبتت الوثائق الرسمية أيضا بأن ابراهيم بك ومراد بك حينما استعادا سلطاتهما في مصر عام ١٢٠٥هـ/١٧٩٠م ـ بعد رحيل القبطان حسن باشا الجزائرلى ـ لم يحولا شيئا الى الباب العالى وأن جميع متحصلات الجزية التى بلغت في ذلك العام مليون بارة خصصت للخزانة السلطانية علما بأن الجباة زادوا أعباء الجباية لمواجهة متطلبات الاقامة والسفر الى ١١٣ بارة عن كل ذمى في الفئة العليا ، ٦٣ بارة عن كل ذمى في الفئة الوسطى و٣٣ بارة للفئة الدنيا .

ولقد أوضح فرمان صادر من الباب العالى فى عام ١٢٠٩هـ / ١٧٩٤ م يتضمن المطلوب من الباشا العثمانى تحصيله من ضرائب الجزية وبعد دفع المستحقات المقررة يرسل الفائض الى الباب العالى. وقد جاء فى هذا الفرمان «المطلوب طرف حضرت وزير روش ضمير الحاج صالح باشا محافظ محروسة مصر دامه الله ملتزم مقاطعة جوالى راى ديوان عاليشان بر موجب معتاد قديم وكشوفية صغير وذرارى عظام وعويدات ومرتبات سايرة بموجب مفردات دفتر حكم محاسبة ديوان مصر واجب سنة ١٢٠٩هـ والتعليمات برأى ديوان مصر وكشوفية صغير حضرت وزير عويدات ومرتبات ووظائف سايرة واجب سنة ١٢٠٩هـ عن معتاد المتحصلات ونفقات كشوفية صغير والعوايد والمرتبات والوظائف الجارية للجباة وطبقا لما هو مدون لسنة ١٢٠٩هـ فى دفاتر المحاسبة بديوان مصر حسب التعليمات بخصوص نفقات كشوفية صغير والوزير (الباشا العثمانى) والعوايد والمرتبات والوظائف الجارية للجباة .

«ولقد جاء فى هذا الفرمان أيضا المبلغ المطلوب للخزانة السلطانية من مال الجوالى وقدره ٢,٥٩,٠٨٠ بارة وللعوائد مبلغ قدره ١,١٢٢,٠٣٤ بارة وما تبقى وقدره ١٥,٩٤٨,٨٨٥ بارة فيرسل الى الباب العالى .

كذلك صدر فرمان آخر من الباب العالى آخر عام ١٢١٠ هـ/ ١٧٩٥م يحمل نفس عبارات تقديم الفرمان السابق الا أنه أضاف مستحقات كشوفية صغير ومرتبات وعوايد سايرة - لمواجهة نفقات جباية الضرائب - فأصبحت ١,٢٥١,١١٩ بارة أما بقية المستحقات فظلت كما هى دون تعديل. أما المبلغ المتبقى بعد ذلك وقدره : ١٥,٣١٩,٨٠ بارة فيرسل الى الباب العالى.

ويتضح من خلال البيانات السابقة مدى مساهمة ضرائب الجزية فى المال الميرى كمصدر هام فى ايرادات الخزانة السلطانية فى مصر .

وقد أفاضت بعض المصادر التاريخية فى الحديث عما كان الذميون يعانون من ضيق بسبب أداء ضريبة الجوالى ، وما كان يصاحب عملية الجباة من أساليب العنف والقسوة والبطش من جانب الجباة والعسكر مادفع البعض منهم الى الهرب والاختفاء فى الجبال، فضلا عما ذاقه فقراء النصارى المصريين من مرارة ومهانة كانت تصل الى حد الحبس لغير القادرين على الدفع بل وحجز أولادهم للخدمة فى البيوت [انظر قصة الشيخ المهدى]، وفى العادة كان يقوم أثرياء الأقباط من الأراخنة أمثال : المعلم نيروز والمعلم رزق الله شكر الله والمعلم ابراهيم جوهرى - الذين قيل عنهم فى المخطوطات القبطية أنهم «كانوا يشترون الفقراء شراوى من حبس الجوالى ويخلصونهم.» وقد قام بعض أولئك الأراخنة الأقباط باحداث وقف يخصص لسداد المقرر على الأقباط المحبوسين غير القادرين على الدفع بسبب الجوالى أطلق عليه «وقف حبس الجوالى» .

بالإضافة إلى تلك السياسة التى خلت من وازع الضمير الدينى أو الانسانى أو أى اعتبار لما قد يترتب عليها من اثارة الحقد والتعصب بين أبناء المجتمع الواحد.

(٢) المغارم والالتزامات المالية:

تعرض أهل الذمة فى مصر ابان الحكم العثمانى لمغارم وأعباء مالية أخرى غير ضريبة الجوالى كانت تفرض لتغطية نفقات الحملات العسكرية حينما

تكون السلطنة العثمانية فى حال حرب مع أعدائها خارج البلاد سواء من المسلمين أو غيرهم، من ذلك ما حدث فى عام ١٥٦٦ - فى عهد السلطان سليمان المشرع - عندما احتاج السلطان الى مبالغ من المال لنفقات سفر الجيش العثمانى بقيادة سنان باشا - لفتح بلاد اليمن فأصدر السلطان أوامره أن يجمع ذلك المبلغ من أقباط مصر وفرض على جميع التجار والافرنج واليهود ومن جملتهم النصارى ألفى دينار.

وكان هناك بعض رؤساء الطوائف الذمية يتعرضون لمغارم شخصية من جانب بعض الحكام العثمانيين فقد أشار مصدر قبطى معاصر الى أن خليل باشا أرسل فى عام ١٠٤١ هـ ١٣٤٨ق / ١٦٣١م، رسولا يستدعى عن البابا متاوس الثالث (البطريرك رقم١٠٠) بسبب عدم قيامه بدفع الرسوم المعتادة بعد أن صار بطريركا ويذكر المصدر أن ذلك بسبب وشاية قام بها بعض الحاقدين على البابا وأنهم طلعوا الى خليل باشا وأخبروه أن الذى يصير بطريركا يقوم بدفع رسم كبير المقدار للمتولى على حكم مصر، فلما علم جماعة الأراخنة بتلك المؤامرة الخبيثة طلعوا الى القلعة وقابلوا خليل باشا الذى تكلم معهم فى شأن الرسوم وألزمهم بالقيام بدفع غرامة قدرها أربعة آلاف قرش، فنزل الأراخنة من عند الباشا ممتلئين غما. وتذكر المصدر أيضا أن أحد اليهود دفع المبلغ المذكور من عنده الى الباشا، وألزم جماعة الأراخنة أنفسهم بجمع هذا المبلغ ودفعه لليهودى.

كذلك كان الذميون المصريين يتعرضون لأعباء مالية أخرى أحيانا إلا أن كان يحدث وسط اجراءات مالية عامة تشمل جميع فئات الشعب المختلفة. فقد حدث فى ختام عام ١٠٤٢هـ/ يوليو ١٦٣٥م فى عهد السلطان مراد الرابع وأثناء ولاية أحمد باشا الكورجى أن تقرر سك العملة من النحاس ويجمع بدلها العملة الذهبية فى البلاد لتغطية نفقات الحروب الخارجية للدولة فى لبنان وفارس فكان لهذا الاجراء عواقب وخيمة على حالة البلاد الاقتصادية فعمت بسببه كوارث اقتصادية شملت كل المصريين الغنى والفقير والتاجر والصانع بلا تفرقة أو تمييز.

ويصف الرحالة فانسليب - واقعة اضطهاد طائفة من الاقباط فى حى الأزبكية فى شهر سبتمبر من سنة ١٦٧٢ وذلك بقصد اجبارهم على دفع غرامة مالية لسلطات الحكم فيذكر أن الأقباط قاسوا اضطهادا عظيما لأن بعض الجند العثمانية قاموا بذبح امرأة خليعة وألقوا جثتها بعيدا عند بركة الأزبكية فقام والى القاهرة ظلما وعدوانا بغلق كل بيوت النصارى المتاخمة لتلك المنطقة وأجبرهم على دفع غرامة مالية قدرها ألفا قرشا دية لهذا الدم المهدور اذا ارادوا أن يفتحوا بيوتهم ويسعوا الى معاشهم.

وكانت المغارم والأعباء المالية تحدث لتيجة الاضطرابات التى تعم البلاد بسبب الفتن الداخلية وأثناء الصراع الذى كان يدور بين العناصر الحاكمة للاستئثار بالسلطة، فلقد حدث فى السنة التالية للرسامة البابا بطرس السادس - البطريرك (١٠٤) - فى عام ١٧١٩م أن قامت فتنة بسبب الصراع على السلطة بين الصنجق اسماعيل بك ابن ايواز والصنجق محمد بك شركس، ولقد بلغت الفتنة من شدتها أنها كانت أشبه بالحرب الأهلية وانتهز الرعاع الفتنة فقاموا بأعمال السلب والنهب

واشعال الحرائق. ويعلق أحد المؤرخين الأوروبيين على تلك الفتنة بقوله أنها كانت بداية لسلسلة من القلاقل والمنازعات استمرت الى مجيء الحملة الفرنسية فلم تعد الخصومة قائمة بين حزب الوالى وحزب المماليك فحسب بل امتدت الخصومة بين أفراد الحزب الواحد للوصول الى الرياسة وبطبيعة الحال كان لهذه الفتن والقلاقل أوخم العواقب على أحوال البلاد الاقتصادية وكذلك على المسلمين وغير المسلمين وخاصة النصارى منهم.

كما ذكرت المصادر أن تلك الفتن كانت تستهدف الأقباط المصريين ـ وخاصة فى الصعيد ـ حتى اشتد الكرب عليهم اذ ضربت عليهم فى مطلع القرن الثامن عشر غرامة فادحة لم يعف منها أحد، وبيعت بسبب تلك الغرامة الجواهر الكريمة بأبخس الأثمان وألزم بهذه الغرامة القساوسة والرهبان والصبيان والفقراء وأرغم بطريرك الاقباط بدفعها عن القساوسة وخدام الدين.

وكانت المغارم تفرض وسط اجراءات سياسية صادرة من الباب العالى فقد حدث نتيجة ازدياد طائفة الكاثوليك وكثرة أعدادها وتوغلها فى كل أنحاء البلاد ورغبة الباب العالى فى الحد من ذلك النفوذ المتصاعد أن أصدر مرسوما عام ١٧٥٣م حمله بطريرك طائفة الملكية اليونانية الى السلطات الحاكمة فى مصر وذلك بمنع أبناء طائفة النصارى الشوام من دخول كنائس الكاثوليك الافرنج فان دخولوا يدفعون للدولة ألف كيس، وقد سير ابراهيم كتخدا فى طلب أربعة من القساوسة من دير الكاثوليك فجاءوا بهم فحبسهم وأخذ منهم مبلغا عظيما من المال.

وقد لجأ بعض الحكام من البكوات المماليك الى ابتزاز الأموال وفرض المغارم على كافة طوائف الشعب المصرى وذلك حتى يمكنهم الانفاق على القوات المرتزقة وعلى أعمال التسليح.

بعد وفاة على بك الكبير استمر الصراع بين البيوتات المملوكية وأمرائها من أجل الوثوب الى السلطة وكان الامراء المماليك فى صراعهم هذا يطوفون بالبلاد يسلبون وينهبون ويفرضون الاتاوات على الأهلين من الأقباط المصريين مما كان يدفع ببعضهم الى الهرب تجنبا لما كان قد يصيبهم من ضرب واهانة وقتل. ولقد ذكر الجبرتى فى حوادث ربيع الأولى عام ١٢٠٠هـ/ يناير ١٧٨٦م أن مراد بك ـ وكان على رأس السلطة آنذاك ـ شرع فى السفر الى الوجه البحرى فى جماعة من كشافه ومماليكه، وطاف ببعض المدن والقرى مطالبا أهليها بالأموال المقررة مضافا إليها حق الطريق، فأن تأخرت قرية أو بلدة فى أداء ما قرر عليها كان مصيرها الخراب والنهب والدمار. ولقد عين على الاسكندرية أحد كشافه يدعى صالح أغا ـ كتخدا الجاوشية سابقا ـ الذى قرر لنفسه حق طريق مقداره خمسة آلاف ريال، كما قرر على أهلها مائة ألف ريال وأمر بهدم الكنائس فى حالة عدم دفع ما قرره.

وفى ظل حملة القبطان حسن باشا الجزائرلى (١٧٨٦ ـ ١٧٨٧م) ضد ابراهيم بك ومراد بك أرسل يطلب من قاضى القضاة احصاء لما أوقفه المعلم ابراهيم جوهرى يومئذ على الكنائس والديارات من أطيان ورزق وأملاك وغير ذلك . كما قبض العسكر على امرأته و فتحوا بيته عنوة واستولوا على كل ما فيه وكان شيئا كثيرا وقدموه

الى حسن باشا الذى باعه فى المزاد الذى استمر عدة أيام متتالية . كذلك قرر حسن باشا على بيوت النصارى الذين خرجوا بصحبة ابراهيم بك ومراد بك الى الصعيد مبلغا كبيرا من المال قدر بخمسة وسبعين ألف ريال ، كما أمر باحصاء بيوت جميع النصارى ودورهم وما هو فى ملكهم وأن يكتب جميع ذلك فى قوائم وقرر عليها أجره مثلها فى العام، وأن يكشف فى السجل على ما هو جار فى أملاكهم، ثم قرر عليهم أيضا خمسمائة كيس فوزعوها على أفرادهم وقيل أنهم حسبوا الجوارى المأخوذة منهم من أصل هذا المبلغ على كل رأس أربعون ريالا ، كما قرر أيضا على كل شخص ـ سواء كان فى الفئة العليا أو الدنيا دينارا جزية، وذلك خارج عن الجزية الديوانية المقررة.

وتتوالى موجات الابتزاز ، وتعدد صور المغارم والمصادرات فقد ذكر الجبرتى فى حوادث شهر ذى القعدة ١٢٠٠هـ/ سبتمبر ١٧٨٦م «وفيه : قبض القبطان على راهب من رهبان النصارى واستخلص منه صندوقا من ودائع النصارى». كذلك ذكر الجبرتى فى حوادث هذا الشهر «قبض القبطان على المعلم واصف وحبسه وضربه وطالبه بالأموال». وواصف هذا أحد الكتاب المباشرين المشهورين ويعرف الايراد والمصاريف وعنده نسخ من دفتر الروزنامة ويحفظ الكليات والجزئيات ولا يخفى عن ذهنه شيء من ذلك ويعرف التركى».

وقد ترك القبطان حسن باشا الجزائرلى البلاد فى يد اسماعيل بك بعد رحيله فى عام ١٧٨٧ ـ بدون منازع له بعد ابعاد منافسيه ابرهيم بك ومراد بك الى الصعيد، كما ترك أيضا عابدى باشا ـ قائد الجيوش العثمانية فى مصر لدعم سيادة الدولة عليها. ولقد أحدث عابدى باشا غرامة مالية كبيرة على النصارى ، يروى الجبرتى أسبابها ـ فى حوادث شهر ربيع الأولى ١٢٠٢ / ديسمبر ١٧٨٧م ـ قائلا حضر عابدى باشا واسماعيل بك الى بيت الشيخ البكرى باستدعاء بسبب المولد النبوى فلما استقر بهم الجلوس ، التفت الباشا الى جهة حارة النصارى وسأل عنها فقال له انها بيوت النصارى فأمر بهدمها والمناداة عليهم من ركوب الحمير فسعوا فى المصالحة وتمت على خمسة وثلاثين ألف ريال منها على الشوام سبعة عشر ألف وباقيها على الكتبة».

ولم يكف مراد بك ـ عندما استعاد سلطته فى مصر مع ابراهيم بك بعد رحيل حسن باشا ـ عن فرض المغارم على الذميين ، فقد ذكر مارسيل ـ أحد علماء الحملة الفرنسية ـ أن مراد بك أظهر يوما أنه عازم على تجديد الملابس والأمتعة العسكرية وطلب ما يقوم بنفقاتها، ففرض على اليهود مبلغا كبيرا من المال اعانة لهذا المشروع، فاجتمع رؤساء اليهود وتناقشوا ماذا يصنعون لينجوا من تلك الغرامة الفادحة فاستقر رأيهم على أن يرسلوا الى مراد بك كبيرى أحبارهم يسعيان فيما ينجيهم من تلك الغرامة، فسارا اليه ولما مثلا بين يديه قالا : «أيها الأمير اننا فقراء، ولو بعنا ممتلكاتنا وأولادنا وأنفسنا لا تجمع عشر ما تطلبه منا، فاذا أعفيتنا من هذه الضريبة التى يستحيل علينا دفعها نطلعك على كنز عظيم يكفيك مؤنة هذه المطالب، وهذا الكنز لا يعلم به أحد سوانا وقد تنقل هذا السر فى طائفتنا حتى وصل الينا ونحن نوصله لأولادنا عندما تحضرنا الوفاة».

ولقد ذكر مارسيل فى روايته أن الحبرين اليهوديين أخبرا مراد بك بأن هذا الكنز مدفون فى جامع عمرو بن العاص فى مصر القديمة وأن مراد بك تحايل بذكاء من أجل الوصول الى هذا الكنز

دون ما أثاره لأحد حوله وعند لحظة استخراج الكنز كان مراد بك والحبران اليهوديان يشهدون هذا الحدث الهام فاذا هو صندوق من حديد نصفه أحمر من الصدأ، ولما كسر الصندوق وجد فيه بعض أوراق الرق مكتوب عليها آيات قرآنية بخط كوفي ـ ويقول مارسيل أن الحبريين اليهوديين عندما رأيا ذلك فرا من بين الناس، وهربا قبل أن يظفر بهما مراد بك الذى استشاط غضبا، ولما عاد الى القاهرة ضاعف الغرامة المالية على اليهود وأصر على أن يدفعوها حالا، وكما يقول «مارسيل» ان مراد بك استعمل الكرباج لحثهم على ذلك.

وتشير الوثائق الرسمية والمصادر القبطية الى أن الرهبان استمروا يتمتعون بالاعفاء من الجزية حتى عام ١١٤٧هـ / ١٤٥٠ش/ ١٧٣٤م، حينما تقرر أن يصبح الرهبان الممولين للجزية شأنهم فى ذلك شأن جميع الفئات الذمية وذلك خروجا على التقاليد السابقة. ولعل من الأسباب التى دعت الدولة الى اتخاذ هذا الاجراء ما جرى عليه العرف الاسلامى من اعفاء أملاك الكنائس والأديرة والمعابد من الضرائب ، وعلى هذا أصبحت هناك طبقة مميزة من المصريين الأقباط لا تقع تحت طائل الأعباء المالية مما دعا كثيرا من النصارى الى اللجوء لوقف أملاكهم على الكنائس والأديرة كى يتخلصوا من أعباء الضرائب، ومن تسلط البكوات المماليك عليهم، وبدأت السلطنة العثمانية تفطن إلى ذلك فسعت إلى تجريد الأقباط المصريين من أى تراكم لأموالهم حتى لا تكون لهم مدخرات خاصة بهم تساندهم اقتصاديا وتسمح لهم بقدر ولو ضئيل من الحرية. فشمل الاحصاء الذى أجراه على أفندى ـ ملتزم الجوالي ـ عام ١٧٣٤م كافة الرهبان لكى يدفعوا الجزية.

قيود الدولة على أهل الذمة:

كانت السلطنة العثمانية وسلطات الحكم فى مصر تصدر بين الحين والآخر أوامرها بأن يلتزم أهل الذمة بتلك القيود التى فرضت عليهم منذ الغزو العربى والتى ورد ذكرها فى كتب الحنفية ، حيث جاء «ويميز الذمى فى زيه ومركبه وسرجه، ولا يركب خيلا ولا يحمل سلاح ولا أن يترك يركب الا لضرورة ولا يرحب بهم فى الجامع ولا يلبس ما يخص أهل العلم والزهد والشرف، وتميز أنثاه فى الطريق والحمام، ويجعل على داره علامة لكيلا يستغفر له، ولا يبدأ بسلام ويضيق عليه الطريق».

ويتضح مما سبق أنه كان على أهل الذمة الالتزام ببعض القيود فى الملابس ومظاهر حياتهم اليومية، ولقد تمثلت قيود الملابس فى الزامهم الغيار، فكان على النصارى لبس الاسود أو الأزرق، وشد الزنار حول أوساطهم فوق الثياب بينما تعين على اليهود اللون الأصفر. وتحدد اللون الأحمر لفرقة السامرة، أما نساء أهل الذمة فقد الزمن بقيود الألوان فى ملابسهن، ففرض على المرأة المسيحية أن تشد الزنار فوق ثيابها ومن تحت الازار كما فرض على المرأة الذمية أن تنتعل خفين من لونين متباينين لتميزها عن المرأة المسلمة ولتكون مسخة للناظرين.

ويستفاد مما أوردته بعض المصادر المعاصرة أن أهل الذمة حرم عليها دخول الحمامات العامة دون أن يميزوا أنفسهم بصليب من الحديد أو الرصاص أو النحاس فى رقابهم لتميزهم عن المسلمين، كما حرم عليهم ركوب الخيل الا أنه أجيز لهم ركوب البغال والحمير بالأكف عرضا ـ أى من ناحية

واحدة ـ كذلك حرم عليهم حمل السلاح والتقلد بالسيوف. ولم يكن يسمح للذميين باتخاذ خدم من المسلمين اذ يعتبر ذلك اهانة للاسلام وأهله.

ولقد ذكر أحمد شلبى ، وابن الراهب، أن الدولة أصدرت مرسوما فى عام ٩٨٨هـ/ ١٢٩٦ق/ ١٥٨٠م ابان ولاية حسن باشا الخادم ـ قررت فيه أن يلبس اليهود الطراطير الحمر، وأن يلبس النصارى البرانيط السود. كذلك ذكرت احدى المصادر القبطية أنه نودى فى البلاد فى ٢١ طوبة ١٣٦٥ق / ٢٦ يناير ١٦٤٩م «أن لا يركب النصارى خيولا، ولا يلبسون شدودا حمراء ولا طواقى جوخ حمراء ولا مراكيب، وانما يلبسون شدودا زرقاء طول الواحد عشرون ذراعا».

ومن القيود التى فرضت على أهل الذمة أيضا فى ظل الاحتلال العثمانى ، أنه لم يكن يسمح للأقباط بالسير فى الجنازات ودفن موتاهم الا بعد الحصول على اذن من الباشا العثمانى. ويذكر أحد المؤرخين الأقباط أنه عند وفاة البابا متاوس الرابع ـ البطريرك (١٠٢) فى عام ١٦٧٥م ، اجتمع سائر الكهنة الأقباط فى يوم جنازته ليطلبوا الاذن من الباشا بدفنه فسمح لهم بعد أن أخذ منهم أموالا كثيرة.

وقد عادت السلطات الحاكمة فى عام ١٣٩٤ق/ ١٦٧٨م وزادت من التشديد على أهل الذمة بالالتزام بالقيود المفروضة عليهم فقد ذكرت احدى المصادر القبطية أنه نودى فى ذلك العام بأن يعلق النصارى فى رقبتهم جلجل ، وفى رقبة اليهود جلجلين واحد عند ولوجهم الحمامات، وأن يصبغ كل من اليهود والنصارى عمائمهم وألا يلبسوا أثوابا من الجوخ أو الصوف، ولا تأتزر نساء النصارى بمآزر بيضاء، وتكون ملابس النصارى عموما سوداء، ولعل هذا هو السبب فى أن معظم نساء مصر حتى اليوم يلبسون السواد.

ويروى أحمد شلبى طرفا من القيود التى فرضت على أهل الذمة فى أوائل القرن الثامن عشر فيما يتعلق بدخولهم الحمامات لتمييزهم عن سائر المسلمين ، فيقول : «وفى خامس محرم سنة ١١٣٦هـ (٥ أكتوبر ١٧٢٣م) نزل أغا مستحفظان الى القاهرة وأشهر فيها النداء لجميع الطوائف اليهود والنصارى أن كل من دخل الحمام فلا يدخل الا وفى عنقه جلجل ليعرف الكافر من المؤمن». وكان من نتيجة ذلك أن «نادى بأن خدمة الحمام لا يخدمون داخل الحرارة أولادا مردا، وكذلك طائفة المؤمنين لا يخدمون أولادا مردا» ويعلق أحمد شلبى بعد ذلك على تلك الواقعة بقوله: ولم تمكث الا مدة يسيرة وعاد كل شيء الى أصله».

ويبدو أن تلك القرارات قد أثارت أصحاب الحمامات الذين عقدوا اجتماعا فيما بينهم للتشاور فى أمر ذلك الفرمان الذى سوف يسبب لهم خسائر فادحة خاصة وأن معظم المترددين على الحمامات من أهل الذمة، وأن استعمالهم للحمامات مصدر رزق لهم، وقد قرروا فى اجتماعهم أن يجمع منهم مبلغ كبير من المال يقدمونه رشوة الى الأغا لإلغاء ما جاء بالفرمان ويقول أحمد شلبى فى ذلك الصدد « .. ثم أن الحمامية اجتمعوا مع بعضهم البعض وقالوا الأمر خمار علينا وان حمام من غير أمرد لا يمكن، ثم اقتضى رأيهم أنهم جمعوا من بعضهم البعض ثمانية آلاف فضة وأوردوها الى الأغا على عدم المعارضة من دخول أهل الذمة الى الحمامين من غير جلاجل فى أعناقهم ، فقطع لهم الأغا تذكرة بما أرادوا، ونزل شيخ الحمامين فرقها

على كل حمام مايتى نصف فضة لأن جملة حمامين القاهرة ثلاثة وسبعون حماما...».

ولقد حدثت واقعة طريفة ـ فى أعقاب ما جرى ذكره ـ رواها أحمد شلبى قائلا : « ومن جملة ما اتفق أن رجلا دخل الى حمام السكرية ، واذا برجل [مصرى] ذمى دخل الى الحمام وقلع حوائجه فإذا بالناطور قدم له الفوطة وقدم له جلجلا، فقال له الذمى : ما هذا ؟ فقال له الناطور: كما أمرنا الأغا، فأبى الذمى أن يضع الجلجل فى عنقه ولبس حوائجه ولم يدخل وطلع يبربر..».

كذلك حدث فى عام ١١٣٨هـ/ ١٧٢٦م - ابان ولاية على باشا ـ أن عاد وفرض على أهل الذمة بعض القيود على غطاء الرأس امعانا فى إذلالهم والتمييز بينهم وبين المسلمين، فيذكر أحمد شلبى أنه «فى رابع عشر جماد أول سنة ١١٣٨هـ، أعطى الباشا فرمانا إلى أحمد أغا لهلوبة ينادى به فى شوارع القاهرة لطائفة اليهود بأن يلبسوا الطراطير والطواقى الزرق، والنصرانى يلبس القلايق، والافرنج قلايق وبرانيط، ولا يلبسون جوخا أحمر ولا بوابيج صفر ولا مزوز ولا شخاشين، وكل من خالف ولبس فللرعايا أخذة منه وللحكام أن يخرجوا من حقه ولجميع الغرباء كل من قعد بعد ثلاثة أيام يقتل ويكون دمه هدرا».

ولقد روى أحمد شلبى تلك الواقعة التى تمثل حلقة من حلقات القيود التى فرضت على أهل الذمة فيما يتعلق بالزام الذمى الترجل من على دابته عند مقابلة المسلمين وخاصة اذا كانوا من الحكام والسادة الكبار مهما كانت مكانة الراكب فى طائفته ، اذ كان عدم ترجله يؤدى الى الحاق الاهانة به ان لم يكن ضربه. يقول أحمد شلبى : «فى يوم الجمعة واحد وعشرين محرم سنة ١١٤٩هـ (أول يونيو ١٧٣٦م) طلع عثمان كتخدا القرذغلى الى القرافة ففى حال رجوعه عند رأس الجودرية واذا ببترك (بطريرك) الأورام (الملكانيين) مقابله فقال له القواص : انزل يا بترك فأمر عثمان كتخدا بضربه فأنزلوه من فوق حماره وضربوه بالنبابيت فصارت الرهبان الذين صحبته يتلقون الضرب عنه، ثم انهم شالوه وهو مرضوض من النبابيت».

كما يذكر «شابرول» أيضا ، أن من الأمور التى كان تحرم على أهل الذمة قبول شهادتهم أو شهادة أى رجل ليس دينه الاسلام أمام المحاكم الاسلامية ضد المسلمين لذا لا يستدعى أهل الذمة مطلقا عند الفصل فى الأمور المدنية أو الجنائية عند العثمانيين. ومع ذلك فيمكن لقائد الشرطة أن يستعلم من أى ذمى عن أمور تدخل فى نطاق اختصاصه.

أما عن موقف الدولة من عمارة وترميم دور عبادة أهل الذمة فمن المعروف أن من الشروط التى وضعها الفقهاء المسلمون وألزموا أهل الذمة بوجوب اتباعها: «أنه لا يجوز أن يحدثوا بيعة ولا كنيسة ولا صومعة ولا بيت نار فى دار الاسلام، ويعاد المنهدم من غير زيادة على البناء الأول ولا يعدل عن النقص الأول أن كفى». فقد روت المصادر القبطية عن واقعة اضطهاد حدثت للأقباط اليعاقبة فى شهر أبيب ١٤١٧ق يوليو ١٧٠١م ، ابان ولاية أحمد قرة محمد باشا، بسبب شكوى رفعت اليه من بعض المسلمين بأن طائفة النصارى الأقباط أحدثت بنيان جديدا فى كنائسها، فعين الباشا أغا واشرك معه بعض المعماريين وقضاة الشرع وكلفهم بالكشف عن أبنية النصارى، فنزلوا وكشفو وأثبتوا

أن الكنائس تحوى البناء المحدث الجديد، ولكن جماعة من أمراء المماليك تدخلوا وتشفعوا لدى الباشا، ففرض على الأقباط غرامة مالية كبيرة. واجتمع البابا يؤانس السادس عشر ـ البطريرك ـ بكبار الأراخنة الأقباط ، واتفق الرأى بينهم على أن يطوف البطريرك بحارات النصارى ويدخل البيوت ويجمع منها ما تيسر الى أن يتم الحصول على الغرامة المفروضة بأكملهاولعلها كانت خطة للابتزاز.

وحدث فى عام ١١٤٢هـ/ ١٧٢٩م ـ ابان عهد السلطان أحمد الثالث (١٧٠٣ ـ ١٧٣٠) أن رفع اليه بعض المسلمين شكوى جاء فيها أنه اشيع بين الناس خبر ضم والحاق شيء من مقابر المسلمين لكنيسة النصارى الكائنة بمصر العتيقة الجارى تعميرها بموضعها القديم، ونرجو ونسترحم صاحب الدولة السلطان أفندينا باصداره أمره الكريم لصاحب العزة قاضى عسكر أفندى حتى يصير الكشف عن الأمر المذكور بمباشرة أحد من قبل الشرع».

هذا وقد بعث السلطان العثمانى ـ ردا على تلك الشكوى ـ بفرمان فى نفس العام جاء فيه : (... أنه بمصر القديمة دير مارى مينا الكائن بالقرب من فم الخليج بجوار تربة الأرمن ودير الملاك القبلى الكائن بدير الطين من الآثار الشريفة ودير منقريوس ودير قصر الشمع ودير النحلة المعدة للنصارى القبط والأورام وان فى بعض من الأديرة المذكورة أدخلوا من تراب أموات المسلمين فى الأديرة المذكورة وبعضهم بنوا وجددوا بناء عاليا عن رسومها القديمة وأحدثوا فيها بدائع. ومن علو البناء صار يكشف على بيوت أمة محمد وأن فى ادخالهم القطعة من تربة أموات المسلمين وفى تجديدهم البناء العالى اهانة» وقد اشترط السلطان فى ذلك الفرمان».. ان المعنيين لهذه المهمة يكونون من أهل الديانة لأجل الكشف عن ذلك وهدم ما أحدثوه من البناء واخراج ما أدخلوه من تربة أموات المسلمين وابقاء اديرتهم على ر سومها القديمة على وجه الحق من غير غرض فى ذلك».

ولقد تعين لتلك المهمة عبد الرحيم عزى كشاف الاوقاف، ومصطفى أفندى كتخدا وشيخ الاسلام ، والسيد الشريف يونس أفندى قاضى الديوان، والشيخ على كاتب الكشف ورفيقه الشيخ حسن، حيث توجهوا الى مصر القديمة وبصحبتهم الأمير يوسف أغا معمر باشى، من أمراء المتفرقة ، والسيد الشريف عاشور ـ رئيس المهندسين ـ والحاج عيد ـ المهندس ـ والحاج عبد الهادى ابن ابراهيم ـ المهندس ـ وذلك للكشف على دير مارمينا الكائن بالقرب من فم الخليج بمصر القديمة ، ودير الملاك القبلى الكائن بدير الطين، ودير قصر الريحان والكنيسة الكبرى، ودير منقريوس ودير النحلة والكنائس المعدة للنصارى القبط والنصارى الأورام التى بمصر القديمة. ولقد جاء فى الفتوى التى صدرت فى هذا الشأن بأن «أولئك المعينين لتلك المهمة وجدوا ان تلك الابنية على حالتها القديمة من غير احداث حادثة ولا ضرر بجار ولا مار، ولا زيادة على ما كانت عليه من قديم الزمان، ولا بداخلها من ترب أموات المسلمين وانما بها مرمات وعمارات متفرقة جزئية من العلو والسفل على الصنعة التى كانت عليها قديما ، ولم تكن خارجة عن أصلها ولا بها بناء بارز عن أس جدرهم ولا علو عن قديم أصلها وأنها جميعا الآن على صفتها التى كانت عليه من قديم الزمان». وبناء على ذلك فقد أصدر القاضى ـ قاضى القضاة ـ تقريرا فى هذا الشأن.

أورد فيه أنه «لم يكن هناك مقتضى شرعى لهدم الديورة المذكورة كما أن المهندسين المذكورين أخبروا بأن البناء المذكور ليس مضرا على الجار والمار ولم يكن بارزا عن اس جدره وأن ما قيل عن ذلك هو بخلاف الحقيقة كما أن الكنيسة صار تعميرها بموضعها القديم وعليه لا لزوم للتعرض للكنيسة المذكورة بعد أن تبين عدم الحاق ولا ضم شىء من مقابر المسلمين.

ولقد حدث فى عام ١١٥٧هـ/ ١٧٤٢م أن أمر بالكشف على الزاوية الكائنة بين كنيستى ابى سيفين وأبا شنودة لا دعاء بعض المسلمين فى مصر القديمة أن النصارى اختلسوا أجزاء من الزاوية المذكورة وأدخلوها بكنيستى أبا شنودة ومرقوريوس، وتعين لتحقيق تلك الشكوى قاضى أوقاف مصر والمهندسين، والنظر أيضا فى الترميم اللازم، وقد وجدوا بخلاف ما ادعوا به. وتصرح باجراء العمارة اللازمة لهذه الكنائس.

كذلك حدث فى عام ١١٨٨هـ/ ١٧٧٤م أن تم تعيين من يلزم للكشف على أديرة النصارى ومن جملتها دير أبى رويس، وذلك بناء على شكوى بعض المسلمين من أن كنيسة أبى رويس القائمة بالقرب من مقام الشيخ الدمرداش قد تعدت حدود ترميمها باستحداث رسوم جديدة لها. وقد أسفر الكشف عن أن الكنيسة المذكورة على ما هى عليه من قديم الزمان بخلاف المدعى به.

ويتضح ـ مما أوردناه من وثائق ـ أن العادات المتبعة خلال الاحتلال العثمانى أن يجرى كشف دورى كل عام على دور عبادة أهل الذمة الكائنة فى الديار المصرية بناء على فرمان يصدره السلطان العثمانى، وبمجرد وصول الفرمان يصير الكشف على الكنائس والأديرة كما يعد تقرير شامل ومفصل يحتوى على كافة البيانات والمعلومات عن صحتها ، وعن جباية كافة رسومها وعوائدها القديمة.

ثبت بالبابوات المصريين الأقباط وفترة ولا يتهم للكرسى البابوى بالعصر العثمانى

الترتيب فى قائمة البابوات	الاسم	الترتيب فى قائمة من تلقب بهذا الاسم من البابوات	تاريخ التولية بالميلادى	تاريخ الوفاة بالميلادى
٩٤	يوحنا (يؤانس)	١٣	١٤٨٤	١٥٢٤
٩٥	غبريال	٧	١٥٢٥	١٥٦٨
٩٦	يوحنا (يؤانس)	١٤	١٥٧١	١٥٨٦
٩٧	غبريال	٨	١٥٨٧	١٦٠٣
٩٨	مرقس	٥	١٦٠٣	١٦١٩
٩٩	يوحنا (يؤانس)	١٥	١٦١٩	١٦٢٩
١٠٠	متاوس (متى)	٣	١٦٣١	١٦٤٦
١٠١	مرقس	٦	١٦٤٦	١٦٥٦
١٠٢	متاوس (متى)	٤	١٦٦٠	١٦٧٥
١٠٣	يوحنا (يؤانس)	١٦	١٦٧٦	١٧١٨
١٠٤	بطرس	٦	١٧١٨	١٧٢٦
١٠٥	يوحنا (يؤانس)	١٧	١٧٢٧	١٧٤٥
١٠٦	مرقس	٧	١٧٤٥	١٧٦٩
١٠٧	يوحنا (يؤانس)	١٨	١٧٧٠	١٧٩٦
١٠٨	مرقس	٨	١٧٩٧	١٨١٠

ـ ويلاحظ انما نذكر دائما اسم البابا وترتيبه فى قائمة البابوات.

* انظر «صفحات مطوية من تاريخ مصر العثمانية. د. موسى موسى نصر. الهيئة العامة للكتاب ـ القاهرة ١٩٩٠.

فتوي شرعية لصالح الأقباط

محكمة الدقهلية س ٥ ص ١٧٦م ٤٦٨

صورة أمر شريف أحضره جماعة النصارى الشاكين بالمنصورة اللغة التركية هم يذكرون انهم يسددون للادارة مال الميرى ومال الجزية ويشتكون من الأشياء التى سترد بعد ذلك.

م ٤٦٩ صورة الفتوى التى بأيديهم فى خصوص ذلك

ماذا يقول السادة العلماء رضى الله تعالى عنهم فى طايفة من النصارى ساكنين بمدينة المنصورة بأملاكهم عن أبائهم وأجدادهم ، وبجوارهم زاوية بابها للشارع المسلوك وأصلها كانت ملكا لذمى ، وفى كل قليل يتعرض لهم جماعة بالأذية والاضرار ويعينون عليهم معينا من الديوان بالتساويف الباطلة، ويتعللون عليهم بأنهم يعلون بنايهم (بنائهم) على المسلمين. وانما يقصدون بذلك ظلمهم وغرامهم بغير وجه شرعى. فهل والحالة هذه يجوز للجماعة المذكورين أذية طايفة النصارى المذكورين بالتساويف الباطلة عليهم والتعللات الواهنة. ويحرم عليهم ذلك لكون الذميين المذكورين (معصومون) خصوصا وقد أوصى عليهم سيد الأنام ومصباح الظلام لقوله عليه الصلاة والسلام من آذى ذميا أو انتقص ماله كنت حجيجه يوم القيامة. وان استحلوا ظلمهم بذلك هل يكفرون بذلك وتبين زوجاتهم بذلك. وهل يثاب ولى الأمر نصره الله تعالى على الاخذ (...) وعلى منع كل من يتعرض بظلامة أو غرامة أو غير ذلك أفيدوا الجواب؟

(الرد)

مادة ٤٧٠

لا تجوز للجماعة المذكورين أذية طايفة النصارى المذكورين بالتساويف الباطلة عليهم والتعللات الواهية ويحرم عليهم ذلك ويثاب ولى الأمر على منع من يتعرض لهم بغير وجه شرعى والله تعالى أعلم وكتبه عبد المنعم البشبيشى الحنفى.

مادة ٤٧١

يحرم على من سوف يعتدى على جماعة النصارى أو سعى فى أذيتهم أو ظلمهم أو تغريمهم شيئا لقول الصادق المصدوق عليه أفضل الصلاة وأزكى السلام من أذى ذميا أو أنقص ماله كنت حجيجه يوم القيامة الى غير ذلك مما روى فى هذا المعنى. وللنصارى المذكورين التصرف فى بنايتهم وان عرف من تسبب فى غرمهم كان لهم عليه الرجوع بجميع ما غرموه عليه لتسببه فى ذلك ، وبيان من له ولاية الأمر فى ذلك على كف القهر عن الرعية المذكورين، وان كانوا نصارى هم من جماعة الرعية وكل راع مسئول عن رعيته. والله الموفق وكتب أفقر العباد الى عفو ربه الجواد محمد بن قمر الباب الأزهرى المالكى عفى ربه عنه.

مادة ٤٧٢

نعم لا يجوز للجماعة المذكورين أذية طايفة النصارى المذكورين ولا اضرارهم ولا ظلمهم ولا التسبب فى تغريمهم بالتساويف الباطلة عليهم ولا التعلل عليهم بالأوهام الباطلة الواهنة، بل يحرم على الجماعة المذكورين ذلك، ويلزمهم التعذير الشديد اللايق بحالهم الزاجر لهم ولأمثالهم عن قبيح أفعالهم بما يراه الحاكم باجتهاده من حبس أو ضرب أو نفى أو غير ذلك باجتهاد الحاكم: بل كل من استحل ظلمهم كفر وخرج عن الإسلام وجرت

عليه أحكام المرتدين لأنهم (معصومون) فلا يحل لأحد يؤمن بالله واليوم الآخر أن يظلمهم لأمر سيد المرسلين محمد صلى الله عليه وسلم بالوصية بهم في أحاديث كثيرة. ويثاب ولي الأمر نصره الله تعالى على الأخذ بيدهم وعلى منع كل من يتعرض لهم بظلم أو غرم وغير ذلك والله أعلم وكتبه محمد المرحومي الشافعي.

مادة ٤٧٣ ـ الحمد لله

لا يجوز للجماعة المذكورين أذية طايفة النصارى المذكورين بالتساويف الباطلة عليهم ويحرم عليهم ذلك لكون الذميين المذكورين (معصومون) ولا يجوز لأحد أذيتهم بغير وجه شرعي والله أعلم كتبه حمدان المقدسي الحنبلي.

ص ١٨١ م ٤٩١

صورة بيورلدى شريف بسبب رفع بنيان النصارى واليهود ومنعهم من علو البنيان المشرف على أمة محمد (أي منعهم من تعلية منازلهم عن منازل المسلمين) الى حكام وقضاة ولايات القليوبية والشرقية والمنصورة والغربية والمنوفية ودمياط والبحيرة والجيزة.

في ١٠ م ١٠٨٢هـ

ملحق رقم (١)

الأوامر الصادرة من أمير اللواء السلطاني الى ناحية ملوى بالمنيا بفرض بعض القيود على الأقباط (١٣٦٥ للشهداء/ ١٦٤٩م) «لما كان تاريخ يوم الثلاثاء ٢١ طوبة ١٣٦٥ للشهداء حضر الى ناحية ميلوى (ملوى) حضرة مولانا أمر (أمير) اللواء الشريف السلطاني الأمر على سبيل أمر اللواء وأخذ العبيد والجوارى (جوارى الأقباط) ونادى منادى أن لا يركبوا النصارة (النصارى) خيول ولا يلبسوا شدود زرق، وطول الشد عشرة أذرع من غير زيادة ، والله تعالى يحسن العاقبة والحمد لله وحده».

بطريركية ، ٥٠ مقدسة ورقة ١٣٤ب

ملحق رقم (٢)

الأوامر الصادرة من المحتسب بفرض بعض القيود على الأقباط واليهود والمسلمين

«نادى (المحتسب) ان النصارة (النصارى) ما يدخلوا الحمام (الا) كل واحد بجلجل في رقبته واليهود بجلجين، وبعد قليل نادى النصارى واليهود يصبغوا عمايمهم (عمائمهم). وبعد قليل نادى الهم لا يلبسون جوخ ولا أصواف (الجويرى) ولا هنادى ولا بروجيات ، وبعد قليل نادى للمسلمين أن لا أحد يمشي حافي ولا يدخلوا حمام الا بقبقاب، وكلمن (كل من) سمع الاذان ولا يدخل يصلي يظربه (يضربه) ويجرسه. ونادى أن لا أحد من النسوان (النساء) يركب برقع وان نسوان النصارة ما يلبسوا يزر (ازار) بيض، ونادى أن النصارى لا يلبسوا ثياب بيض ولا بفت بيض ولا أحزمة بيض ولا لباسات بيض الا كل شيء ان لبسوه يكون اسود، وهذا ما حصل ، ونسأل من صاحب كنوز الرحمة أن يصلح أحوال شعبه ، فان جميع هذه من كترة (كثرة) خطايانا وقلت (قلة) المحبة وكثر الحسد والسلام.

١٣٩٤ للشهداء / ٧٧، ١٦٧٨م

المتحف القبطي، ٩٤ مقدسة الورقة الثانية

ملحق رقم (٣)
مشاكل تجاور المساجد والكنائس
حجة الكشف على المساجد
والكنائس الكاينين بقصر الجمعة
وبحارة شنودة بمصر القديمة

بعد الاذن الكريم العالى من حضرة سيدنا ومولانا شيخ مشايخ الاسلام ملك العلما الاعلام قاضى النقض والابرام محرر القضايا والاحكام مرجع عامة الفضلا الفخام مؤسس قواعد الشرع على أتم نظام رحمة الله الشاملة للخاص والعام مؤيد شريعة سيد الأنام عليه أفضل الصلاة وأزكى السلام الناظر فى الاحكام الشرعية والأمور الدينية بمدينة مصر المحمية دامت له الرتب العلية بخدمة سيدنا محمد خير البرية. آمين بنظر القضية بطرة المرفوعة لديه من قبل الشيخ شمس الدين محمد الشعرانى مضمونها ان بمصر القديمة بحارة النصارى المعروفة بقصر الجمع كنايس مجاورة لمساجد المسلمين وبناؤها شاهق فى العلو على المساجد وان النظار على الكنايس اخربوا المساجد وأخذوا غالب طوبهم وأحجارهم وعمروا بها كنايسهم والمسئول من الصدقات العلية أمركم الشريف لنايبكم بمصر القديمة بان يكشف على ذلك ويكتب بذلك حجة ويعرضها على حضرتكم لترتبوا على كل أمر مقتضاه ولكم الدعا فبرز أمره الشريف لنظر القصة المذكورة بالكشف، امتثل ذلك مولانا الحاكم المشار اليه أعلاه الى قصر الجمعة المذكور وكشفوا جميعا على الكنايس المذكورين أعلاه فوجدوا مسجدا بين كنيستين احداهما تعرف بكنيسة بربارة متعلقة بالنصارى والثانية تعرف بكنيسة (اليهود) ووجدوا حائط الكنيستين المذكورين شاهقتا فى العلو على حائط المسجد المذكور، وجعلوا حايط كنيسة النصارى من المسجد المذكور وهو خراب مستهدم بينهما وكشفوا أيضا على كنيسة تعرف بالمعلقة فوجدوا بجوارها مسجدا خرابا مستهدما موضوع به بعض طوب وأتربة والكنيسة المذكورة عامرة متقنة البنا بجواره وكشف على كنيسة تعرف بأبو سرجة فوجدوا بجوارها مسجدا يعرف بوقف المرحوم ابراهيم النعمانى وعلوه آيل الى السقوط من الداخل وحائط الكنيسة شاهق عليه، وكشف على كنيسة تعرف بالسيدة فوجدوا بالقرب منها مسجدا (وأتربة) لم يظهر الآن منه غير معالم المحراب والمنار. ثم كشف أيضا على حارة شنودة فوجدوا بها كنيستين احداهما تعرف بمنقريوس والثانية تعرف بالقلاية لم يوجد بجوارها مسجد ووجدوا أبواب الكنايس المذكورين جميعهم مغلقين، فعند ذلك أمر مولانا الحاكم المشار اليه أعلاه بتسمير الكنايس المذكورين جميعهم فسمروا جميعا بأمر منه. هذا ما تحرر من الكشف المذكور أعلاه وكتب ذلك ضبطا لما هو الواقع ليعرض على من له ولاية الأمر فى ذلك وغيره ليرتب على كل أمر مقتضاه تحريرا فى تاريخه.

مصر القديمة س١٠١ ص ٧٠ م ١٨٩

٢٦ ذى القعدة ١٠٥٧ هـ - ٢/ ١٢ ١٦٤٧م


السلطان مصطفى الثالث . كان سلطانا من ١٧٥٧ - ١٧٧٤م.

(وصــل)

وفى تلك السنة أعنى سنة إحدى وسبعين وماية وألف نزل بقارب شيحة*، الذى أخذ المليح والمليحة، مات به الكثير من الناس المعروفين وغيرهم مالا يحصى، ثم خفّ وأخذ ينقر فى سنة اثنتين وسبعين وماية وألف، وكان قوة عمله فى رجب وشعبان، وولد للسلطان مصطفى مولود فى تلك السنة، وورد الأمر بالزينة فى تلك الأيام فكانت أبرد من يخ، وهذا المولود هو السلطان سليم المتولى الآن، ولما قتل حسين بك القازدغلى المعروف بالصابونجى وتعين فى الرياسة بعده على بك الكبير وأحضر خشداشينه المنفيين واستقر أمرهم، وتقلد إمارة الحج سنة ثلاث وسبعين وماية وألف، فبيّت مع سليمان بك الشابورى وحسن كتخدا الشعراوى وخليل

* طاعون قارب شيحه.
فى ١١٧١ = ١٧٥٧م.

* مولد السلطان سليم الثالث

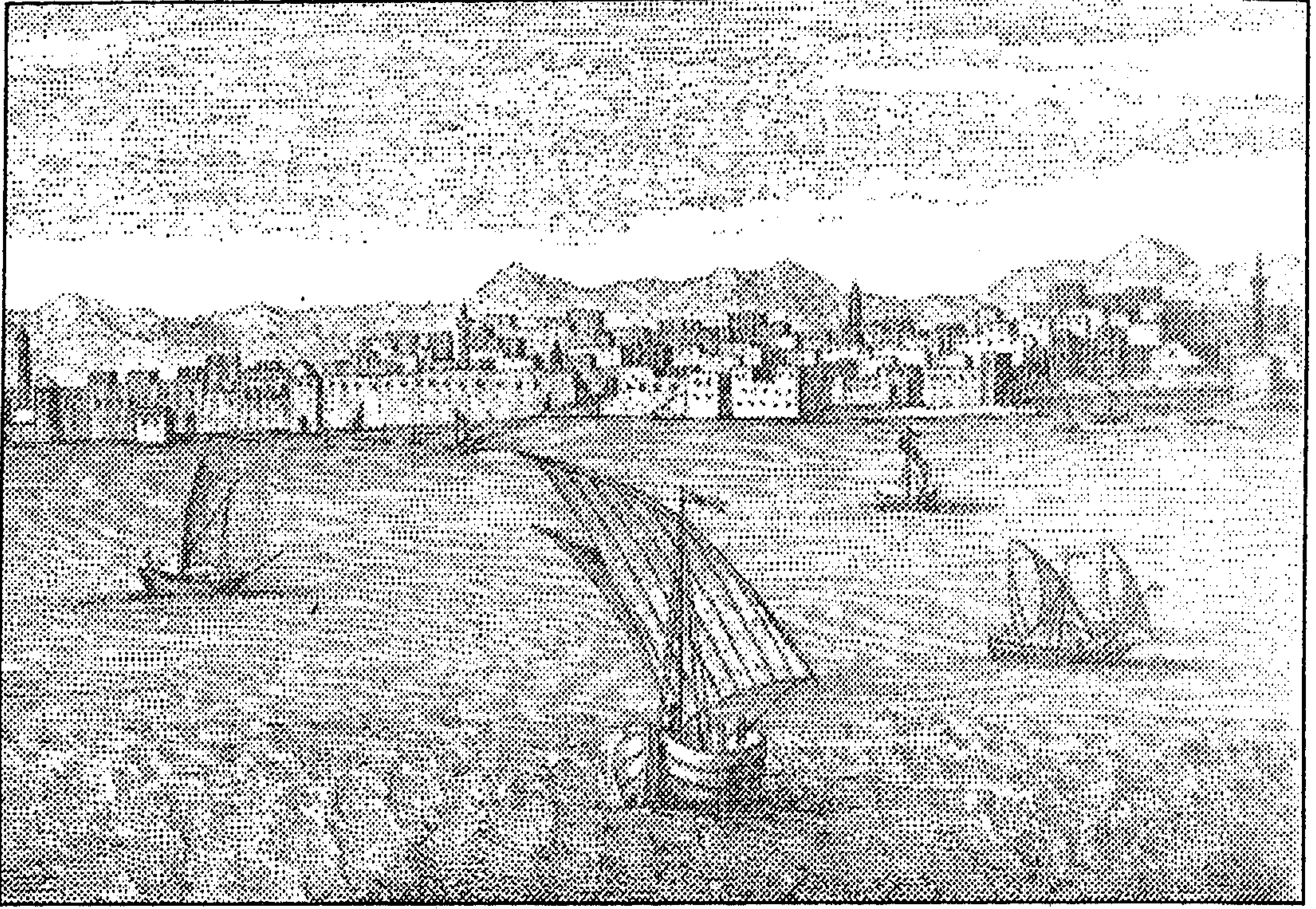


جاويش حيضان مصلى وأحمد جاويش المجنون، واتفق معهم على قتل عبد الرحمن كتخدا فى غيبته، وأقام عوضه فى مشيخة البلد خليل بك الدفتردار، فلما سافر استشعر عبد الرحمن كتخدا بذلك فشرع فى نفى الجماعة المذكورين، فاغرى بهم على بك بلوط قبن فنفى خليل (٦١٠) جاويش حيضان مصلى وأحمد جاويش إلى الحجاز من طريق السويس على البحر، ونفى حسن كتخدا الشعراوى وسليمان بك الشابورى مملوك خشداشه إلى فارسكور، فلما وصل على بك وهو راجع بالحج إلى العقبة وصل إليه الخبر فكتم ذلك، وأمر بعمل شنك يوهم من معه بأن الهجّان أتاه بخبر سار، ولم يزل سايراً إلى أن وصل إلى قلعة نخل، فانحاز إلى القلعة وجمع الدويدار وكتخدا الحج والسدادرة وسلمهم الحجاج والمحمل وركب فى خاصته وسار إلي غزة وسار الحجاج من غير أمير إلى أن وصلوا إلى أجرود، فاقبل عليهم حسين بك كشكش[1] ومن معه يريد قتل على بك فلم يجده، فحضر بالحجاج ودخل بالمحمل إلى مصر، واستمر على بك بغزة نحو ثلاثة أشهر وأكثر، وكاتب الدولة بواسطة باشة الشام فأرسلوا إليه واحد أغا ووعدوه ومنوه وتحيلوا عليه حتى استصفوا ما معه من المال والأقمشة وغير ذلك، ثم حضر إلى مصر بسعاية نسيبه على كتخدا الخربطلى وأغراضه، ومات بعد وصوله إلى مصر بثمانية أيام، يقال إن بعض خشداشينه شغله بالسم حين كان يطوف عليهم للسلام.

وفى تلك السنة حضر مصطفى باشا واليا على مصر واستمر إلى أواخر سنة أربع وسبعين ومساية وألف، ونزل إلى القبة متوجها إلى جده فأقام هناك، وحضر أحمد باشا كامل*

١١٧٣هـ.
١٤٧٦ق.
١٧٥٩م.
غاية الفيضان: ١٧ قيراط / ٢٢ ذراع
- □ ١ توت سنة ١٤٧٦ = ١٠ سبتمبر ١٧٥٩ = الاثنين ١٧ محرم سنة ١١٧٣.
- □ فيها كان انهدام بعلبك وطرابلس بسبب زلازل عظيمة حصلت فى ١٤ ربيع ثانى.
- □ فيها عزل محمد سعيد باشا، بعد أن حكم مصر سنتين، وتولى بعده مصطفى باشا.
- □ ١ يناير ١٧٦٠ = ٢٤ كيهك ١٤٧٦ = الثلاث ١٢ جماد أول ١١٧٣.
- □ فيها جدد الأمير عبد الرحمن كتخدا رحاب السيدة زينب، رضى الله عنها، ووسعه، وبنى بجوارها رحاب سيدى محمد العتريس، أخى سيدى ابراهيم الدسوقى، وفيها جدد المذكور جامع السيدة سكينة، بشارع الخليفة.
- □ فيها اخترع جورج بتراج، الفرنساوى، آلة التلغراف.
- □ فيها حاصرت البروسيانيون درسده بدون فائدة ولا طائل.
- □ فيها كان أو استعمال مانعة الصواعق التى اكتشفها فرنكلين سنة ١٧٥٢.

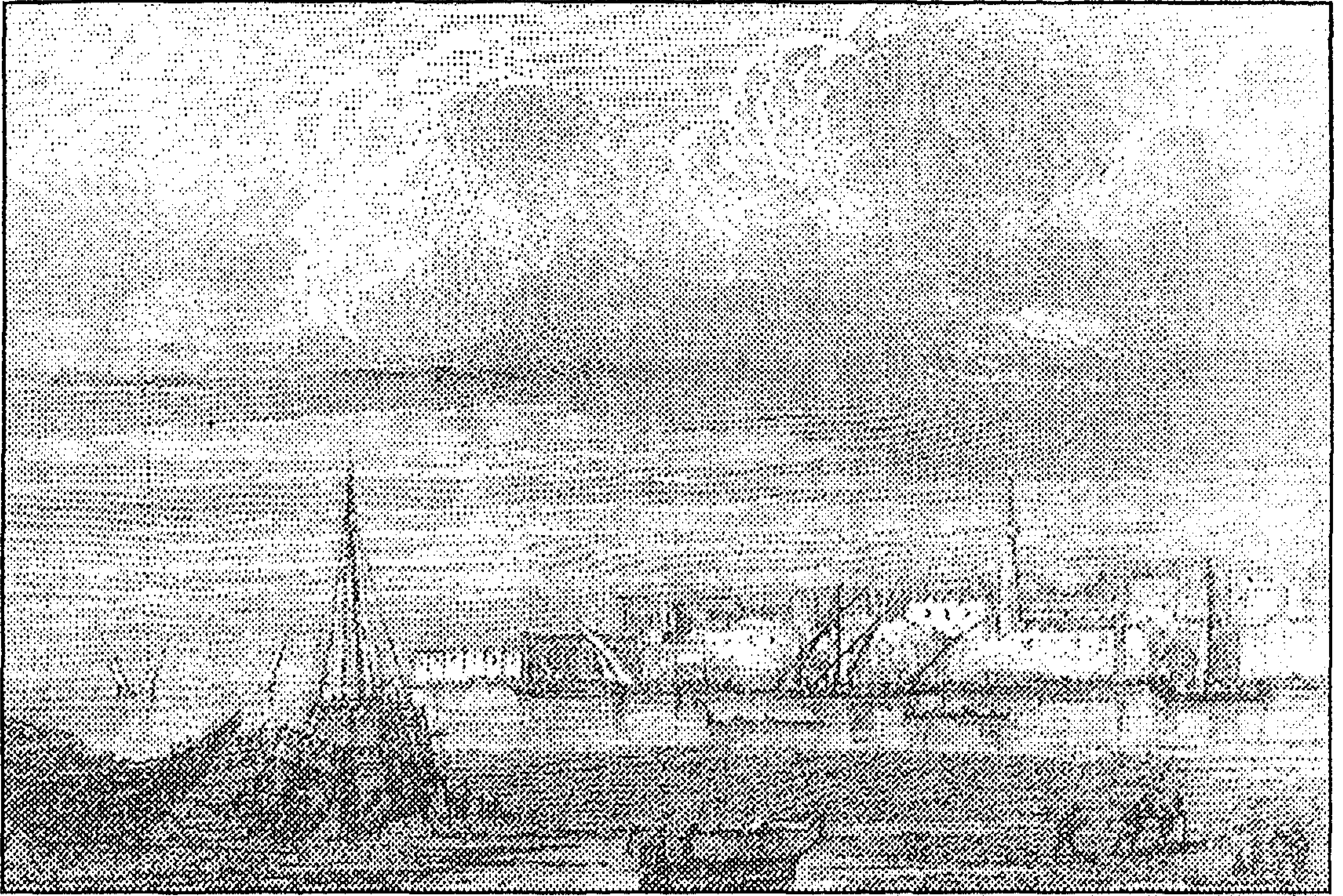
١٠٧ مصطفى باشا.
١١٧١ = ١٧٥٧م.
١٠٨ أحمد باشا كامل.
١١٧٤ = ١٧٦٠م.



* ميناء جدة

المعروف بصبطلان فى أواخر سنة أربع وسبعين وماية وألف [١٧٦٠م]، وكان ذا شهامة وقوة مراس، فدقق فى الأحكام وصار يركب وينزل ويكشف على الأنبار والغلال، فتعصبت عليه الأمرا وعزلوه وأصعدوا مصطفى باشا المعزول وعرضوا (ص٦١١) فى شأنه إلى الدولة، وسافر بالعرض الشيخ عبد الباسط السنديونى، ووجه مصطفى باشا خازنداره إلى جدة وكيلا عنه، ولما وصل العرض إلى الدولة وكان الوزير إذ ذاك محمد باشا راغب فوجهوا أحمد باشا المنفصل إلى ولاية قندية[٧]، ومصطفى باشا إلى حلب، ووجهوا باكير باشا* والى حلب إلى مصر، فحضر وطلع إلى القلعة وأقام نحو شهرين ومات ودفن بالقرافة سنة خمس وسبعين وماية وألف، وحضر

١٠٩ باكير باشا. ١١٧٥ = ١٧٦١م.



* ميناء السويس.

حسـن باشـا فى أواخـر سنة سـت وسـبعين ثم عـزل، وحضـر حمـزة باشا فى سنة تسع وسبعين ومـاية وألـف [١٧٦٥م] وسـيأتى تتمة ذلك.

واسـتقر الحـال وتقلد فى إمارة الحج حسين بك كشكش وطلع سنة أربع وسـبعين ومـاية وألف [بالحج]، ووقف له العرب فى مضيق وحضـر إليه كبراؤهم وطلبوا مطالبهم وعوائدهم، فأحضر كاتبه الشيخ خليل كاتب الصُرة وأمرهم بدفع مطلوبات العرب، فذهبوا معه إلى خيمته وأحضر المال وشرع الصراف يعُدُّ لهم الدراهم، فضرب عند ذلك مدفع الشيل فقال لهم «حينئذ لا يمكن فى هذا الوقت فاصبروا حتى ينزل الحج فى المحطة يحصل المطلوب» وسـار الحج حـتى خـرج من ذلك المضـيق إلى الوسع، ورتب مماليكه وطوايفه وحضر العرب وفيهم كبيرهم هزّاع، فأمر بقتلهم

١١٠ حسن باشا.

١١٧٤هـ.
١٤٧٧ق.
١٧٦٠م.
غاية الفيضان: ١ قيراط / ٢٤ ذراع

□ ١ توت سنة ١٤٧٧ = ٩ سبتمبر ١٧٦٠ = الثلاثاء ٢٨ محرم سنة ١١٧٤.
□ فيها استولت النمساويون علي غلاتز، والروسيون علي برلين □ فيها افتتحت الانكليز كندا.
□ فيها كانت وفاة جورجي الثاني، وسلطنة جورجي الثالث علي انكلترة.
□ ١ يناير ١٧٦١ = ٢٥ كيهك ١٤٧٧ = الخميس ٢٤ جماد أول ١١٧٤.
□ فيها عزل مصطفي باشا، بعد ان حكم مصر سنة واحدة، وتولاها بعده أحمد كامل باشا.
□ فيها انهزمت الفرنساوية انهزاما بحريا في الهندستان.
□ فيها استولت الانجليز علي بولدشيري.

فنزلوا عليهم بالسيوف فقتلوهم عن آخرهم، وفيهم نيف وعشرون كبيراً من مشايخ العربان المشهورين خلاف هزاع المذكور، وأمر بالرحيل وضربوا المدفع وسار الحج وتفرقت قبايل العرب ونساؤهم يصرخون بطلب الثأر، فتجمعت القبايل من كل جهة ووقفوا بطريق الحجاج وفى المضايق وهو يسوق عليهم (ص٦١٢) من أمام الحج وخلفه ويحاربهم ويقاتلهم بمماليكه وطوايفه، حتى وصل إلى مصر بالحج سالماً ومعه روس العربان محملة على الجمال، ودخل المدينة بالمحمل والحجاج منصوراً مؤيداً، فاجتمع عليه الأمرا من خشداشينه وغيرهم وقال له على بك بلوط قبن «إنك أفسدت علينا العرب وأخربت طريق الحج، ومن يطلع بالحج فى العام القابل بعد هذه الفعلة التى فعلتها؟» فقال «أنا الذى أسافر بالحج فى العام القابل ومنى للعرب أصطفل!!» فطلع أيضاً فى السنة الثانية وتجمع عليه العرب ووقفوا فى كل طريق ومضيق وعلى روس الجبال، واستعدوا له بما استطاعوا من الكثرة من كل جهة فصادمهم وقاتلهم وحاربهم وصار يكر ويفر ويحلق عليهم من أمام الحج ومن خلفه حتى شردهم وأخافهم وقتل منهم الكثير، ولم يبال بكثرتهم مع ما هو فيه من القلة فإنه لم يكن معه إلا نحو الثلثماية مملوك خلاف الطوايف والأجناد وعسكر المغاربة، وكان يبرز لحربهم حاسراً رأسه مشهوراً حسامه فيشتت شملهم ويفرق جمعهم، فهابوه وانكمشوا عن ملاقاته وانكفوا عن الحج، فلم تقم للعرب معه بعد ذلك قايمة، فحج أربع مرات أميراً

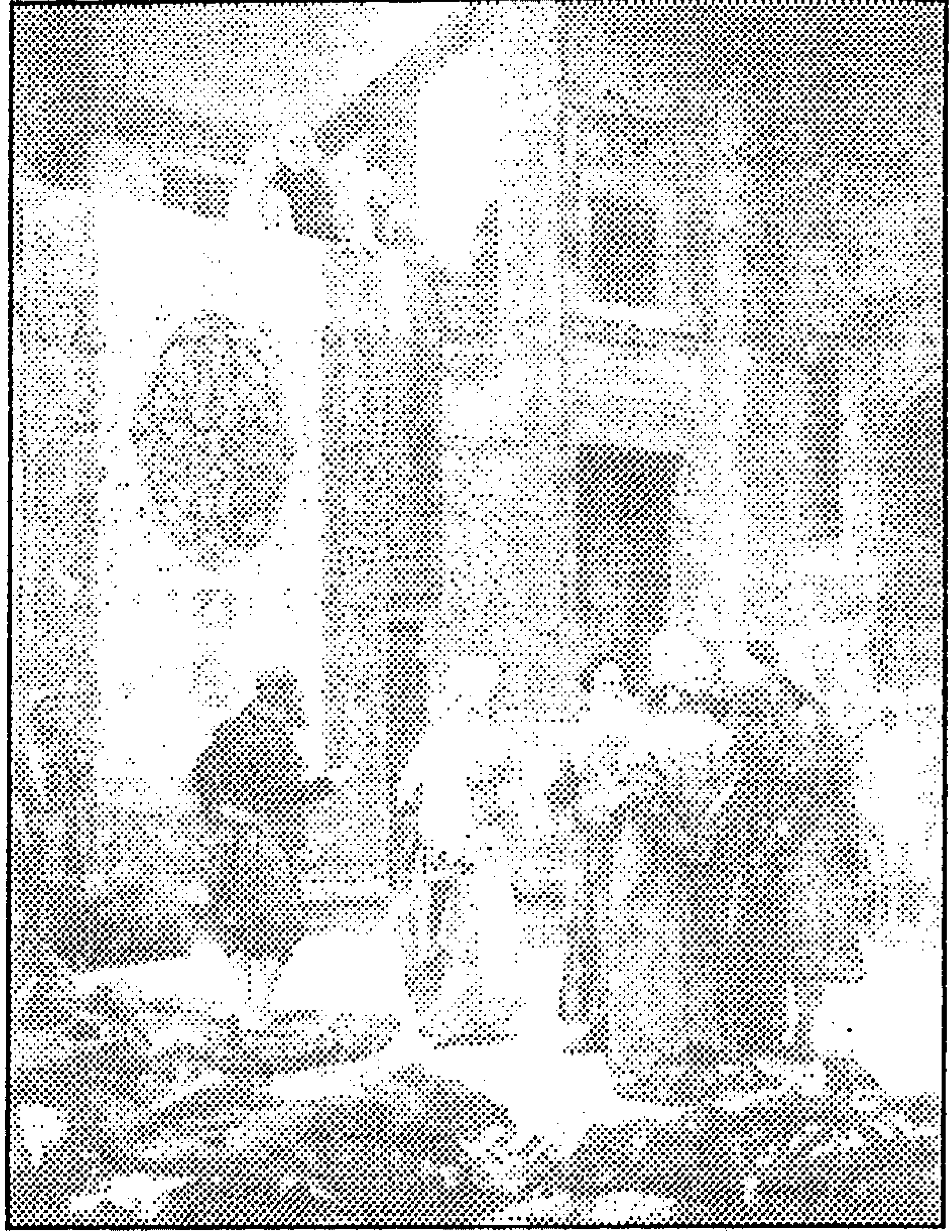
١١٧٥هـ.
١٤٧٧ق.
١٧٦١م.
غاية الفيضان: ٥ قيراط / ٢٢ ذراع
- ١ توت ١٤٧٨ = ٩ سبتمبر ١٧٦١ = الأربع ٩ صفر سنة ١١٧٥.
- فيها الأمير عبد الرحمن كتخدا أجرى عمارة عظيمة فى جامع سيدنا الحسين وزاد فى تحسينه ورونقه، كذا فى جامع السيدة عائشة النبوية، بقرب ميدان محمد على.
- فى ١٢ ربيع الثانى حصلت زلازل عظيمة فى سوريا.
- ١ يناير سنة ١٧٦٢ = ٢٥ كيهك سنة ١٤٧٨ = الجمعة ٥ جماد الثانى ١١٧٥.
- فيها كانت ولادة السلطان الغازى سليم خان الثالث.
- فيها عزل العسكر أحمد كامل باشا، بعد أن حكم سنة، وأرجعوا مصطفى باشا، الذى كان قبله، وعرضوا ذلك للدولة فلم تقبل، وأمرت أن أحمد باشا يكون واليا فى قونية ومصطفى باشا فى حلب، وباكير باشا فى مصر، فتولاها شهرين ثم توفى.
- فيها فقدت الفرنساويون والاسبانيولون مستعمراتهم.

١١٧٦هـ.
١٧٤٨ق.
١٧٦٢م.
غاية الفيضان: ١٣ قيراط / ٢١ ذراع
- فيها كانت نهاية المحاربات بين البروسيا وبين أسوج.
- ١ توت ١٤٧٩ = ٩ سبتمبر سنة ١٧٦٢ = الخميس ١٩ صفر سنة ١١٧٦.
- فيها تولى مصر حسن باشا بعد وفاة باكير باشا.
- فيها عزل بطرس الثالث القيصر الروسى وسجن ثم قتل.

□ ١ يناير ١٧٦٣ = ٢٥ كيهك ١٤٧٩ = السبت ١٥ جماد الثانى سنة ١١٧٦.
□ فى ٢٦ رجب/ يناير ١٧٦٣ عقدت معاهدة الصلح النهائى بين انجلترا وفرنسا واسبانيا والبورتغال، وذلك فى باريس.
□ فيها كان انتهاء حرب السبع سنين ومعاهدة باريس.
□ فيها جدد الأمير عبد الرحمن كتخدا جامع الامام الشافعى بالقرافة الصغرى.

* ظهور شان عل بك الكبير.

بالحج آخرها سنة ست وسبعين ومماية وألف، ورجع سنة سبع وسبعين ومماية وألف [١٧٦٣م]، ولم يتعرض له أحد من العرب ذهاباً وإياباً بعد ذلك، وكذلك أخاف العربان الكاينين حوالى مصر ويقطعون الطريق على المسافرين والفلاحين ويسلبون الناس، فكان يخرج إليهم على حين غفلة فيقتلهم وينهب مواشيهم (ص٦١٣) ويرجع بغنايمهم وروسهم فى أشناف [مقاطف] على الجمال، فارتدعوا وانكفوا على أفاعيلهم وأمنت السبل وشاع ذكره بذلك، وفى هذه المدة ظهر شأن* على بك بلوط قبَنْ واستفحل أمره وقلد إسماعيل بك الصنجقية وجعله اشراقه وزوجه هانم بنت سيده، وعمل له مهما عظيما احتفل به للغاية ببركة الفيل، وكان ذلك فى أيام النيل سنة أربع وسبعين ومماية وألف، فعملوا على معظم البركة أخشاباً مركبة على وجه الماء يمشى عليها الناس للفرجة، واجتمع بها أرباب الملاهى والملاعيب وبهلوان الحبل وغيره من ساير الأصناف والفرج والمتفرجون والبياعون من ساير الأصناف والأنواع، وعلقوا القناديل والوقدات على جميع البيوت المحيطة بالبركة، وغالبها سكن الأمراء والأعيان أكثرهم خشداشين بعضهم البعض ومماليك إبراهيم كتخدا أبى العروس، وفى كل بيت منهم ولايم وعزايم وضيافات وسماعات وآلات وجمعيات، واستمر هذا الفرح والمهم مدة شهر كامل، والبلد مفتحة والناس تغدو وتروح ليلا ونهاراً للحظ والفرجة من جميع النواحى، ووردت علَى على بك الهدايا والصلات من إخوانه الأمراء والأعيان



والاختيارية والوجاقلية والتجار والمباشرين والأقباط والإفرنج والأروام واليهود، والمدينة عامرة بالخير، والناس مطمئنة، والمكاسب كثيرة والأسعار رخيّة والقرى عامرة، وحضرت مشايخ البلدان وأكابر العربان ومقادم الأقاليم والبنادر بالهدايا والأغنام (ص٦١٤) والجواميس والسمن والعسل، وكل من الأمرا الإبراهيمية كأنه صاحب الفرح والمشار إليه من بينهم صاحب الفرح على بك، وبعد تمام الشهر زفت العروس فى موكب عظيم شقوا به من وسط المدينة بأنواع الملاعيب والبهلوانات والجنك والطبول ومعظم الأعيان والجاويشية والملازمين والسعاة والأغوات أمام الحريمات وعليهم الخلع والتخاليق المثمنة، وكذلك المهاترة والطبالون وغيرهم من المقدمين والخدم والجاويشية والركبدارية، والعروس فى عربة، وكان الخازندار لعلى بك فى ذلك

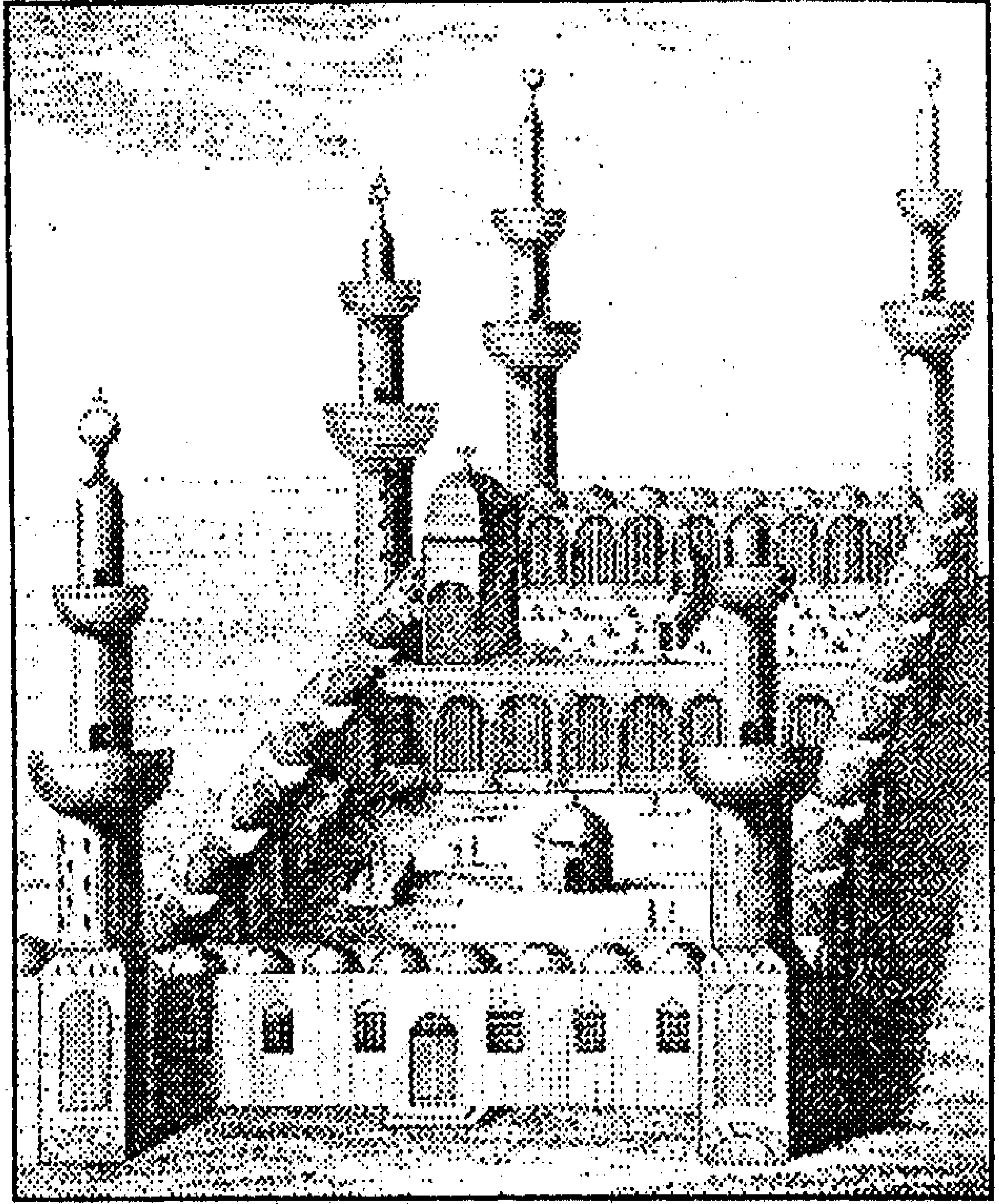
١١٧٧هـ.
١٤٧٩ق.
١٧٦٣م.
غاية الفيضان: ٤ قيراط / ٢٤ ذراع
- فيها كان طرد الجزويت من فرانسا وإقامة الحجة من طرف البابا.
- ١ توت ١٤٨٠ = ١٠ سبتمبر ١٧٦٣ = السبت ٢ ربيع اول سنة ١١٧٧.
- فيها كان تأسيس مدرسة السوارى بسومور، من فرانسا.

١ يناير ١٧٦٤ = ٢٤ كيهك ١٤٨٠ = الأحد ٢٦ جماد الثانى ١١٧٧.
- فيها كان إنشاء مدرسة البيطرية فى التور، من فرانسا.
- فيها كان شعر الريال الأبى طاقة ٨٥ نصف فضة، وان الريال المشط يعدل ٨٥ نصف فضة، وعليه فكلاهما واحد.

١١٧٨هـ.
١٤٨٠ق.
١٧٦٤م.
غاية الفيضان: ٦ قيراط / ٢٣ ذراع
- ١ توت ١٤٨١ = ٩ سبتمبر ١٧٦٤ = الأحد ١٢ ربيع اول سنة ١١٧٨.
- فيها عزل حسن باشا، بعد ان حكم مصر سنتين.
- فيها عقدت معاهدة بين السلطان مصطفى وفريدريك الثانى ملك بروسيا.
- ١ يناير ١٧٦٥ = ٢٥ كيهك ١٤٨١ = الثلاث ٨ رجب سنة ١١٧٨.
- فيها المهندس وات حسن الألة البخارية.
- فيها صار إنشاء مدرسة فن الرسم المجانية بباريس.

* ظهور شأن محمد بك أبو الدهب.

الوقت محمد بك أبو الدهب* ماشي بجانب العربة وفي يده عكاز ومن خلفها أولاد خزنات الأمراء ملبسين بالزرد والخود واللثامات الكشميرى مقلدين بالقسى والنشاب وبأيديهم المزاريق الطوال، وخلف الجميع النوبة التركية والنفيرات (فمن) ذلك الوقت اشتهر أمر على بك وشاع ذكره ونمى صيته، وقلد أيضاً مملوكه على بك المعروف بالسروجية، ولما كان عبد الرحمن كتخدا ابن سيدهم ومركز دايرة دولتهم انضوى إلى ممالاته ومال هو الآخر إلى صداقته ليقوى به على أرباب الرياسة من اختيارية الوجاقات، وكل منهما يريد تمام الأمر لنفسه حتى أن عبد الرحمن كتخدا لما أراد نفى الجماعة المتقدم ذكرهم بيت مع بعض المتكلمين وصوروا على أحمد جاويش المجنون ما يقتضى نفيه، ثم عرضوا ذلك على عبد الرحمان كتخدا فمانع فى ذلك وأظهر الغيظ وأصبح فى ثانى يوم اجتمع عنده الاختيارية والصناجق على عادتهم، فلما تكامل (ص٦١٥) حضور الجميع تكلم عبد الرحمن كتخدا فقال «إن على بك سافر إلى الحجاز ولابد من كبير تجتمع فيه الكلمة» فقال له «الرأى ما تراه» فقال على بك «هذا يكون شيخ البلد وكبيرها، وأنا أول من أطاعه وآخر من عصاه» فقالوا «سمعنا وأطعنا ونحن كذلك» وأصبح عبد الرحمن كتخدا غادياً إلى بيت على بك وكذلك باقى الأمراء والاختيارية، وصار الجميع والديوان فى بيته من ذلك اليوم، ولبس الخلعة من الباشا على ذلك، ثم إنهم طلعوا أيضاً فى ثانى يوم إلى الديوان واجتمعوا بباب الينكجرية وكتبوا عرضحال بنفى أحمد جاويش وخليل



* الحرم المدنى بالمدينة المنورة.

جاويش وسليمان بك الشابورى فقال عبد الرحمن كتخدا «واكتبوا معهم حسن كتخدا الشعراوى أيضاً» فكتبوه وأخرجوا فرماناً بذلك ونفوهم كما ذكر، واستمروا فى نفيهم، وعمل أحمد جاويش وقاداً بالحرم المدنى وخليل جاويش أقام أيضاً بالمدينة والشابورى وحسن كتخدا جهة فارسكور والسرو ورأس الخليج، وأخذ على بك يمهد لنفسه واستكثر من شراء المماليك وشرع فى مصادرة الناس ويتحيل على أخذ الأموال من أرباب البيوت المدخرة والأعيان المستورين مع الملاطفة وإدخال الوهم على البعض بمثل النفى والتعرض إلى الفايظ ببعض المقتضيات ونحو ذلك.

* عاصفة بحرية على الاسكندرية تغرق عدد من السفن.

ومن الحوادث السماوية أن فى يوم السبت تاسع عشر جمادى الأولى هبت ريح عظيمة شديدة نكباء

* كان في ميناء الاسكندرية مرسى لسفن السلطنة ومرسى للسفن الاجنبية.

غربية، غرق منها بالإسكندرية ثلاثة وثلاثون مركباً في مرسى المسلمين، وثلاثة مراكب في مرسى النصارى، وضجت (ص٦١٦) الناس وهاج البحر شديداً وتلف بالنيل بعض مراكب، وسقطت عدة أشجار.

وطلع على بك أميراً بالحج في سنة سبع وسبعين ومايه وألف، ورجع في أوايل سنة ثمان وسبعين وماية وألف في أبهة عظيمة، وأرخى مملوكه محمد الخازندار لحيته[٣] على زمزم، فلما رجع قلده الصنجقية، وهو الذى عرف بأبى الدهب، ثم قلد مملوكه أيوب أغا ورضوان قرّابته وإبراهيم شلاق بلفيه وذا الفقار وعلى بك الحبشى صناجق أيضاً، وانقضت تلك السنة وأمرُ على بك يتزايد وشهلوا أمور الحج على العادة، وقبضوا الميرى وصرفوا العلوفات والجامكية والصرة وغلال الحرمين والأنبار، وخرج المحمل على القانون المعتاد وأميره حسن بك رضوان، ولما رجعوا من البركة بعد ارتحال الحج طلع على بك وخشداشينه وأغراضه وملكوا أبواب القلعة، وكتبوا فرماناً وأخرجوا عبد الرحمن كتخدا[٤] وعلى كتخدا الخربطلى وعمر وجاويش الداودية ورضوان جربجى الرزاز وغيرهم منفيين، فأما عبد الرحمن كتخدا فأرسلوه إلى السويس ليذهب إلى الحجاز وعينوا للذهاب معه صالح بك ليوصله إلى السويس، ونفوا باقى الجماعة إلى جهة بحرى، وارتجت مصر فى ذلك اليوم وخصوصاً لخروج عبد الرحمن كتخدا، فإنه كان أعظم الجميع وكبيرهم وابن سيدهم، وله

* نفى عبد الرحمن كتخدا إلى الحجاز

الصولة والكلمة والشهرة، وبه ارتفع قدر الينكجرية [المماليك] على العزب [العثمانلية]، وكان له عزوة كبيرة ومماليك وأتباع وعساكر مغاربة وغيرهم حتى ظن الناس وقوع فتنة عظيمة في (ص٦١٧) ذلك اليوم، فلم يحصل شيء من ذلك سوى ما نزل بالناس من البَهتة والتعجب، ثم أرسل إلى صالح بك فرماناً بنفيه إلى غزة فوصل إليه الجاويش في اليوم الذى نزل فيه عبد الرحمن كتخدا في المركب، وسافر وذهب صالح بك إلى غزة فأقام بها مدة قليلة. ثم أرسلوا له جماعة ونقلوه من غزة وحضروا به إلى ناحية بحرى وأجلسوه برشيد، ورتب له على بك ما يصرفه وجعل له فايظاً في كل سنة عشرة أكياس، فأقام برشيد مدة، فحضرت أخبار وصول الباشا الجديد وهو حمزة باشا إلى ثغر سكندرية، فأرسلوا إلى صالح بك جماعةَ يغيبونه من رشيد ويذهبون به إلى دمياط يقيمُ بها، وذلك لئلا يجتمع بالباشا، فلما وصلت إليه الأخبار بذلك ركب بجماعته ليلا وسار إلى جهة البحيرة، وذهب من خلف جبل الفيوم إلى جهة قبلى، فوصل إلى منية ابن خصيب، فأقام بها، واجتمع عليه أناس كثيرة من الذين شرّدهم على بك ونفاهم في البلاد، وبنى له أبنية ومتاريس، وكان له معرفة وصداقة مع شيخ العرب همام، وأكابر الهوارة* وأكثر البلاد الجارية في التزامه جهة قبلى، واجتمع عليه الكثير منهم وقدموا له التقادم والذخيرة وما يحتاج إليه.

١١١ حمزة باشا.

ووصل المولى حفيد أفندى القاضي، وكان من العلماء الأفاضل، ويعرف بطرون أفندى، وكان مسناً هرماً، فجلس

* الهوارة: حفل تاريخ مصر في ظل لاحتلال العثماني ومن قبله بغارات البدو العرب على الأراضي الزراعية في الوادى والدلتا من اجل السلب والنهب. ولكن بعض هؤلاء البدو تمكنوا من الاستقرار في عدة مناطق وفرضوا سيطرة مستمرة على أجزاء من الوادى مثلما فعل الهوارة، عكس القبائل البدوية الأخرى التى استمرت في الترحل.

على الكرسي بجامع المشهد الحسيني ليملي درساً، فاجتمع عليه الفقهاء الأزهرية وخلطوا عليه، وكان المتصدى (ص٦١٨) لذلك الشيخ أحمد بن يونس، والشيخ عبد الرحمن البرادعي، فصار يقول لهم: «كلموني بآداب البحث، أمَا قرأتم آداب البحث؟» فزادو في المغالطة، فما وسعه إلا القيام، فانصرفوا عنه وهم يقولون: «عكسناه».

وفي شعبان من السنة المذكورة شرع القاضي المذكور في عمل فرح لختان ولده، فأرسل إليه علي بك هدية حافلة، وكذلك باقي الأمراء والاختيارية والتجار والعلماء حتى امتلأت حواصل المحكمة بالأرز والسمن والعسل والسكر، وكذلك امتلا المقعد بفروق البن ووسط الحوش بالحطب الرومي، واجتمع بالمحكمة أرباب الملاعيب والملاهي والبهلوانات وغيرهم، واستمر ذلك عدة أيام والناس تغدو وتروح للفرجة، وسعت العلما والأمرا والأعيان والتجار لدعوته، وفي يوم الزفّة أرسل إليه علي بك ركوبته وجميع اللوازم من الخيول والمماليك وشجر الدر والزرديات، وكذلك داقم الباشا(*) من الأغوات والسعاة والجاويشية والنوبة التركية، وأركبوا الغلام بالزفة إلى بيت علي بك، فألبسه فروة سمور ورجع إلى المحكمة بالموكب وختن معه عدة غلمان، وكان مهماً(*) مشهوداً، واتحد هذا القاضي بالشيخ الوالد، وتردد كل منهما على الآخر كثيرا، وحضر مرة في غير وقت ولا موعد في يوم شديد الحر، فلما صعد إلى أعلى الدرج، وكان كثيراً، فاستلقى من التعب على ظهره لهرمه، فلما تروّح وارتاح في نفسه قال له الشيخ:

ولقد استعانت مراكز الصراع على السلطة في مصر بهؤلاء البدو في صراعاتها ضد بعضها، كما أوقعت الفتنة بين هذه القبائل حتى وصل الأمر إلى حد الإستعانة بهوارة بحرى ضد هوارة قبلى والعكس.

١١٧٩هـ.
١٤٨١ق.
١٧٦٥م.
غاية الفيضان: ١٨ قيراط / ١٩ ذراع

□ فيها تولى مصر حمزة باشا، بعد حسن باشا، المعزول في سنة ١١٧٨.
□ ١ توت سنة ١٤٨٢ = ٩ سبتمبر ١٧٦٥ = الاثنين ٢٣ ربيع اول ١١٧٩.
□ ٩ يناير ١٧٦٦ = ٢٥ كيهك سنة ١٤٨٢ = الاربع ١٩ رجب سنة ١١٧٩.
□ فيها نفى على بك الى الشام لعدم وجود من يسنده في الأستانة بعد وفاة راغب باشا، الذى كان واليا على مصر، وتولى الصدارة العظمى بالأستانة.
□ فيها إخترع بيروبوروای الزنبلك الحلزونى المتساوى الرجات.

* داقم الباشا: أى اتباعه.

* مهما: احتفالا.

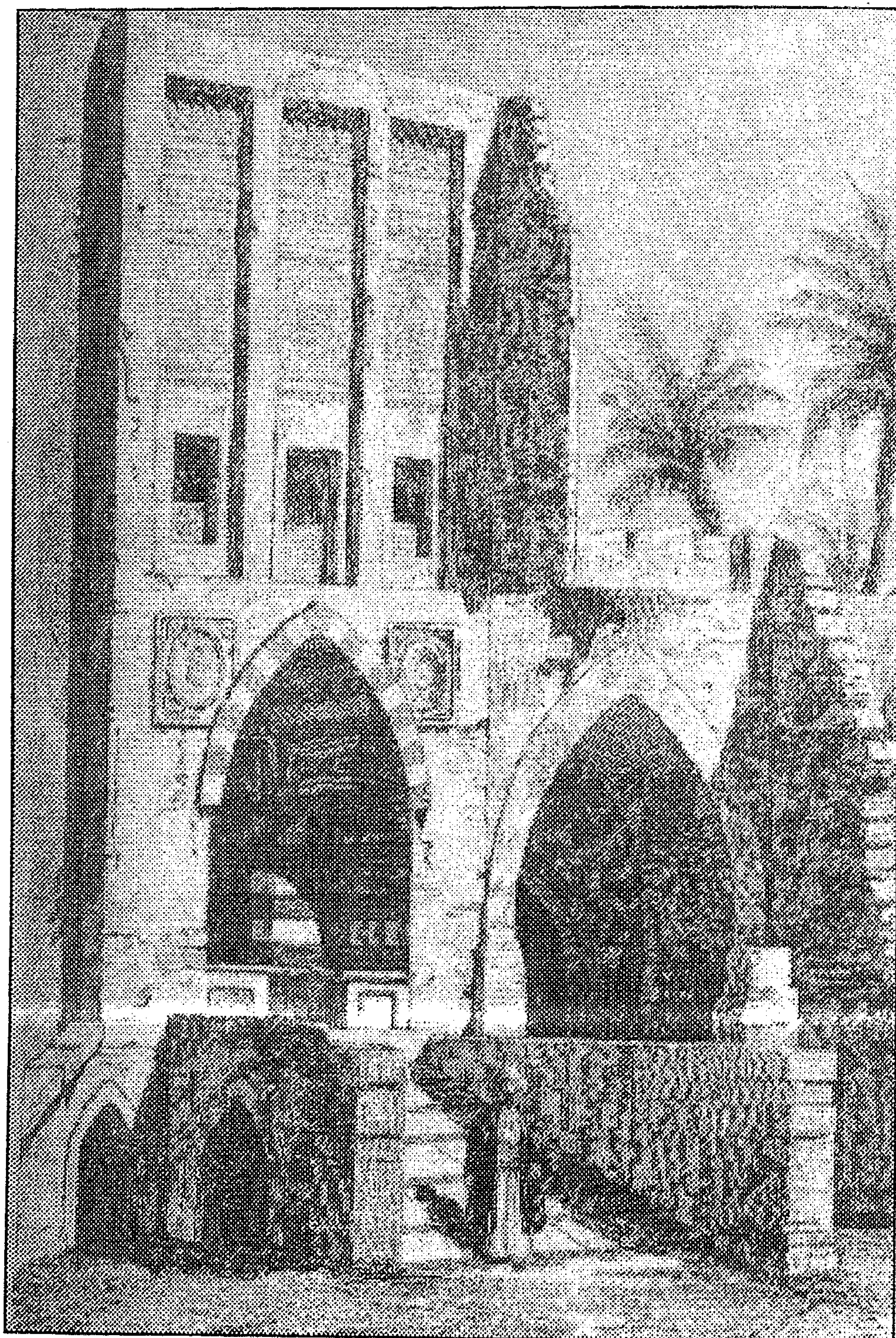
« يا أفندى لأى شيء تتعب نفسك؟ أنا آتيك متى شئت» فقال: «أنا أعرف قدرك وأنت تعرف قدرى» وكان تايه من الأذكياء أيضاً.

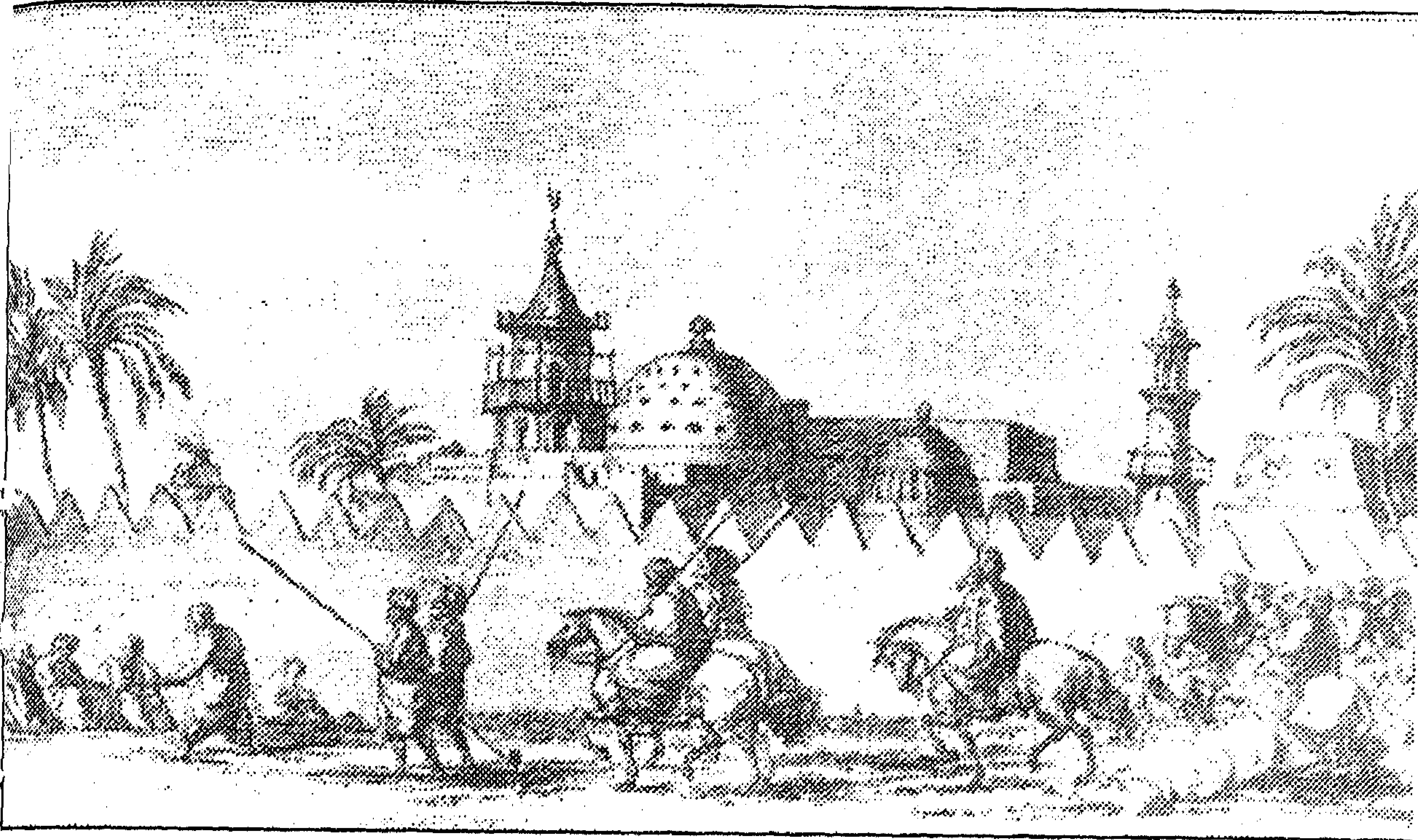
ولما حضر حمزة باشا سنة تسع وسبعين وماية وألف المذكورة والياً على مصر وطلع إلى القلعة، فعرضوا له أمر صالح بك وأنه قاطع الطريق ومانع وصول الغلال والميرى، (ص٦١٩) وأخذوا فرماناً بالتجريد عليه، وتقلّد حسين بك كشكش حاكم جرجا أمير التجريدة، وشرعوا فى التشهيل والخروج فسافر حسين بك كشكش وصحبته محمد بك أبو الدهب وحسن بك الأزبكاوى، فالتطموا مع صالح بك لطمة صغيرة، ثم توجه وعدّى إلى شرق أولاد يحيى، وكان حسين بك شبكة مملوك حسين بك كشكش نفاه على بك إلى قبلى، فلما ذهب صالح بك إلى قبلى انضم إليه وركب معه، فلما توجّه حسين بك بالتجريدة وعدّى صالح بك شرق أولاد يحيى انفصل عنه وحضر إلى سيده حسين بك وانضم إليه كما كان، ورجع محمد بك وحسن بك إلى مصر وتخلف حسين بك عن الحضور يريد الذهاب إلى منصبه بجرجا، وأقام فى المنية فأرسل إليه على بك فرمانا بنفيه إلى جهة عينها له فلم يمتثل لذلك، وركب فى مماليكه وأتباعه وأمرايه وحضر إلى مصر ليلا فوجد الباب الموصل لجهة قناطر السباع مغلوقاً فطرقه فلم يفتحوه، فكسره ودخل وذهب إلى بيته وبقى الأمر بينهم على المسالمة أياما فاراد على بك أن يشغله بالسم بيد عبد الله الحكيم، وقد كان طلب منه معجونا للباءة فوضع له السم فى المعجون واحضره له فأمره أن يأكل منه أولا فتلكأ واعتذر فأمر بقتله، وكان عبد الله الحكيم هذا نصرانياً رومياً يلبس على رأسه

قلبق سمور، وكان وجيهاً الصورة فصيحاً متكلما يعرف التركية والعربية والرومية والطليانية، وعلم حسين بك أنها من عزيمة على بك، فتأكدت بينهما الوحشة، وأضمر كل منهما لصاحبه السوء، وتوافق على بك مع جماعته على غدر حسين بك وإخراجه فوافقوه ظاهراً، واشتغل حسين بك على إخراج على بك وعصّب خشداشينه وغيرهم (ص٦٢٠) وركبوا عليه المدافع، فكرنك فى بيته وانتظر حضور المتوافقين معه فلم يأته منهم أحد وتحقق نفاقهم عليه، فعند ذلك أرسل إليهم يسألهم عن مرادهم، فحضر إليه منهم من يأمره بالركوب والسفر، فركب وأخرجوه منفيا* إلى الشام ومعه مماليكه وأتباعه، وذلك فى أواخر شهر رمضان سنة تسع وسبعين ومماية وألف [١٧٦٥م]، وأقام بالعادلية ثلاثة أيام حتى عملوا حسابه وحساب أتباعه وهم محيطون بهم من كل جهة بالعسكر والمدافع حتى فرغوا من الحساب واستخلصوا ما بقى على طرفهم. ثم سافروا إلى جهة غزة، وكانت العادة فيمن ينفى من أمراء مصر أنه إذا خرج إلى خارج فعلوا معه ذلك، ولا يذهب حتى يوفى جميع ما يتأخر بذمته من ميرى وخلافه، وإن لم يكن معه مايوفى ذلك باع أثاث داره ومتاعه وخيوله ولا يذهب إلا خالص الذمة.

* نفى على بك الكبير بعد فشل مؤامرته ضد حسين بك إلى الشام.

وسافر صحبة على بك أمراؤه وهم محمد بك وأيوب بك ورضوان بك وذو الفقار بك وعبد الله أغا الوالى وأحمد جاويش وسليمان جاويش وغيطاس كتخدا وباقى أتباعه، واستقر خليل بك كبير البلد مع قسيمه حسين بك كشكش وباقى جماعتهم وحسن بك جوجو(٥) ، وعزلوا عبد الرحمن أغا وقلدوا قاسم أغا الوالى أغات مستحفظان،



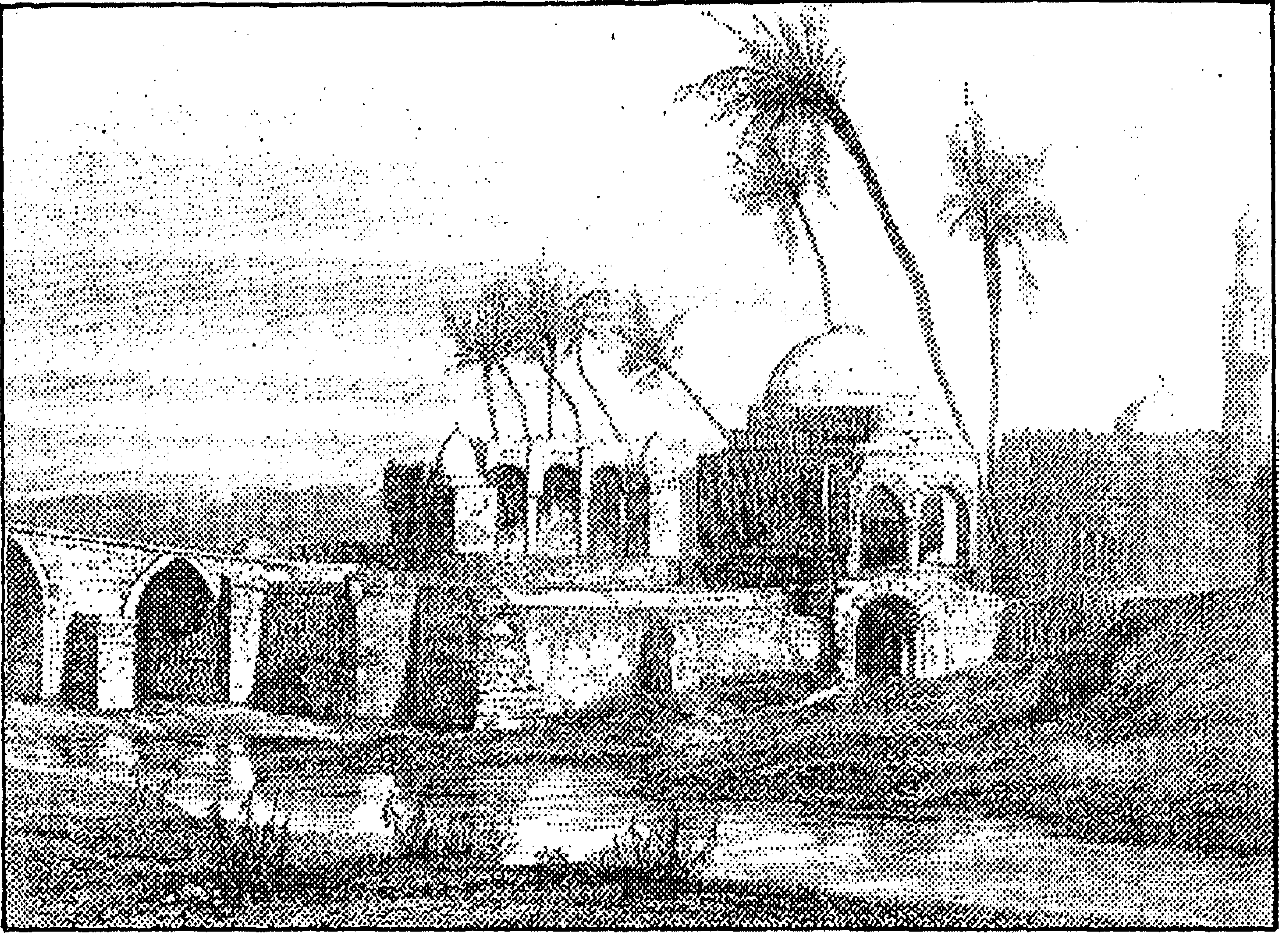


▲ موكب حاكم جرجا

ورد الخبر من الجهة القبلية بأن صالح بك رجع من شرق أولاد يحيى إلى المنية واستقر فيها وحصنها، فعند ذلك شرعوا فى تشهيل تجريدة وبرزوا إلى جهة البساتين، وفى تلك الأيام رجع على بك ومن معه على حين غفلة ودخل إلى مصر فنزل بيت حسين بك كشكش ومحمد بك نزل عند عثمان بك الجرجاوى وأيوب بك دخل منزل إبراهيم أغا (ص٦٢١) الساعى، فاجتمع الأمراء بالآثار(*) وعملوا مشورة فى ذلك، فاقتضى الرأى بأن يرسلوه إلى جدة، وقال بعضهم «اسمعوا نصحى واقتلوه وارتاحوا منه فإنه إن دام حياً أتعبكم ولا يبقى منكم أحداً» فقالوا «لا يصح، إنه أخونا ودخل إلى بيوتنا» فأرسلوا له بذلك وقال لا أخرج من بيت سيدى إلا أن يكون جهة بحرى» فاجتمع الرأى بأن يعطوه النوسات(٦) ويذهب إليها، فرضى بذلك وذهب إلى النوسات

* عودة على بك سراً إلى القاهرة.

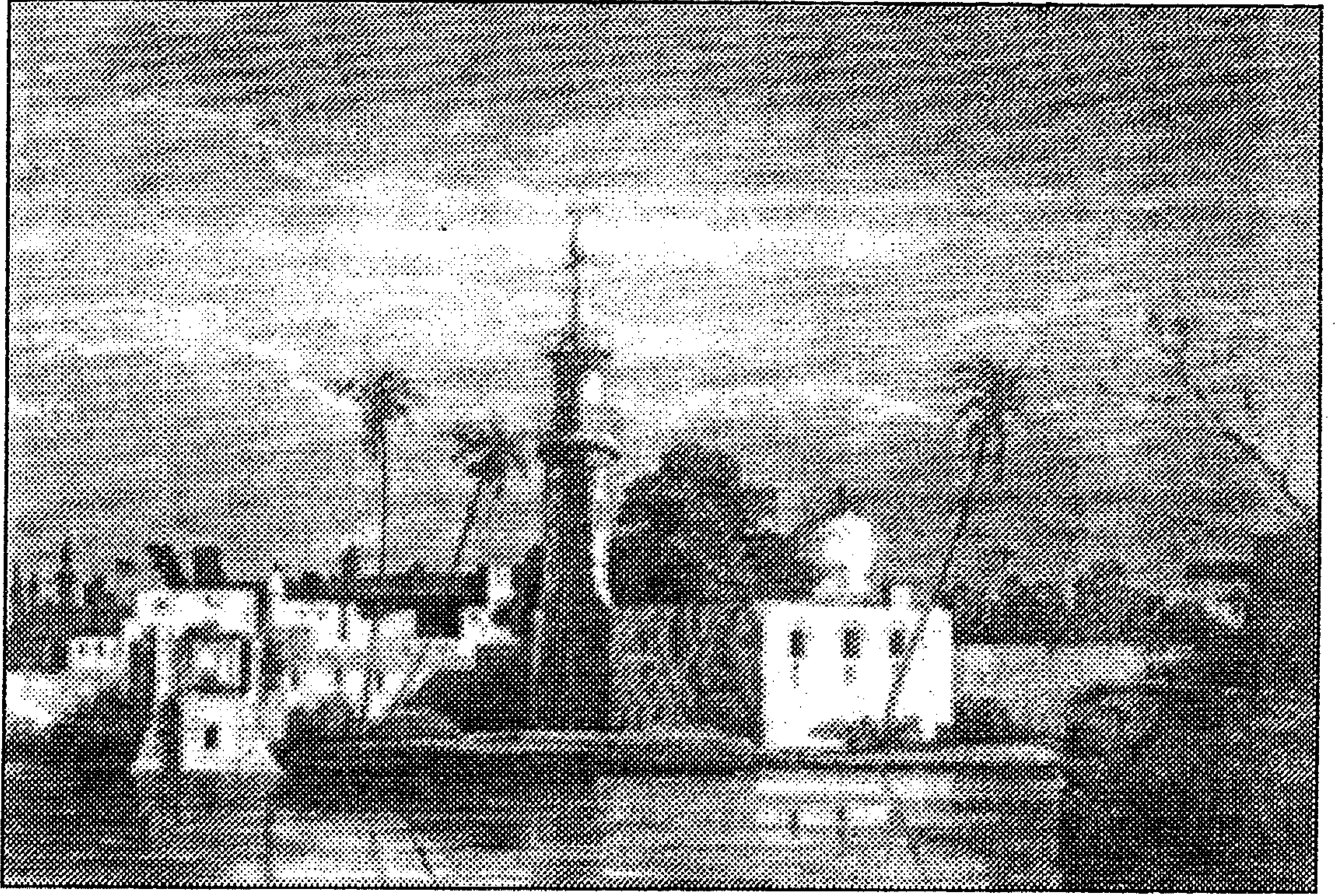
* الآثار: المقصود بها منطقة آثار النبى عند دار السلام حاليا جنوب القاهرة.



وأقام بها، وأرسلوا محمد بك وأيوب بك ورضوان بك إلى قبلى بناحية أسيوط وجهاتها، وكان هناك خليل بك الأسيوطى، فانضموا إليه وصادقوه وسفروا التجريدة إلى صالح بك فهزمت، فأرسلوا له تجريدة أخرى وأميرها حسن بك جوجو وكان منافقا فلم يقع بينهم إلا بعض مناوشات ورجعوا أيضاً كأنهم مهزومون، وأرسلوا له ثالث رَكبة فكانت الحرب بينهم سجالا، ورجعوا كذلك بعد أن اصطلحوا مع صالح بك أن يذهب إلى جرجا ويأخذ ما يكفيه هو ومن معه ويمكث بها ويقوم بدفع المال والغلال، وكان ذلك فى شهر جمادى الأولى سنة ثمانين ومائة وألف [١٧٦٦م].

▲ اسيوط

وفى ثانى شعبان منها اتهموا حسن بك الأزبكاوى أنه يراسل على بك وعلى بك يراسله فقتلوه فى ذلك اليوم بقصر



▲ مصر القديمة

العينى ورسموا بنفى خشداشينه وهم حسن بك أبو كرش ومحمد بك الماوردى وسليمان أغا كتخدا الجاويشية سيد الثلاثة وهو زوج أم عبد الرحمن كتخدا وكان مقيما بمصر القديمة وقد صار مسناً فسفروهم إلى جهة بحرى، وتخبلوا من إقامة على بك بالنوسات فأرسلوا له خليل بك السكران فأخذه وذهب به إلى السويس ليسافر إلى جدة من القلزم، وأحضر له المركب لينزل فيها.

وفى ثانى شهر شوال من السنة (ص٦٢٢) ركب الأمراء إلى قراميدان ليهنوا الباشا بالعيد، وكان معتاد الرسوم القديمة، أنّ كبار الأمراء يركبون بعد الفجر من يوم العيد وكذلك أرباب العكاكيز[٧] فيطلعون إلى القلعة ويمشون أمام الباشا من باب السراية إلى جامع الناصر بن قلاوون، فيصلون صلاة العيد ويرجعون كذلك ثمُ يقَبّلون أتكه*

* مظاهر الاحتفال الرسمى بعيد الفطر.

* أتكه: أى ذيل ردائه وهذا التقبيل دليل الولاء.

ويهنونه وينزلون إلى بيوتهم فيهني بعضهم بعضاً على رسمهم واصطلاحهم، وينزل الباشا في ثاني يوم إلى الكشك بقراميدان وقد هيئت مجالسه بالفرش والمساند والستور واستعد فراشو الباشا بالتطلي* والقهوة والشربات والقماقم والمباخر ورتبوا جميع الاحتياجات واللوازم من الليل، واصطفت الخدم والجاويشية والسعاة والملازمون وجلس الباشا بذلك الكشك وحضرت أرباب العكاكيز والخدم قبل كل أحد، ثم يأتي الدفتردار وأمير الحاج والأمراء الصناجق والاختيارية وكتخدا الينكجرية والعزب أصحاب الوقت، والمقادم والأوده باشية واليمقات والجربجية فيهنون الباشا ويُعيِّدون عليه على قدر مراتبهم بالقانون والترتيب ثم ينصرفون، فلما حضروا في ذلك اليوم المذكور وهنأ الأمراء الصناجق الباشا وخرجوا إلى دهليز القصر يريدون النزول وقف لهم جماعة وسحبوا السلاح عليهم وضربوا عليهم بنادق، فأصيب عثمان بك الجرجاوى بسيف في وجهه وحسين بك كشكش أصيب برصاصة نفذت من شقه، وسحب الآخرون سلاحهم وسيوفهم واحتاط بهم مماليكهم ونط أكثرهم من حايط البستان ونفذوا من الجهة الأخرى وركبوا خيولهم وهم لا يصدقون بالنجاة، وأركبوا عثمان بك حصانه وهو يقول «باب العزب، باب العزب» (ص٦٢٣) وقد قطع السيف وجهه وحنكه، وذهبوا به إلى باب العزب وأنزلوه فمكث هنيهة ومات، فشالوه إلى بيته وغسّلوه وكفّنوه وخرجوا بجنازته ودفنوه، والمجرح أيضاً إسماعيل بك أبو مدفع ومحمود بك وقاسم أغا، ولكن لم يمت منهم إلا عثمان بك، وباتوا على ذلك فلما أصبحوا اجتمعوا وطلعوا إلى الأبواب وأرسلوا إلى الباشا يأمرونه

* التطلي: كلمة تركية كانت تكتب (طاتلي) أو (طاتلو) ومعناها الحلوى.

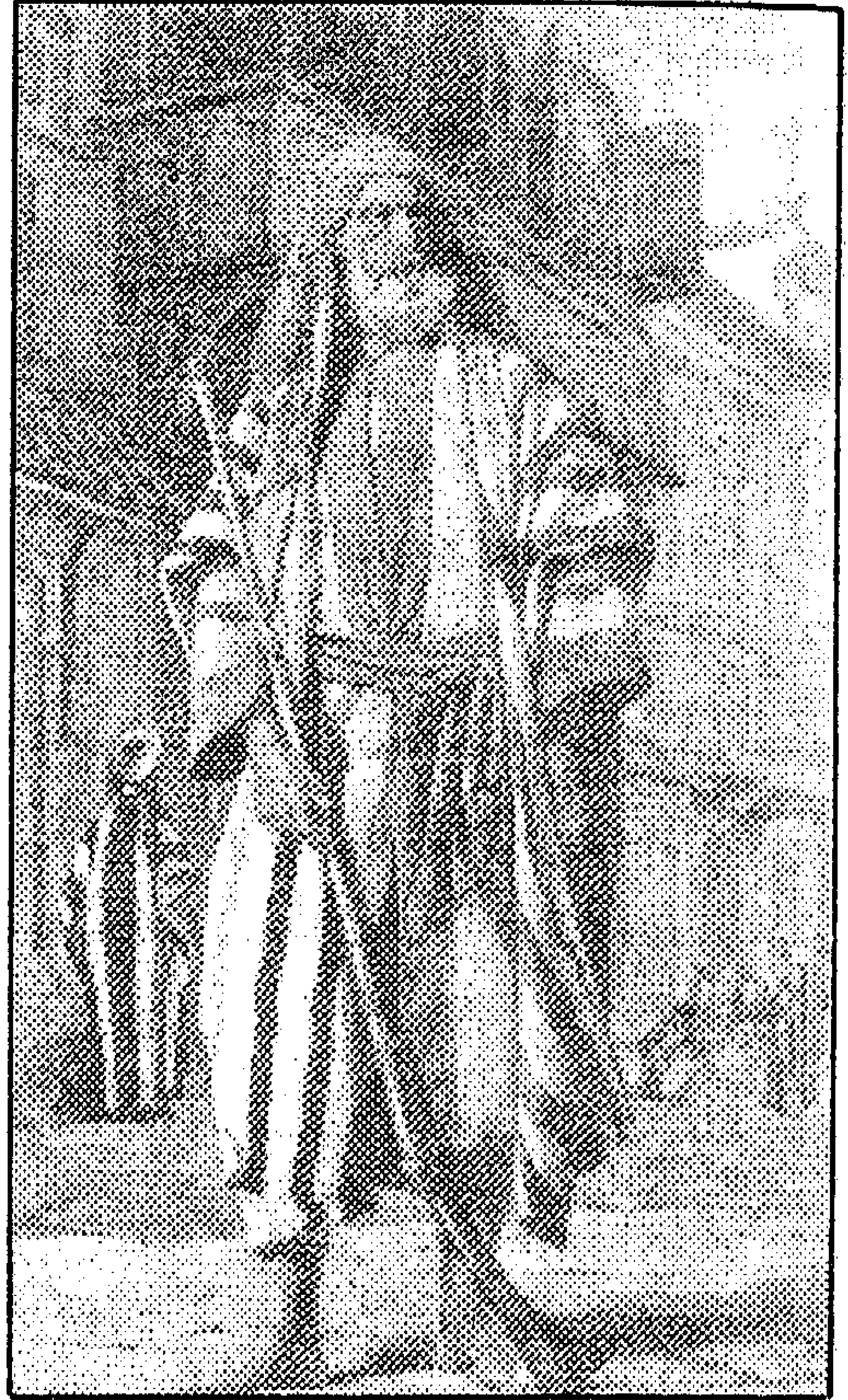
١١٨٠ هـ.
١٤٨٢ ق.
١٧٦٦م.
غاية الفيضان: ١٧ قيراط / ١٨ ذراع

- □ فيها كانت سياحة بونجيفيل حول الدنيا.
- □ فيها كانت زلازل عظيمة بالاستانة.
- □ فيها حصلت ثورة في انكلترة لعلو اسعار الحبوب.
- □ ١ توت ١٤٨٣ = ٩ سبتمبر ١٧٦٦ = الثلاث ٤ ربيع الثاني ١١٨٠.
- □ فيها كان طرد الجزويت من بوهيميا والدانيمارقة.
- □ فيها حصل انقلاب في مدريد بسبب ترتيب ضرائب جديدة.
- □ ١ يناير سنة ١٧٦٧ = ٢٥ كيهك ١٤٨٣ = الخميس ٣٠ رجب ١١٨٠.
- □ فيها عاد علي بك إلى القاهرة واسترجع منصبه بمساعدة احزابه وأربعة من دعاة ابراهيم الشركسي.
- □ فيها انشأ محمد بك أبو الذهب جامع محمد بك أبي الذهب، بجوار الجامع الأزهر.
- □ فيها اخترع ماير دائرة الانعكاس.

بالنزول فنزل إلى بيت أحمد بك كشك بقوصون، وعند نزوله ومروره بباب العزب وقف له حسين بك كشكش وأسمعه كلاماً قبيحاً، ثم إنهم جعلوا خليل بك بلفيه قايمقام وقلدوا عبد الرحمن أغا مملوك عثمان بك سنجقاً عوضا عن سيده ونسبت هذه النكتة* إلى حمزة باشا وقيل إنها من على بك الذى بالنوسات ومراسلاته الى جسن بك جوجو، فبيّت مع أنفار من الجلفية وأخفاهم عنده مدة أيام وتواعدوا على ذلك اليوم وذهبوا إلى الكشك بقراميدان وكانوا نحو الأربعين، فاختلفوا واتفقوا على ثانى يوم بدهليز بيت القاضى وتفرقوا إلا أربعة منهم ثبتوا على ذلك الاتفاق وفعلوا هذه الفعلة، وبطل أمر العيد من قراميدان من ذلك اليوم، وتهدم القصر وخرب وكذلك الجنينة ماتت أشجارها وذهبت نضارتها.

ولما حصلت هذه الحادثة أرسلوا حمزة بك إلى على بك فوجده فى المركب بالغاطس ينتظر اعتدال الريح للسفر، فرده إلى البر وأركبه بمماليكه وأتباعه، ورجع إلى جهة مصر ومر من الجبل وذهب إلى جهة شرق إطفيح ثم إلى أسيوط بقبلى، ورجع حمزة بك إلى مصر، ثم إن على بك اجتمعت عليه المنافى وهوارة وخلافهم وأراد الانضمام (ص٦٢٤) إلى صالح بك فنفر منه، فلم يزل يخادعه وكان على كتخدا الخربطلى هناك منفياً من قبله وجعله سفيراً فيما بينه وبين صالح بك هو وخليل بك الأسيوطى وعثمان كتخدا الصابونجى، فأرسلهم فلم يزالوا به حتى جنح لقولهم، فعند ذلك أرسل إليه محمد بك أبو الدهب فلم يزل به حتى انخدع له واجتمع عليه بكفالة شيخ العرب همام، وتحالفا وتعاقدا وتعاهدا على الكتاب والسيف، وكتبوا بذلك حجة

* النكتة: بفتح النون وسكون الكاف، يقال نكته أى طعنه وألقاه على راسه، والمقصود بها هنا المؤامرة.



* بدوى مسلح

واتفق مع على بك أنه إذا تم لهم الأمر أعطى لصالح بك جهة قبلى حياة، واتفقوا على ذلك بالمواثيق الأكيدة وأرسلوا بذلك إلى شيخ العرب همام فانسرّ بذلك ورضى به مراعاة لصالح بك، وأمدهم عند ذلك همام بالعطايا والمال والرجال، واجتمع عليهم المتفرقون والمشردون من الغز والأجناد والهوارة والشجعان ولموا جموعاً كثيرة وحضروا إلى المنية وكان بها خليل بك السكران، فلما بلغه قدومهم ارتحل منها وحضر إلى مصر هارباً.

واستقر على بك وصالح بك وجماعتهم بالمنية، وبنوا حولها أسواراً وأبراجاً وركبوا عليها المدافع وقطعوا الطريق على المسافرين المبحرين والمقبلين، وأرسل على بك إلى ذى الفقار بك وكان بالمنصورة وصحبته جماعة كشاف، فارتحلوا ليلا وذهبوا إلى المنية فعمل الأمراء جمعية وعزموا على تشهيل

تجريدة وتكلموا وتشاوروا فى ذلك، فتكلم الشيخ الحفناوى فى ذلك المجلس وأفحمهم بالكلام ومانع فى ذلك وقال «أخربتم الأقاليم والبلاد، فى أى شيء هذا الحال وكل ساعة خصام ونزاع وتجاريد؟ على بك هذا رجل أخوكم وخشداشكم، أى شيء يحصل إذا أتى وقعد فى بيته (ص٦٢٥) واصطلحتم مع بعضكم وأرحتم أنفسكم والناس؟» وحلف أنه لا يسافر أحد بتجريده مطلقاً، وإن فعلوا ذلك لا يحصل لهم خير أبداً، فقالوا «إنه هو الذى يحرك الشر ويريد الانفراد بنفسه ومماليكه وإن لم نذهب إليه أتى هو إلينا وفعل مراده فينا» فقال لهم الشيخ «أنا أرسل إليه مكاتبة فلا تتحركوا بشيء حتى يأتى رد الجواب» فلم يسعهم إلا الامتثال، فكتب له الشيخ مكتوباً ووبخه فيه وزجره ونصحه ووعظه وأرسلوه إليه، فلم يلبث الشيخ بعد هذا المجلس إلا أياما ومرض ورمى بالدم وتوفى إلى رحمة الله تعالى، فيقال إنهم أشغلوه وسموه ليتمكنوا من أغراضهم.

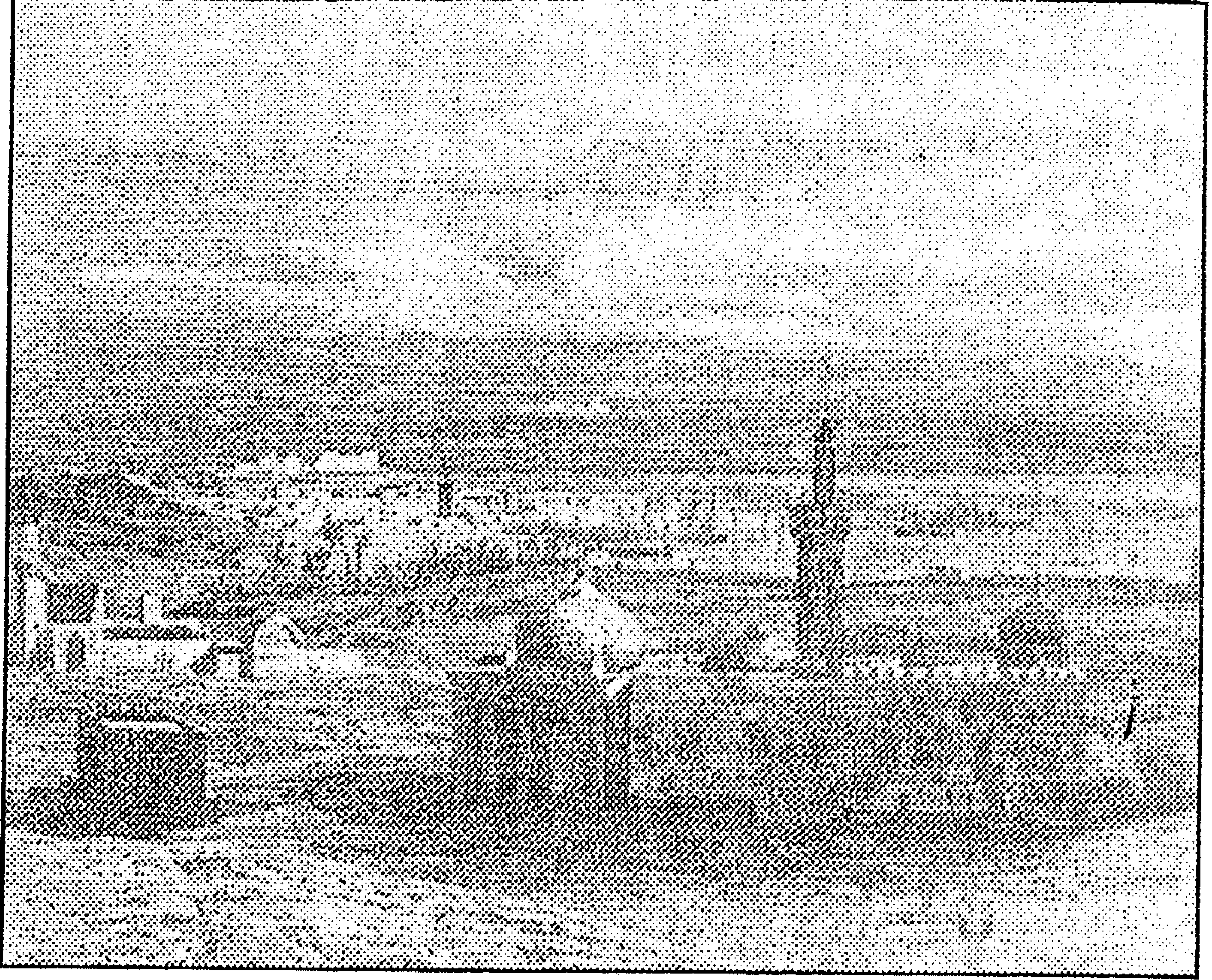
١١٢ محمد باشا راقم.

وفى أثناء ورد الخبر بوصول محمد باشا راقم* إلى سكندرية فأرسلوا له الملاقاة وحضر إلى مصر وطلع القلعة فى غرة ربيع الثانى سنة إحدى وثمانين ومائة ألف. [١٧٦٧م]

١١٨١ هـ.
١٤٨٣ ق.
١٧٦٧م.
غاية الفيضان: ٨ قيراط / ٢٣ ذراع
- فيها كان طرد الجزويت من أسبانيا وفينيسيا وجنوه ونابولى.
- ١ توت ١٤٨٤ = ١٠ سبتمبر ١٧٦٧ = الخميس ١٥ ربيع الثانى سنة ١١٨١.
- فيها عزل حمزة باشا، بعد أن حكم مصر سنتين، وتولى بعده محمد راقم باشا.
- ١ يناير سنة ١٧٦٨ = ٢٤ كيهك ١٤٨٤ = الجمعة ١٠ شعبان ١١٨١.
- فيها سجن العثمانيون سفير الروسيا واعلنوا الحرب عليها.

وفى حادى عشر جمادى الأولى اجتمعوا بالديوان وقلدوا حسن بك رضوان دفتر دار مصر.

وفى خامس عشرة قلدوا خليل بك بلفيه أمير الحاج وقاسم أغا صنجقا وكتبوا فرمانا بطلوع التجريدة إلى قبلى ولبس سارى عسكرها حسين بك كشكش وشرعوا فى التشهيل واضطرهم الحال إلى مصادرة التجار، وأحضر خليل بك النواخيد وهم ملا مصطفى وأحمد أغا الملطيلى وقرا إبراهيم وكاتب البهار، وطلب منهم مال البهار معجلا، فاعتذروا



▲ مدينة الاسكندرية

فصرخ عليهم وسبهم فخرجوا من بين يديه وأخذوا فى تشهيل المطلوب وجمع المال من التجار، وبرّز حسين بك خيامه للسفر فى منتصف جمادى الأولى وخرج صحبته ستة من الصناجق وهم حسن بك جوجو وخليل بك السكران وحسن بك شبكة وإسماعيل بك أبو (ص٦٢٦) مدفع وحمزة بك وقاسم بك وأسرعوا فى الارتحال.

وفى عشرينه أخرج خلفهم أيضا خليل بك تجريدة أخرى وفيها ثلاثة صناجق ووجاقلية وعسكر مغاربة وسافروا أيضاً فى يومها، وبعد ثلاثة أيام ورد الخبر بوقوع الحرب بينهم ببياضة تجاه بنى سويف، فكانت الهزيمة على حسين بك ومن معه وقتل على أغا المليجى وخلافه، وقتل من ذلك الطرف ذو الفقار بك ورجع المهزومون فى ذلك ثانى يوم الكسرة وهو يوم السبت رابع عشرينه وهم فى أسوأ حال،

وأصبحوا يوم الأحد طلعوا إلى أبواب القلعة وطلبوا من الباشا فرمانا بالتجريدة على على بك وصالح بك ومن معهم وطلبوا مائتى كيس من الميرى يصرفونها فى اللوازم، فامتنع الباشا عن ذلك وحضر الخبر يوم الاثنين بوصول القادمين إلى غمازة(*) ، وكان الوجاقلية وحسن بك جوجو ناصبين خيامهم جهة البساتين فارتحلوا ليلا وهربوا، وتخبَّل غَزْل خليل بك وحسين بك ومن معهما وتحيروا فى أمرهم وتحققوا الإدبار والزوال، وأرسل الباشا إلى الوجاقلية يقول لهم كل وجاق يلازم بابه.

* غمازة: من أعمال الصف مديرية الجيزة.

وفى سابع عشرينه حضر على بك وصالح بك ومن معهم إلى البساتين فازداد تحيرهم وطلعوا إلى الأبواب فوجدوها مغلوقة فرجعوا إلى قراميدان وجلسوا هناك ثم رجعوا، وتسحَّب تلك الليلة كثير من الأمراء والأجناد وخرجوا إلى جهة على بك، وكان حسن بك المعروف بجوجو ينافق الطرفين ويراسل على بك وصالح بك سراً ويكاتبهما، وضم إليه بعض الأمرا مثل قاسم بك خشداشه وإسماعيل بك زوج هانم بنت سيدهم وعلى بك السروجى وجن على وهو خشداش إبراهيم بك بلفيه وكثير (ص٦٢٧) من أعيان الوجاقلية ويرسلون لهم الأوراق فى داخل الأقصاب التى يشربون فها الدخان ونحو ذلك.

* انضمام الامراء المماليك إلى رياسة على بك الكبير.

وفى ليلة الخميس تاسع عشرين جمادى الأولى هرب الأمرا الذين بمصر وهم خليل بك شيخ البلد وأتباعه وحسين بك كشكش وأتباعه وهم نحو عشرة صناجق وصحبتهم مماليكهم وأجنادهم عدة كثيرة، وأصبح يوم الخميس فخرج الأعيان وغيرهم، لملاقاة القادمين ودخل فى ذلك اليوم على بك وصالح بك وصناجقهم ومماليكهم وأتباعهم وجميع من

كان منفياً بالصعيد قبل ذلك من أمرا ووجاقلية وغيرهم وحضر صحبتهم على كتخدا الخربطلى وخليل بك الأسيوطى وقلده على بك الصنجقية مجدداً، وضربت النوبة فى بيته، ثم أعطاه كشوفية الشرقية وسافر إليها.

* صعود على بك للديوان وتقلده مشيخة البلد.

وفى يوم الأحد ثانى شهر جمادى الثانية طلع على بك وصالح بك وباقى الأمرا القادمين والذين تخلفوا عن الذاهبين مثل حسن بك جوجو وإسماعيل بك زوج هانم وجن على وعلى بك السروجى وقاسم بك والاختيارية والوجاقلية وغيرهم إلى الديوان بالقلعة، فخلع الباشا على على بك واستقر فى مشيخة البلد كما كان، وخلع على صناجقه خلع الاستمرار أيضا فى إماراتهم كما كانوا، ونزلوا إلى بيوتهم وثبت قدم على بك فى إمارة مصر ورياستها فى هذه المرة، وظهر بعد ذلك الظهور التام وملك الديار المصرية والأقطار الحجازية والبلاد الشامية، وقتل المتمردين وقطع المعاندين وشتت شمل المنافقين وخرق القواعد، وخرم العوايد، وأخرب البيوت القديمة، وأبطل الطرايق التى كانت مستقيمة، ثم (ص٦٢٨) إنه حضر سليمان أغا كتخدا الجاويشية وصناجقه إلى مصر وعزم على نفى بعض الأعيان وإخراجهم من مصر فعلم أنه لا يتمكن من أغراضه مع وجود حسن بك جوجو وأنه ما دام حيا لا يصفوا له الحال، فأخذ يدبر على قتله فبيت مع أتباعه على قتله، فحضر حسن بك جوجو وعلى بك جن على عند على بك وجلسوا معه حصة من الليل وقام ليذهب إلى بيته فركب وركب معه جن على ومحمد بك أبو الدهب وأيوب بك ليذهبا أيضا إلى بيوتهما لاتحاد الطريق، فلما صاروا فى الطريق التى عند بيت الشابورى خلف جامع قوصون

* قتل حسن بك جوجو على يد اتباع على بك الكبير فى رجب ١١٨١ = ١٧٦٧م.

سحبوا سيوفهم وضربوا حسن بك وقتلوه وقتلوا معه أيضاً جن على، ورجعوا وأخبروا سيدهم على بك وذلك ليلة الثلاثاء من شهر رجب من سنة إحدى وثمانين ومائة وألف [١٧٦٧م]، وأصبح على بك مالكا للأبواب ورسم بنفى قاسم بك وإسماعيل بك أبى مدفع وعبد الرحمن بك وإسماعيل كتخدا عزبان ومحمد كتخدا زنور ومصطفى جاويش تابع مصطفى جاويش الكبير مملوك إبراهيم كتخدا وخليل جاويش درب الحجر.

* نفى أمراء بيت الفلاح.

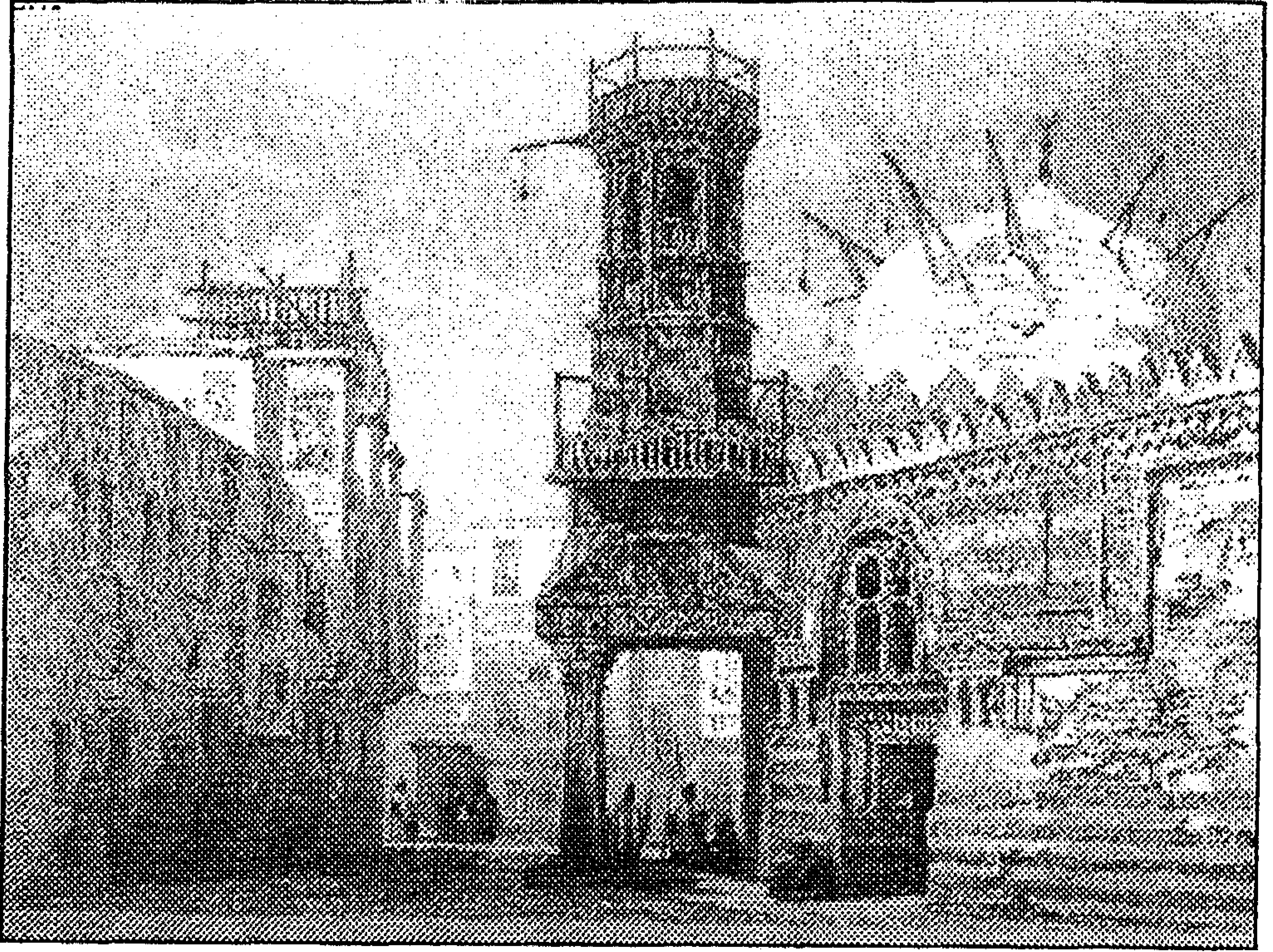
وفى حادى عشر شهر شوال أخرج أيضا نحو الثلاثين شخصا من الأعيان ونفاهم فى البلاد وفيهم ثمانية عشر أميراً من جماعة الفلاح(٨) ، وفيهم على كتخدا وأحمد كتخدا الفلاح وإبراهيم كتخدا مناو وسليمان أغا كتخدا جاووشان الكبير وصناجقه حسن بك أبو كرش ومحمد بك الماوردى وخلافهم مقادم وأوده باشية، فنفى الجميع إلى جهة قبلى وأرسل سليمان أغا كتخدا الجاويشية إلى السويس ليذهب إلى الحجاز من القلزم واستمر هناك إلى أن مات.

* جناح: من أعمال مركز دسوق/ كفر الشيخ.

وفيه قبض على بك على الشيخ يوسف بن وحيش وضربه (ص٦٢٩) علقة قوية ونفاه إلى بلده جناج(*) ، فلم يزل بها إلى أن مات، وكان من دهاة العالم وكان كاتباً عند عبد الرحمن كتخدا القازدغلى وله شهرة وسمعة فى السعى وقضاء الدعاوى والشكاوى والتحيلات والمداهنات والتلبيسات وغير ذلك.

* معارك حسين بك كشكش وعلى بك الكبير.

وفى شهر الحجة وصلت أخبار عن حسين بك كشكش وخليل بك أنهم لما وصلوا إلى غزة جمعوا جموعاً وأنهم قادمون إلى مصر فشرع على بك فى تشهيل تجريدة عظيمة، وبرزوا وسافروا.



▲ مسجد دمياط

ثم ورد الخبر بعد ثلاثة أيام أنهم عرّجوا إلى جهة دِمياط ونهبوا منها شيئاً كثيراً ثم حضروا إلى المنصورة ونهبوا منها كذلك، فأرسل على بك يأمر التجريدة بالذهاب إليهم، وأرسل لهم أيضاً عسكراً من البحر [النيل] فتلاقوا معهم عند الديرس والجراح(*) من أعمال المنصورة عند سمنود، فوقع بينهم وقعة عظيمة وانهزمت التجريدة وولوا راجعين، وقتل فى هذه المعركة سليمان جربجى باش اختيار جمليان وأحمد جربجى طنان جراكسه وعمر أغا جاووشان أمين الشون وكانوا صدور الوجاقات، ولم يزالوا فى هزيمتهم إلى دجوة.

فلما وصل الخبر بذلك إلى على بك اهتم لذلك ونزل الباشا وخرج إلى قبة باب النصر خارج القاهرة وجمع الوجاقلية والعلماء وأرباب السجاجيد وأمر الباشا بأن كل من كان وجاقلياً أو عليه عتامنة* يشهل نفسه ويطلع إلى التجريدة أو

* الجراح: من أعمال مركز أجا/ دقهلية.

* عليه عتامنه: أى متمتع بحق الحصول على قطعة نقدية محددة. وقد استخدم هذا المصطلح فى مصر كوحدة حسابية لبيان كمية (الجراية والعليق) التى كان يتلقاها

يُخرجُ عنه بدلا، واجتهد على بك فى تشهيل تجريدة عظيمة أخرى وكبيرها محمد بك أبو الذهب، وسافروا فى أوائل المحرم واجتمعوا بالتجريدة الأولى وسار الجميع خلف حسين بك وخليل بك ومن معهم وكانوا عدوا إلى بر الغربية بعد أن هزموا التجريدة، فلو قدر الله أنهم لما كسروا (ص٦٣٠) التجريدة ساقوا خلفهم كما فعل على بك وصالح بك لدخلوا إلى مصر من غير مانع، ولكن لم يرد الله تعالى لهم ذلك.

وانقضت هذه السنين وما وقع بها على سبيل الإجمال إذ التفصيل متعذر وجمع الشوارد فى الظلام متعسر، وذلك بحسب الإمكان وما وعاه الفكر والذهن خوّان.

ذكر من مات فى هذه الأعوام من أكابر العلماء وأعاظم الأمراء

[مات] الشيخ الإمام الفقيه المحدث الشريف السيد/ محمد بن محمد البليدى المالكى الأشعرى الأندلسى [المغربى]، حضر دروس الشيخ شمس الدين محمد بن قاسم البقرى المقرى الشافعى فى سنة عشر وماية وألف، ثم على أشياخ الوقت كالشيخ العزيزى والملوى والنفراوى، وتمهر ثم لازم الفقه والحديث بالمشهد الحسينى، فراج أمره واشتهر ذكره وعظمت حلقته وحسن اعتقاد الناس فيه وانكبوا على تقبيل يده وزيارته وخصوصاً تجار المغاربة لعلة الجنسية، فهادوه وواسوه واشتروا له بيتاً بالعطفة المعروفة بدرب الشيشينى، وقسطوا ثمنه على أنفسهم ودفعوه من مالهم، فلم يزل مقبلا على شأنه ملازماً على طريقته مواظباً على إملاء الحديث كصحيح البخارى ومسلم والموطأ والشفاء والشمائل، حتى توفى ليلة التاسع والعشرين من رمضان سنة ست وسبعين وماية وألف.

موظفى الديوان الحائزين لرتبة (بك) وما فوقها من الشون الأميرية لأنفسهم ورجالهم وحيواناتهم. وكانت مائة عثمانه تعتبر (وحدة) للحصول على طعام كاف للحاجة اليومية لرجل واحد وحصانه. والمصطلح هنا يقصد به أنه مع وصول أنباء هزيمة التجريدة الموجهة ضد حسين بك كشكش الزعج على بك والباشا الذى أمر بجمع القوات عند قبة النصر، وجمع أعضاء الاوجاقات العسكرية (الفرق العسكرية السبعة) والعلماء وأرباب السجاجيد (أى السادة البكرية والوفائية والعمرية والخضرية، وهم رؤساء الطرق الصوفية فى مصر)، وأمر الباشا بأن ينضم للقوات كل من كان من الأوجاقات أو كان يتقاضى راتبا نقديا أو عينيا من الخزينة (عليه عثامنه)، فإذا لم يستطع فعليه ان يقدم بديلاً عنه للاشتراك فى التجريدة.

٢٦٦ محمد بن محمد البليدى.
ت/ ١١٧٦هـ = ١٧٦٢م.

٢٦٧ محمد أبو هادى بنى وفا.
ت/ ١١٧٦ هـ = ١٧٦٢م.

[ومات] الأستاذ المعظم ذو المناقب العلية والسجايا المرضية بقية السلف السيد مجد الدين/ محمد أبو هادى بن وفا، ولد سنة إحدى وخمسين ومماية وألف، ومات والده وهو طفل فنشأ يتيما وخلف عمه فى المشيخة والتكلم، وأقبل على العلم والمطالعة والأذكار والأوراد، وولى نقابة الأشراف (ص٦٣١) بمصر فى هذه الأثناء فساس فيها أحسن سياسة، وجمع له بين طرفى الرياسة، وكان أبيض وسيما ذا مهابة لايهاب فى الله، أماراً بالمعروف فاعلاً للخير، توفى يوم الخميس خامس ربيع الأول سنة ست وسبعين وصلى عليه بالأزهر فى مشهد عظيم حضره الأكابر والأصاغر، وحمل على الأعناق ودفن بزاويتهم بالقرب من عمه رضى الله عنه وتخلف* بعده السيد شهاب الدين أحمد أبو الأمداد.

* تخلف: أى صار خليفة نقابة الاشراف الوفائية.

٢٦٨ محمد باشا راغب الصدر الأعظم.
ت/ ١١٧٦ هـ = ١٧٦٢م.

[ومات] أيضا فى هذا الشهر والسنة الصدر الأعظم المغفور له محمد باشا المعروف يراغب، وكان معدوداً من أفاضل العلماء وأكابر الحكماء جامعاً للرياستين، حاوياً للفضيلتين، وله تآليف وأبحاث فى المعقول والمنقول، والفروع والأصول، وهو الذى حضر إلى مصرْ والياً فى سنة تسع وخمسين ومماية وألف، ووقع له ما وقع مع الخشاب والدمايطة كما تقدم، ورجع إلى الديار الرومية وتولى الصدارة، ثم توفى الى رحمة الله تعالى فى رابع عشرين شهر رمضان سنة ست وسبعين ومماية وألف، وكان نقش خاتمه هذا البيت:

بمحمدٍ يرجو الأمان محمدٌ
مما يخاف وفى نوالك راغب



وألف رسالة فى العروض غريبة شرحها الشيخ أبو الحسن القلعى المغربى، وله ثلاثة دواوين تركى وفارسى وعربى، وكان له ذوق صحيح وفهم رجيح يكرم العلماء والوافدين ويباحث أهل العلم بمبتكراته، ومن كلامه فى مواجب* مصر:

مواجبٌ نزلت من بعد تطويل
كضرطة ربطت فى طرف مِنديل
أو صوت ضفدعة فى بركة الفيل

(ص٦٣٢) وله فى أحد مماليك أمراء مصر، وأجاد:

حكى ذا الرشا المملوكُ فى الحسن يوسفاً
وفيما أدعيه يشهد العين والقلبُ

* المواجب: ومفردها موجبة بضم الميم تعنى المصيبة والكارثة.

خــلا أن ذاك اغــتــاله الذئب فــرْيَةً
وهذا حــقــيــقــاً قــد تملكه كلب

وسفينة الراغب المشهورة وما جمع فيها من المسائل والأبحاث والإيرادات الغريبة كبحث الاسم والمسمى والمقولات العشرة والعقول العشرة والحضرات الخمس والمعاد الجسمانى وجابرقا وجابرصا وغير ذلك.

٢٦٩ على الهوارى مروض الخيل.
قتل/ ١١٧٦ هـ = ١٧٦٢م.

[ومات] الشيخ المجذوب/ علىَ الهوارى، كان من أرباب الأحوال الصادقين، والأولياء المستغرقين، وأصله من الصعيد وكان يركب الخيول ويروضها ويجيد ركوبها ولذلك لقب بالهوارى، ثم أقلع من ذلك وانجذب مرة واحدة، وكان للناس فيه اعتقاد حسن، وحكى عنه الكشفَ غيرُ واحد، ويدور فى الأسواق والناس يتبركون به، مات شهيداً بالرميلة، أصابته رصاصة من يد رومى فلتة فى سنة ست وسبعين وماية وألف، وصلوا عليه بالأزهر وازدحم الناس على جنازته رحمه الله.

٢٧٠ عمر بن أحمد بن عقيل السقاف.
ت/ ١١٧٤ هـ = ١٧٦٠م

[ومات] الشيخ المسند/ عمر بن أحمد بن عقيل الحسينى المكى الشافعى الشهير بالسقاف ابن أخت حافظ الحجاز عبد الله بن سالم البصرى، والسقاف لقب جده الأكبر عبد الرحمن من آل باعلوى، ولد بمكة سنة اثنتين وماية وألف، وروى عن خاله المذكور وعن الشيخين العجمى والنخلى والشيخ تاج الدين المفتى وحسين ابن عبد الرحمن الخطيب ومحمد عقيلة وإدريس بن أحمد اليمانى والشيخ عيد وعبد الوهاب الطنتدائى (ص٦٣٣) ومصطفى بن فتح الله الحنفى، وسمع الأولية عالياً عن الشهاب أحمد البناء بعناية

خاله سنة عشر وماية وألف، ومهر وأنجب واشتهر صيته وسمع منه كبار الشيوخ وأجازهم كالشيخ الوالد والشيخ أحمد الجوهرى، وعندى إجازته للوالد بخطه، وكذلك أجاز عبد الله بن سالم البصرى والشيخ محمد عقيلة ومحمد عقيلة ومحمد حياة السندى وذلك بمكة سنة ثلاث وخمسين، وبه تخرج شيخنا السيد محمد مرتضى فى غالب مروياته، وسمعت منه أنه اجتمع به بالمدينة المنورة عند باب الرحمة أحد أبواب الحرم الشريف، وسمع منه وأجازه إجازة عامة، وذلك فى سنة ثلاث وستين وماية وألف، ولازمه بمكة سنة أربع وستين وماية وألف، وسمع منه أوائل الكتب الستة وأباح له كتب خاله يراجع فيها ما يحتاج إليه، وسمع من لفظه المسلسل بالعيد بالحرم المكى فى صحبة سلالة الصالحين الشيخ عبد الرحمن المشرع وأجازهما، توفى فى سنة أربع وسبعين وماية وألف.

٢٧١ محمد العدوى.
ت/ ١١٧٥ هـ = ١٧٦٣م.

[ومات] العمدة العلامة المفوه النبيه الفقيه الشيخ/ محمد العدوى الحنفى، تفقه على كل من الإسقاطى والسيد على الضرير والشيخ الزيادى وغيرهم، وحضر فى المعقول على أشياخ الوقت كالملوى والعماوى وتصدر للإفادة والإقراء، وكان ذا شكيمة وشجاعة نفس وقوة جنان ومكارم أخلاق، توفى فى ثالث الحجة سنة خمس وسبعين وماية وألف.

٢٧٢ محمدبن عبد الوهاب الدلجى.
ت/ ١١٧٧ هـ = ١٧٦٣م.
وهو ابن خال والد الجبرتى.

[ومات] الإمام العلامة الفقيه المتقن الشيخ/ محمد بن عبد الوهاب الدلجى الحنفى، وهو ابن خال الوالد، اشتغل بالعلوم والفقه على أشياخ الوقت ودرّس وأفتى واقتنى كتباً نفيسة فى الفقه وجميعها بخط حسن، وقابلها وصححها وكتب

عليها بخطه الحسن، وكانت جميع كتبه الفقهية وغيرها فى غاية (ص٦٣٤) الجودة والصحة ويضرب بها المثل ويعتمد عليها إلى الآن، وكان ملازماً للإفادة والإفتاء والتدريس والنفع على حالة حسنة ودماثة أخلاق وحسن عشرة، ولم يزل حتى توفى فى شهر رجب سنة سبع وسبعين وماية وألف.

٢٧٣ حسن بن سلامة الطيبى.
ت/ ١١٧٦ هـ = ١٧٦٢م.

[ومات] الفقيه الصالح الخيّر الديّن/ حسن بن سلامة الطيبى المالكى نزيل ثغر رشيد، تفقه على شيخه محمد بن عبد الله الزهيرى وبه تخرج، وأجازه محمد ابن عثمان الصافى البرلسى فى طريقة البراهمة[٩] ، وسيدى أحمد بن قاسم البونى حين ورد ثغر رشيد فى الحديث، ودرّس بجامع زغلول وأفتى، ودرسه أكبر الدروس، وكان لديه فوايد كثيرة، توفى سنة ست وسبعين وماية وألف.

٢٧٤ حسن بن على بن دياب.
ت/ ١١٧٦ هـ = ١٧٦٢م.

[ومات] المفتى الفاضل النبيه زين الدين أبو المعالى/ حسن بن على بن على بن منصور ابن عامر بن ذياب شمه الفوى الأصل المكى، ينتهى نسبه إلى الولى الكامل سيدى محمد بن زين النحراوى، ومن أمه إلى سيدى إبراهيم البسيونى، ولد بمكة سنة اثنتين وأربعين وماية وألف، وبها نشأ وأخذ العلم عن الشيخ عطا بن أحمد المصرى والشيخ أحمد الأشبولى وغيرهما من الواردين بالحرمين، وأتى إلى مصر فحضر دروس الشيخ الحفنى وله انتسب، وأجازه فى الطريقة البرهامية بلدّية الشيخ منصور هدية، وألف وأجاد وكان فصيحاً بليغاً ذكياً حاد الذهن جيد القريحة له سعة اطلاع فى العلوم الغريبة، ونظم رائق مع سرعة الارتجال، وقد جمع كلامه فى ديوان، هو على فضله عنوان، ومن مؤلفاته شرح

صيغة القطب سيدى إبراهيم الدسوقى، جمع فيه شيئاً كثيراً من الفوائد (ص٦٣٥) ، وارتحل إلى الروم ثم عاد إلى مصر وألف كتاباً فى مناقب أستاذه الحفنى، وله حاشية على شرح شيخ الإسلام على البردة، وحاشية على شرحه على الجزرية، ورسالة فى خصوص رواية السوسى عن يحيى اليزيدى عن أبى عمرو ثم نظمها وكتبها، وكتاب الحقايق والإشارات إلى ترقى المقامات، والحلل السندسية على أسرار الدائرة الشاذلية وكشف الرموز الخفية بشرح الهمزية، ووسع الاطلاع على مختصر أبى شجاع، وهو كتاب حافل يبلغ أربع مجلدات، ومسرة العينين بشرح حزب أبى العينين، وقصة المولد النبوى، ونظم الأزهرية فى النحو، وعمل منظومة فى تاريخ مصر سماها بالحجج القاهرة، وغير ذلك رسايل ومنظومات كثيرة ومناسك الحج كبيرة، وسكن فى الآخر بولاق وبها توفى ليلة الجمعة رابع عشرين رمضان سنة ست وسبعين وماية وألف.

٢٧٥ خليل بن محمد المغربى.
ت/ ١١٧٧ هـ = ١٧٦٣م.
* تدير مصر: أى اتخذ مصر داراً له.

[ومات] الشيخ الإمام الفقيه المحقق الشيخ/ خليل بن محمد المغربى الأصل المالكى المصرى، أتى والده من المغرب فتديّر* مصر وولد المترجم بها، نشأ على عفة وصلاح وأقبل على تحصيل المعارف والعلوم، فأدرك منها المروم، وحضر دروس الشيخ الملوى والسيد البليدى وغيرهما من فضلاء الوقت إلى أن استكمل هلال معارفه وابدر* وفاق أقرانه فى التحقيقات واشتهر، وكان حسن الإلقاء للعلوم حسن التقرير والتحرير حاد القريحة جيد الذهن إماماً فى المعقولات وحلالا للمشكلات، وولى خزانة كتب المؤيد مدة فأصلح ما فسد منها ورم ما تشعث، وانتفع به جماعة كثيرون من أهل عصرنا، وله مؤلفات منها شرح (ص٦٣٦) المقولات العشر

* ابدر أى صار بدراً.

مفيد جداً، توفى يوم الخميس خامس عشرين المحرم سنة سبع وسبعين وماية وألف بالرّى وهو منصرف من الحج.

٢٧٦ عمر بن على الفتوشي (ابن الوكيل).
ت/ ١١٧٥ هـ = ١٧٦١م.

[ومات] السيد الأديب الشاعر المفنن/ عمر بن على الفتوشى التونسى ويعرف بابن الوكيل، ورد مصر فى سنة أربع وخمسين فسمع الصحيح على الشيخ الحفنى وأجازه فى ثانى المحرم منها، ثم توجه إلى الإسكندرية وتديرها مدة، ثم ورد فى أثناء أربع وسبعين، وكان يُنشد كثيراً من المقاطيع لنفسه ولغيره، وألف رسالة فى الصلاة على النبى صلى الله عليه وسلم، مزج صيغها بالوِرد* الأعلى للشيخ الأكبر، وتولى نيابة القضاء بالكاملية، وكان إنساناً حسناً لطيف المحاورة كثير التودد والمراعاة، بشوش الملتقى مقبلا على شأنه، توفى فى ثانى ذى الحجة سنة خمس وسبعين وماية وألف.

* الورد: أدعية دينية يواظب الصالحون على تلاوتها.

٢٧٧ محفوظ الفوى.
ت/ ١١٧٨ هـ = ١٧٦٤م.

[ومات] الأستاذ الذاكر الشيخ/ محفوظ الفوى تلميذ سيدى محمد بن يوسف عن ورم فى رجليه فى غرة جمادى الثانية سنة ثمان وسبعين وماية وألف، ودفن يومه قريباً من مشهد السيدة نفيسة رضى الله عنها.

٢٧٨ محمد بن يوسف الدنجيهى.
ت/ ١١٧٨ هـ = ١٧٦٤م.

[ومات] العالم الفقيه المحدث الأصولى الشيخ/ محمد بن يوسف بن عيسى الدنجيهى الشافعى بدمياط فى سادس شعبان سنة ثمان وسبعين وماية وألف.

٢٧٩ عبد الرحمن أغا.
ت/ ١١٧٩ هـ = ١٧٦٣م.

[ومات] الجناب المكرم الصالح المنفصل عن مشيخة الحرم النبوى/ عبد الرحمن أغا فى ثامن شوال سنة تسع وسبعين وماية وألف، ودفن بجوار المشهد النفيسى.

٢٨٠ إبراهيم اوده باشه
ت/ ١١٧٧ هـ = ١٧٦٣م.

[ومات] الجناب المكرم محب الفقراء والمساكين الأمير إبراهيم أوده باشه غانم (ص٦٣٧) فجأةً فى ثامن جمادى الأولى سنة سبع وسبعين وماية وألف، ودفن بمقبرتهم عند السادة المالكية.

٢٨١ عبد الفتاح المرحومى.
ت/ ١١٧٨ هـ = ١٧٦٤م.

[ومات] أيضا العمدة الشيخ/ عبد الفتاح المرحومى بالأزبكية فى تاسع شوال سنة ثمان وسبعين وماية وألف.

٣٨٢ حسن النابلسى.
ت/ ١١٧٨ هـ = ١٧٦٤م.

[ومات] الأجل المكرم الحاج/ حسن فخر الدين النابلسى عن سن عالية، وكان من أرباب الأموال رابع عشرين جمادى الأولى سنة ثمان وسبعين وماية وألف.

٢٨٣ على بن عبد الله.
ت/ ١١٧٦ هـ = ١٧٦٢م.

[ومات] الأمير الأجل المحترم صاحب الخيرات والمحبب إلى الصالحات/ على بن عبد الله مولى بشير أغا دار السعادة، ولى وكالة دار السعادة فباشر فيها بحشمة وافرة وشهامة باهرة، وفيه يقول الشيخ عبد الله الإدكاوى(١٠) .

أقبل الحظ والهناءُ السنىٌّ
ولنا أحسن الزمان المسىٌّ
وأتت دولة السرور فأهلاً
بكِ من دولة حباها العلىٌّ
لعلىّ المقام والفعلَ والاسم ومن جل فكره الألمعىٌّ
والهمام الغمامُ بأساً وجوداً
والذى شاع ذكره المرضىٌّ
فابشر ابشر بدولة لك فيها
ما به يا رئيس يهنى الولىٌّ
بحلاها حلاك سلطاننا الأعظم عثمانُ الأمجدُ الأفضلى



دمتَ فيها مهنّأ البال مأمو
نَا لك الله حافظ والنبىُّ
لك تاريخها حلا يا همام
أنت نعم الوكيل فاسعد علىّ

وكان منزله مورد الوافدين من الآفاق، مظهر التجليات (ص٦٣٨) الأشراق، مع ميله إلى الفنون الغربية، وكماله فى البدايع العجيبة، من حسن الخط وجودة الرمى وإتقان الفروسية، ومدحته الشعراء وأحبته العلماء، وألقت إليه الرياسة قيادها، فأصلح ما وهن من أركانها وأزال فسادها، ولقد عزل عن منصبه ولم يأفُل بدر كماله، واستمر ناموس حشمته باقيا على حاله، واقتنى كتباً نفيسة وكان سموحا بإعارتها، وكان عنده من جملتها البرهان القاطع للتبريزى



فى اللغة الفارسية على هيئة القاموس، وسفينة الراغب وهى مجموعة جامعة للفوايد الغريبة، ومنها كشف الظنون فى أسماء الكتب والفنون لمصطفى خليفة وهو كتاب عجيب، توفى يوم الاثنين ثامن عشر شهر صفر سنة ستة وسبعين وماية وألف، وصلى عليه بسبيل المؤمنين ودفن بالقرافة بالقرب من الإمام الشافعى، ولم يخلف بعده مثله فى المروءة والكرم رحمه الله تعالى، وقد رثاه الشعراء بمراثٍ كثيرة.

٢٨٤ يوسف الحفنى.
ت/ ١١٧٨ هـ = ١٧٦٤م.

[ومات] الإمام العلامة والمدقق الفهامة الشيخ يوسف شقيق الأستاذ شمس الدين الحفنى، أخذ العلم عن مشايخ عصره مشاركاً لأخيه، وتلقى عن أخيه ولازمه ودرّس وأفاد وأفتى وألف ونظم الشعر الفايق الرايق، وله ديوان شعر مشهور، وكتب حاشية عظيمة على الأشمونى وهى مشهورة يتنافس

فيها الفضلاء، وحاشية على مختصر السعد وعلى شرح الخزرجية لشيخ الإسلام، وحاشية على جمع الجوامع لم تكمل، وحاشية على الناصر وابن قاسم، وشرح شرح الأزهرية لمؤلفها، وشرح على شرح السعد لعقايد النسفى، وحاشية الخيالى عليه وعلى مُلاً حنفى فى آداب البحث وغير ذلك، وله مقامتان وقصايد طنانة مذكورة فى المدايح الرضوانية وغيرها، توفى فى شهر صفر سنة ثمان وسبعين وماية وألف.

٢٨٥ على بن ابن الخير المرحومى.
ت/١١٧٨ هـ = ١٧٦٤م.

[ومات] الإمام الفصيح المفرد الأديب الماهر الناظم الناثر الشيخ على بن أبى الخير بن على المرحومى الشافعى خطيب جامع الحبشلى(١١) ، ومن آثاره تشطير الأبيات الثلاثة للشيخ على جبريل فى مدح الأمير رضوان كتخدا الجلفى وهى:

(وأبيك ما رضوان إلا آية)
مَنْ أُمَّه نال المنى فى الحالِ
ملك الأنام بعزه وبجوده
(شهدت بذاك شهامة الأفعال)
(يهب المواهب جمة بسماحة)
من غير تعريض له بسؤال
وتراه يغنى بالعطاء مؤملا
(مترافعاً عن مِنّة ومِلالِ)
(حتى يصير المعدَمون برفده)
يسعى لثروتهم مريدُ نوال
ويراهم زادوا افتخاراً إذ غدوا
(مترفعين على ذوى الأموال)

وهو ممن كتب على بديعية على بن تاج القلعى، ومن كلامه يخاطب به الشيخ العيدروس.

مـــا يقـــول البليغ إن رام مـــدحـــاً
في زكى مـــقـــدس عـــيـــدروسى
نسل طه ونجل بنت عـــتـــيق
فـــهـــو والله تاج رأس الرؤوس

(ص٦٤٠) توفى ليلة الجمعة سادس ذى القعدة سنة ثمان وسبعين وماية وألف.

٢٨٦ ابراهيم بن محمد الحسينى.
ت/ ١١٧٩ هـ = ١٧٦٥م.

[ومات] الإمام العلامة السيد/ إبراهيم بن محمد أبى السعود بن على بن على الحسينى الحنفى، ولد بمصر وقرأ الكثير على والده وبه تخرج فى الفنون ومهر فى الفقه وأنجب، وغاص فى معرفة فروع المذهب، وكانت فتاويه فى حياة والده مسددةً معروفة، ويده الطولى فى حل الإشكالات العقيمة مذكورةً موصوفه، رحل فى صحبة والده إلى المنصورة فمدحهما القاضى عبد الله بن مرعى المكى، وأثنى عليهما بما هو مثبت فى ترجمته، ولو عاش المترجم لتم به جمال المذهب. توفى يوم الأحد سابع عشر جمادى الآخرة سنة تسع وسبعين وماية وألف.

٢٨٧ محمد بن عيسى الدمياطى.
ت/ ١١٧٨ هـ = ١٧٦٤م.
* المسلك: من شيوخ الطرق الصوفية هو الذى يسلك المريدين ويجيزهم فى طريقته.

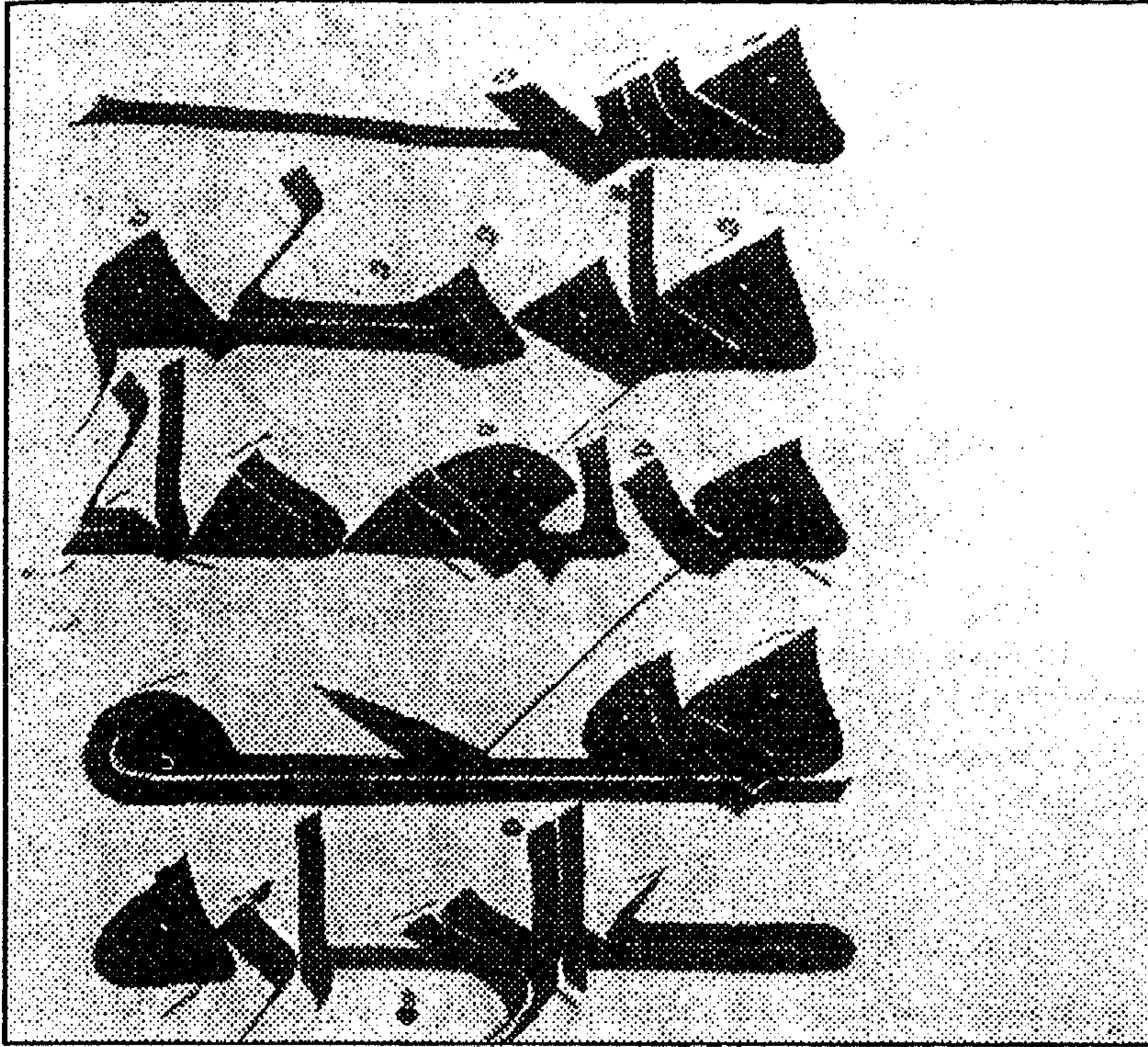
[ومات] الفقيه الزاهد الورع العالم المسلك* الشيخ/ محمد بن عيسى بن يوسف الدمياطى الشافعى، أخذ المعقول عن السيد على الضرير والشيخ العزيزى والشيخ إبراهيم الفيومى، والفقه أيضاً عنهما وعن الشيخ العياشى والشيخ الملوى والحفنى وطبقتهم، واجتمع بالسيد مصطفى البكرى

وأخذ عنه طريقة الخلوتية ولقنه الأسماء بشروطها، وألف حاشية على المنهج ونسبها لشيخه السيد مصطفى العزيزى، وله حاشية على الأخضرى فى المنطق وحاشيةٌ على السنوسية وغير ذلك. توفى فى ثامن رمضان سنة ثمان وسبعين ومائة وألف، وكانت جنازته حافلة وصُلى عليه بالأزهر ودفن ببستان المجاورين وبنوا على قبره سقيفة يجتمع تحتها تلامذته فى صبح يوم الجمعة يقرءون عنده القرآن ويذكرون واستمروا على ذلك مدة سنين.

٢٨٨ أحمد بن محمد السحيمى. ت/ ١١٧٨ هـ = ١٧٦٤م.

[ومات] الإمام العلامة الناسك الشيخ/ أحمد بن محمد السحيمى الشافعى نزيل قلعة الجبل، حضر (ص٦٤١) دروس الأشياخ ولازم الشيخ عيسى البراوى وبه انتفع، وتصدر للتدريس بجامع سيدى ساريه* وأحيا الله به تلك البقعة وانتفع به الناس جيلا بعد جيل وعمر بالقرب من منزله زاوية وحفر ساقية بذل عليها بعضُ الأمراء بإشارته مالا حفيلا فنبع الماء وعُدَّ ذلك من كراماته، فإنهم كانوا قبل ذلك يتعبون من قلة الماء كثيراً، وشغَل الناس بالذكر والعلم والمراقبة، وصنّف التصانيف المفيدة فى علم التوحيد والفقه مقبولة بين أيدى الناس، منها حاشية على الشيخ عبد السلام على الجوهرة وجعله متنا وشرحه مزجا وهى غاية فى بابها، وله حال مع الله وتؤثر عنه كرامات اعتنى بعض أصحابه بجمعها، واشتهر بينهم أنه كان يعرف الاسم الأعظم، وبالجملة فلم يكن فى عصره من يدانيه فى الصلاح والخير وحسن السلوك على قدم السلف، توفى فى ثامن شعبان سنة ثمان وسبعين ومائة وألف ودفن بباب الوزير.

* جامع سيدى ساريه: هو جامع بقلعة الجبل.



٢٨٩ محمد بن أحمد ابن صالح ابن السعود الجارحي.
ت/ ١١٧٩ هـ = ١٧٦٥م.

[ومات] الإمام العلامة شمس الدين أبو عبد الله/ محمد بن أحمد بن صالح بن أحمد بن على بن الأستاذ أبى السعود الجارحى الشافعى، ويقال له السعودى نسبة إلى جده المذكور، حضر دروس الشيخ مصطفى العزيزى وغيره من فضلاء الوقت. وكان إماماً محققاً له باع فى العلوم، وكان مسكنه فى باب الحديد أحد أبواب مصر، وحضر السيد البليدى فى تفسير البيضاوى، وكان الشيخ يعتمده فى أكثر ما يقول ويعترف بفضله ويحسن الثناء عليه، توفى فى شعبان سنة تسع وسبعين وماية وألف.

٢٩٠ محمد بن حسين الحسينى العادلى الدمرداشى.
ت/ ١١٧٨ هـ = ١٧٦٤م.

[ومات] السيد الأجل المحترم فخر أعيان الأشراف (ص٦٤٢) المعتبرين السيد/ محمد بن حسين الحسينى العادلى الدمرداشى، ولد بمصر قبل القرن بقليل وأدرك

الشيوخ وتمول وأثرى وصار له صيت وجاه، وكان بيته بالأزبكية ويَرِدُ عليه العلماء والفضلاء، وكان وحيداً فى شأنه وكلمته مقبولة عند الأمراء والأكابر، ولما تولى الشيخ أبو هادى الوفائى رحمه الله تعالى كان يتردد إلى مجلسه كثيرا. توفى سنة ثمان وسبعين وماية ألف.

٢٩١ سليمان بن عبد الله الخطاط. ت/١١٧٩ هـ = ١٧٦٥م.

[ومات] الشيخ الفاضل الناسك الكاتب الماهر البليغ/ سليمان بن عبد الله الرومى الأصل المصرى، مولى المرحوم على بك الدمياطى، جود الخط عَلى حسن أفندى الضيائى وأنجب وتميز فيه وأجيز، وكتب بخطه الفايق كثيرا من الرسايل والأحزاب والأوراد، وكانت له خلوة بالمدرسة السليمانية* لاجتماع الأحباب، وكان حسن المذاكرة لطيف الشمايل حلو المفاكهة يحفظ كثيرا من الأناشيد والمناسبات، توفى سنة تسع وسبعين وماية وألف.

* مدرسة السليمانية: بشارع السروجية عن شمال الذاهب إلى الصليبة عمرها الأمير سليمان باشا فى سنة ٩٢٠ هـ ثم صارت تكية فيما بعد.

٢٩٢ محمد بن رضوان السيوطى الشهير بابن الصلاحى. ت/ ١١٨٠ هـ= ١٧٦٦م.

[ومات] السيد العالم الأديب الماهر الناظم الناثر/ محمد بن رضوان السيوطى الشهير بابن الصلاحى، ولد بأسيوط على رأس الأربعين ونشأ هناك وأمه شريفة من بيت شهير هناك، ولما ترعرع ورد مصر وحصّل العلوم وحضر دروس الشيخ محمد الحفنى ولازمه وانتسب إليه فلاحظته أنواره ولبسته أسراره، ومال إلى فن الأدب فأخذ منه بالحظ الأوفر، وخطه فى غاية الجودة والصحة، وكتب نسخة من القاموس وهى فى غاية الحسن والإتقان والضبط، وله شعر عذب يغوص فيه على غرايب المعانى، وربما يبتكر (ص٦٤٣) ما لم يُسبق إليه، وقد أجازه* الشيخ الحفنى بما نصه: «نحمدك يا عليم يا فتاح، يا ذا المن بالعلم والصلاح، ونصلى ونسلم

* نص اجازة الشيخ الحفنى للمترجم.

على أقوى سند، وعلى آله وصحبه معادن الفضل والمدد، أما بعد فإن المولى العلامة الرحلة الفهامة الحاذق الأديب، واللوذعى الأريب، مولانا الشيخ محمد الصلاحى السيوطى قد حاز من التحلى بقرايد المسايل العلية أوفر نصيب، بفهم ثاقب وإدراك مصيب، فكان أهلا للانتظام فى سلك الأعلام، باجازته كما هو سنن أئمة الإسلام، فأجزته بما تضمنته هذه الوريقات من العلوم العقلية والنقلية المتلقاة عن الأثبات، وبساير ما تجوز لى روايته، أو تثبت لدىّ درايته، موصياً له بتقوى الله التى هى أقوى سبيل النجاة، وألا ينسانى من صالح دعواته، فى أويقات توجهاته، نفعه الله ونفع به، ونظمه فى عقد أهل قربه، وأفضل الصلاة والسلام، على أكمل رسل السلام، وعلى آله أئمة الهدى، وصحبه نجوم الاقتدا». كتبه محمد بن سالم الحفناوى الشافعى ثامن جمادى الثانية سنة ثمان وسبعين وماية وألف. وللمترجم مقامة بديعة متضمنة مدحَ رسول الله صلى الله عليه وسلم، وذيَّلها بقصيدة سماها الدرة البحرية، والقلادة النحرية، وهى طويلة تزيد على الثمانين بيتا ومن غرر أشعاره قوله:

هات لى قهوة الشفا من شفاهك
واسقنيها على فخامة جاهك
(ص٦٤٤) عاطنيها يا أوحد العصر لطفا
وبديع المثال فى أشباهك
يا غزالاً لو صُوّر البدرُ شخصاً
ليضاهيك فى البها لم يضاهِكْ
عاطنيها ولم تدع لم حَراكا
لست أقوى على كمال انتباهك
هاتها والرِخاخ* فى غفلاتٍ
لا تدعهم فيفتكموا فى شياهك

* الرخاخ: بكسر الراء جمع رُخ بضم الراء وهو طائر كبير خرافى.

وقد شطرها الشيخ قاسم الأديب بما هو في ترجمته.

وله أيضاً:

حث نجب الكئوس قبل الصباح
واسقني من يديك صِرف الراح
واحدُ لي حادي المطيّ إليها
في غدو مبادراً أو رواح
لا تدعني بدون شربي فهمّيَ
منك في الاغتباق والإصطباح
خمرة تجعل الخلي شجيّاً
فهي مثل الغذاء للأرواح
عاطنيها من بين آس وبان
وشقيق ونرجس وأقاح*
عاطنيها من بين إخوان صدق
قد تواصوا على التقى والصلاح
عاطنيها من كف بدر يطيع الكاس (ص٦٤٥)
في أمرها أو يعصى اللواحي
ذي طباع كريمة بين أعطا
ف بما تشتهي النفوس شحاح
كلما اهتزت الشَمول بعطفيه
أغار الهوى على الأرواح
صاح خل الصُحاة حقا وصح لي
لحمى الدّنّ إنني غير صاح
وادعني دعوة المشوق فإني
قد دعاني من قبل داعي الفلاح
قد دعاني لمولد السيد الكا
مل غوث الورى أبي الأفراح

* أقاح: بفتح الهمزة جمع مفرده أقحوان بضم الهمزة وهو نبات طبي سمى البابونج بفتح النون.

قـد دعـانى لموسم الجـود والفـضل
وعـرس الندى وعـيـد السـمـاح
مـولد السـيـد الذى تنهض الناس
إليـه بل للمنى والنجـاح
عـين آل النبى كنـز الأمـانىّ
وأنـدى الأنـام أبُـطـنَ راح
قـد دعـانى فـقلت أهلا ولو أسـعى
على العين أو مـتـون الرمـاح
مـا دعـانى إلا وكلى مـجـيـب
لدعـاه على اخـتـلاف رياح
قلت لكن عليـه عـادة بر
لـيس لى إن تـأخـرت من بـراح
يقـتـضى الشـوق أن أطيـر إليـه
وبـسـوء الأحـوال قص جناحى
(ص٦٤٦) لا قلوص تقل رجلى وأفـرا
س اشتـياقى قـد أصبحت فى جِماحَ
قـال فـاقـصـد حـمى خليـفتـه الحفنىّ
وانـزل بـه بـغـيـر جنـاح
قلت أنصـفـتنى وهل لى فى غـيـر
حـمـاه من راحـة واطراح
من حـمى يسـهل العـسـيـر لديه
ومـقـام سـهل النوال مـبـاح
كـم أيادٍ من جـوده وصلـتنى
جـوهريات فـائقـاتٍ صـحـاح
مـا قـصـدت الحـمى وأشـفـقت أنى
خـارج بالسـؤال للإلحـاح

فعطاياه كالكئوس فلا يحتاج
في نيلها إلى الإفصاح
أرتجى أنه إذا قصد السير
لذاك الحَمى وتلك النواحى
ولديه أتباعه الكل أن يذ
كر فيهم محمد بن الصلاحى
سيدى هذه العلاقة فاعذر
نهب شوق أحشاؤه في جراح
أنت حكمّت في كاسك فاحكم
بتغاض عن سوء فرط اقتراحى
دمتَ في نعمة الرضا ماتوالت
مدةَ الدهر بالمَسا والصباح

(ص٦٤٧) قلت: ومطلع هذه القصيدة مأخوذ من مطلع قصيدة خمرية للشريف أحمد بن مسعود الحسنى أحد أشراف مكة وهى:

«حث قبل الصباح نجب الكئوس» إلا أنه قدم وأخر.

ومن غرر قصايده قوله:

نقلوا أكاذيب السلو لهاجرى
سفهاً وما خطر السلو بخاطرى
يا ليتهم علموا بأسرارى التى
أودعتها يوم النوى بسرايرى
لله وقفتنا بجرعاء الحمى
والنجم مرصود لسهد الساهر
نملى أحاديث الغرام فنجتلى
منها سرور مسامع وخواطر

وندير كـــاســـاتِ الوداع مـــديدة
في شـق أطـواق وشـق مـــــرائر
وســوابقُ العــبـرات من دمـعى ومن
شــعـرى كـعــقــد لآلىء وجــواهر
أدعـــو ســـراة الظاعنين كـــأنما
أرجـــو الوصـــال من الغـــزال النافـــر
مـن كل بدر دجى وغـــصن أراكـــة
في عـــز آســـاد وذل جـــآذر
يعطى طلا ألفـــاظه ولحـــاظه
في كـاس مـخـمـور وكـاس مـسـامـر
لـلـه أيـام سـلـفـن بـوصـلـه
والدهر ممتـــثل لأمـــر الآمـــر
إن فاتنى طيب الزمان به فلى (ص٦٤٨)
عـوضٌ بطيب حـديث عـبـد القـادر
مـولى نراه نتـقـيـه مـهـابة
من حـــسن آثار وطيب مـــآثر
يرضـيك من أخـلاقـه وخـلاقـه
بـرياض آداب وكنز مـفـاخـر
وفـضـايل زينت بحـسن فـواضل
ومـحـاسن راقت لعين الناظر
ألله أكـبـر إن اية فـخـره
كـبـرى وراثة كـابر عن كـابر
مـولاى لم أخطر مـديحك خـاطراً
إلا لأنـك ثـابت فـي الخـاطـر
فـاقـبل هُديتَ هدية من شـاعـر
إنّ اقـتـراح الشـعـر منعُ الشـاعـر

ما قصر العبد الصلاحي وزنها
إلا لفهم عن جنابك قاصر

وله أيضاً:

اسقنا من يديك قهوة بن
وأدرها ممزوجة برُضابك
لاتحكم سوى كئوسك فينا
أنت كفء ونحن من خطابك

وله أيضاً:

اتخذ ساقياً وإن تعدم الرا
ح فمن ريقه الشهيِّ أدرها
وإذا لم تجد لساق سبيلا
فاطّرحها هملا لا تعتصرها

(ص٦٤٩) وله أيضاً:

بالأشرفية شادّن
ظبي الكناس له الفدى
يهدى السراة جبينه
فجبينه صبح الهدى
في عِطفه هيف الصبا
وبلحظه سبل الردى
لولا الحياء وما أرا
قب من مراقبة العدا
لتساقطت بخدوده
قُبَلى مساقطة الندى

وله أيضاً:

جـاء داعى الحـبـيب يدعـو لوصلى
في مـحل شـدت على الماء ورُقْـه
فـتـعـثـرتُ من سـرورى ومـا وا
فـيت حـتى مـضى وأومض برقـه

وله أيضاً:

ربيع هذا الروض قـد شـاقنا
بمـنـظـر زاه وعَـرْف نـدى
لما كـسـتـه الشـمس حـاكى لنا
زمـرذاً* مـوّه بالعـسـجـد*

* زمرذاً: بالذال لغة في الزمرد بالدال، وهو حجر كريم شديد الخضرة، وأشده خضرة أجوده وأصفاه جوهراً، واحدته زمردة.
* العسجد: هو الذهب.

وله يخاطب بعض إخوانه:

مـا غـاض هذا الروضُ من مـائه
وصـار للأنداء مـسـتـمطرا
إلا وقـد أنبت إحـسـانُكم
فـيـه ربيـعـا بالندى مـثـمـرا

وله أيضاً:

أفـدى بروحى ذلك الغـالى الذى
وافى فـأحـيـا رسم جـسـمى البـالى
عـانقـتـه فـشـممتُ غـالية الشـذا*
(ص٦٥٠) منه فـيـا لله شمَ الغـالى

* غالية الشذا: الغالية نوع من الطيب مركب من مسك وعنبر وعود ودهن، والشذا قوة ذكاء الرائحة، والمعنى المقصود بهما (الطيب الشديد الرائحة).

وله أيضاً:

سـرينا وأعطاف النسـيم تهـزنا
تدير من الصـهـبا حـديثَ شجـون

فــخــفنا عــيــون الحــاســدين لأننا
ســرينا من الأزهار فــوق عــيــون

ووجدت بخطه ما نصه وقلت اختراعاً لهذا المعنى ولا أعلم أنى سُبقت إليه:

جــزى الله أنفــاس النســيم فــإنهــا
لتــعلم ســراً فى النفــوس لطيــفــا
أســرت إلى الأغــصــان عند قــدومنا
حــديثــاً فــمــدت للســلام كــفــوفــا
وهزت ســروراً بالتــدانى مــعــاطفــاً
وأهدت لنا منهــا شــذاً وقطوفــا

وله أيضاً فى الاكتفاء وقد أحسن:

بالله ســلا عن حــال قلبى وســلا
إن كــان صــبــا إلى ســواكم وســلا
والبــعــد كــوى الحــشــا بنار وســلا
يا نار كــونى اليــوم برداً وســلا*

* وسلا: أى وسلاما.

وله أيضاً:

الليل إمــا يطلع ليل صــبــحــا
والصــبح إمــا يطلب صــبح صلحــا
إن كــان مع الصــبــاح يأتى فــرج
يا عين تســهــدى وبيــتى فــرحــا

(ص٦٥١) وله أيضاً:

ألقــاك وفى حــشــاشــتى الأشــواق
بدراً شــخــصتْ لحــسنه الأحــداق

لا يسعدني إليك إلا كتبي
يا غصن أما تروقك الأوراق؟

وله أيضاً:

خدى خيول أدمعى ميدان
والشوق رجال عزمه فرسان
يا من وقدت لحربهم نيران
مهلا فلكم بفكرتى ديوان

وكتب إلى بعض الإخوان وقد أهدى إليه منديلا:

يا كاملا أحيت مكارمُه الندى
فغدا لأمراض القلوب طبيبا
وردتْ هديتُك التى كانت لنا
كقميص يوسفَ إذ أتى يعقوبا
منديل سرك حين جاء مبشراً
بالود سرّ خواطراً وقلوبا
كانت دموعى للنوى مسفوحة
فحفظت فيه مدمعاً مسكوبا
أودعته دراً وعنه مسامعى
منكم وصون الدر ليس عجيبا
لكن تعلمتُ الندى فوهبتُ بعض
أحبتى مما وهبتَ نصيبا
لازال ربعك بالمكارم آهلا
وربيعُ كفك بالنوال خصيبا

وله أيضاً: (ص٦٥٢)

رب شـــخص يظن فـــينا قـــبـــيـــحـــاً
لو تـروّى رأى القـــبــيــحَ شِـــعــــارَه
قـــيل لى مـــاله ســوى الرجم بالغـــيب
ســـبـــيلٌ فـــقـلتُ بلْ بالحـــجـــاره

وله أيضاً:

لقـد حـركت نفـسى إلى ذلك الحـمى
مـــنــازلُ تمــت لــى بـهـــن مـــنـــارُه
أنفـسىَ مـهــلا ليس بالسـعى يبـتـغى
مـكــارمُ أخــــــــلاقٍ بـهـن مـكــارهُ

وله مطرزاً باسم أحمد:

أمـــانـاً قـــد أضـــرَّ بنا الجـــفـــاءُ
فـــقـــد فـــعلت لحـــاظك مـــا تشـــاء
حـــلا فـــيك الغـــرام لكل صب
وحـــبـك مـــا لأوله انتـــهـــاءُ
ملوك العـــاشـــقين لديك جند
وأنت لشـــمـس دولتـــهـم ضـــيـــاءُ
دمـــوعـــهم قـــد نسكبت لكي مـــا
تظلك من ســحـــائبـهـــا ســمـــاءُ

وله أيضاً فى ألثغ:

والثغ حلو الثـــغـــر مَنّ بقـــبـلة
فنمت به أصـــداغـــه وهي واواتُ
فـــقلت أمـــا للحـــرب عندك غـــاية
فـــقـــال ذوابتي لحـــربك غـــاياتُ

وله أيضاً:

مـــذ أتى منكم بشـيـــر يحـــاكى
بلبلَ الروض مـــعـــربا ألحـــانه
هزنا الشـوق للصَـبـوح صبـاحـا
فـــســبـــقناكمُ لبــاب الحـــانة*

* الحانة: حانوت الخمّار وهو الموضع الذى تباع فيه الخمر.

وله أيضاً: (ص٦٥٣)

بنفـسىَ نحـوٌ يا سـيـوفَ لحـاظه
غدت عمـدتى فى الفعل وهى ضعافُ
يضـــاف إليـــه كل مـــعنى وإنه
على عـــزة الإدلال ليس يضـــاف

وله أيضاً:

مـــذ لاح فى المرآة فـــاتن شكله
وجَـــلا بوجــهـيـــه لنا قـــمـــرين
صح افـــتنان العـــاشـــقين فـــإنه
حـــاز الوجـــاهة وهـو ذو وجـــهين

وله أيضاً هذه القصيدة الغراء:

بُثَّـــا عن النائى الغــــريب
جُـــمـــلا من الخـبـــر العـــجـيـبِ
واســـتــوقف الركـــبـــان مـــا
بين الأراكــــــة والكـثـــــيـب
واســــتـنشـــد القلـب الذى
قـــد ضـــاع من بين القلـوب
سلبـتــه يوم الدوحـــتين طليـعـــة لرشـــا الربيب



وسرت به نحو الخيام

يد الصبَا ويد الجنوب

ترنو الهوادج عن صفا

شمس تميل إلى الغروب

والبدر يظهر من خلال

السجف* في مرأى عجيب

والرق يخفق والأزاهر (ص٦٥٤)

مثل قلبي في وجيب

يا حاديَ العبس التي

سارت على قلبيَ الجنيب

علل عليل هوى فعهدك ما تقادم بالطبيب

أنفاسه الحرّاء لا

تهدى بمدمعه السكوبِ

* السجف: بفتح السين وكسرها ظلام الليل.

كـالخـال يرتع فى النعـيم ويشـتكى حَـرَّ اللهـيب
يصـبـو لمعـتل النسـيم ويسـتريح إلى الهـبـوب
إنــى وإن شــطَّ الــنـوى
وقفٌ على حب الحـبـيـب
كـابدت مـا كـابدت من
شَقِّ المرائر والجـيـوبِ
وعلمت كـيف تقـوم أسـواق المعـارك والحـروبِ
ولقـيت دون البـيض وقع السـمـر بالصـدر الرحـيب
مـن كـل ريم جـــائـل
فى برد جـردته النشـيـب
يحكى الغـزالةَ فى التـرفع والغـزالةَ فى الوثوب
ألحـاظه ترويك ديوان الحـمـاسـة عن حـبـيب
وقـعـات أسـهـمـه تركن جـمـيع جـسـمى فى ندوبِ
وقف الســقـامَ عَلَى الورى
ولمهـجـتـى أوفى نصـيـب
لو أغـرق الشـعـراء فـيـه لأخـروا وزن النسـيب
أسـفى على عنفـوٌ عُـمْـر
مـرٌ فى عـيش حـديث أسـرار الغـيـوب
حـيث المسـرة فى دنو
والمســاءة فـى هـروب
حـيث الشـبـيـبـة لم تشب
بتـراب تغـيـيـر المشـيـب
عـمـر وفى دهرى بـه
فـعـجـبت من صـدق الكذوب
كم ليلة عـانقت فـيـهـا
قـامـة الغـصـن الرطيب

في معهد ما فض عنه الأنسَ إلا ختم طيب
والزهر يضحك من بكاء
الطلّ بالثغر الشنيب
(ص٦٥٥) والريح تكتب في الغدير حديث أسرار الغيوب
والطير تقرأ والغصون
تهز أعطاف الطَروب
والورق تصدح في الغصون
بصوت محزون كئيب
في رنة الشادي وهينمة القطا والعندليب
عجماء تعرب في السؤال
وتستجيب بلا مجيب
والليلُ أرسلَ ذيْله
رصداً على أعلى القضيب
يحكي الشعور كأنه
يروي الفروع عن الخطيبِ
فجعلت وِردي وَرد خد
وافر منه نصيبي
أدنو وأحشائي من الحدثان في شك مريب
لولا الرقيب ظفرت من
لقياه بالفرج القريبِ
وكشفت من وصلي به
ما قد ألمّ من الكروب
بُعد الحبيب أخف عندي
من مواقيت الرقيبِ
دار يكون بها عدوي
لا أحب بها حبيبي

إن الثـــواء* علـــى النـــوى
من بعض حـــرمـــان الأديب
من يخطب العليـــاء هان
عليـــــه ترويع الخطوب
يا دهر ويحك كيف قـــابلت
المنـــاقب بالمسلـــوب
ورفـــعت كلّ مـــؤخَـــرِ
وخفـــضت مقـــدار الحـــبيبِ
حـــسبى الفضـــايل والعلا
والفـــضل ليس من العيـــوب
حـــسنات مـــثلى من حــلاك
ولـــيس ذنبك مـــن ذنـــوبى
مـــــا حـــلّت الآذان إلا
حـلْيَـــةُ الفطن اللبــــيب
لو أنصـف الرامى لبــــان
العـــذر فى خطا المصـــيب
إن كـــان جـــهد الدهر صرف
نقـــود عـــمرىَ فى المغـــيب
فـــابن الصـــلاحىّ غـــريبٌ
لا مـــلام على الغــــريب

وله أيضاً:

حدثا عن حديث شوق قديم (ص٦٥٦)
يا زمـــانَ الحـــمى وربع سـيـــوط
كلمـــا قلت ربع أســـيوط يدنو
صك وجـــهَ الرجـــا بكف قنوط

* الثواء: الإقامة.

وله

يهــــــــــواه قـلـبى ولـكـن
لـــلـــنــفــس عــنـــه أكـــفُ
وقــــــــــد يُـغـص بمـاء
تـنـازعــــــــتـــــــه الأكـفُ

وله

وكـــان لىَ الشـــعـــر فى طاعـــة
فلمـــا عـــجـزت عــصـتنى القـوافى
فـــهل لى بهـــذا الجـــفـــا ســيـدى
تـوافى لـعـل القـــــوافى تُوافى

وله

أللشـــعـــرِ ســـعـــرٌ فـــاســـتـــامُـــه*
واقـــرض للدهر منه قـــريضـــــا
وليس قـــــصــــــاراى لكننى
لأجـل الخـلـيـل* عـشـقت العـروضـا

* فأستامه: أى فأشتريه.

* الخليل: هو الخليل بن أحمد واضع علم العروض.

وله أيضاً وقد أبدع:

لم أشـــرب الخـــمـــر على ريبـــة
وإنمـا دمــــعـى لهـــــا يحـكـى
ذاب الحـشـــا حـتى جـرى من فـمى
فـــهـــا أنا أشـــرب مـــا أبكى

وله أيضاً:

لا مـــنـــى فـــى هـــواه مـــن لـــو رآه
كـــان يَفـــدى بالعين ذاك الخليـــلا .

ربَّ مـتّع به عـيـان عـيـونى
وأدمـعـه فى صـحـة والخلى* لا

* الخلى: الخالى من الهم وهو ضد الشجىّ.

وله:

ولم أنسَ لما ودعـتنى ودمـعـهـا
يتـرجم عن مكنون مـا فى فـؤادها
فـقلت لهـا هل فـيك بلغـةُ راحلٍ
فـأنت مُنى نفـسى وفـيك مـرادُها
(ص٦٥٧) فكادت وحق الله لولا رقيبها
تزودنى من عـينهـا بسـوادها

وله:

عـادنى من أحب ليـلا وأهدى
لى من الزّهـر وردةً صـفـراءَ
قلت أهديتَ لونُ سـقـمى فلو أهديت
ورد الشـفـاه كـان شـفـاءَ

وله:

الحـسن مـال والوصـال زكـاته
من جـاد بالمَزْكـاة أثمـر مـالُه
فـأنعم بوصل منك يا بدر الدجى
فـالحـسن أقـرب مـا يكون زَواله
إن كـان مـعـروف فـهـذا وقـتـه
حـاشـا الكريم أن يُردّ مـقـالُه

وله:

يا للرجـالِ لألحـاظِ قـد اتخـذَتْ
من سـحـرِ بابلَ أحـداقـاً وأهدابا

وما كفى عينها النجلاءَ من كحل
حتى رمت بسهام الكحل ألبابا
يرنو بها رشأ يختال عن مَيَلٍ
فكلما فتكت يزداد إعجابا
من يستطيعُ مقيلاً عن مصارعها
وطرفها قد غدا للقلب جذابا
(ص٦٥٨) تلك الشهادة فاشهد فى حيازتها
ولا تطع عاذلاً لا زال كذابا

وله أيضاً وقد أحسن فيه:

ذَكَرَ الغضى فحنتْ عليه ضلوعُه
صبٌ سقَتْ وادى العقيقِ دموعُه
لولا الهوى والنأى يصدع شمله
ما كان ريب الحادثات يروعه
يبكى الفريقَ وما استحق فراقَهم
من داء طرف بان عنه هجوعه
وحشا تَقَسَّمةَ الغرام فحزنه
عندى وفى تلك الركاب جميعه
قلب يقلبه الأسى فكأنه
بيتُ العروض اعتاده تقطيعُه
واها لهذاك الزمان ومَن له
من مسمع ومن البعيد رجوعه
زمن يود الصب أن لو يَشترى
ما بان منه بعمره ويبيعه
حيث الأمانى ملكه والدهر لا
يعصيه والأصل الأبىُّ يطيعه
لو كان ينجح سيل أدمعه على
أيامه سالت وسال نجيعه

حـيـا الحـيـا ذاك الحـمى من مـربع
أربى رباه ومـشـتـهـاى ربوعـه
مع شـادن لولا مـسـارقـة المهـا
لحظْيـة فـاق على الغـزال صنيـعُـه
(ص٦٥٩) فتان معسول الرضاب فديته
لو كـان يرقى فى الهـوى ملسـوعـه
قـاس يرى ذلى لعـز مكانه
ومن العـجـايب أن تعـز منوعـه
فـقـضـيت منه لبـانة الشـوق الذى
وقف الفـؤاد على الشـجـون ولوعـه
فـمـضت وأومض برق خُلبـهـا وهل
يـبـقى المنا والنائبـات تضـيـعـه؟
واليـوم أقنع باذكـار حـديثـه
إن كـان يغنى المسـتـهـامَ قنوعُـه
وبحـب آل البـيـت أضل مكارم
الأخـلاق أفـضل من سـمـا ينبـوعـه
يحلو التـغـزل والصـبـابة والهـوى
والحب مـا بالقـرب فـاح مـضـيـعـه
لى منهم الغـصن الذى طابت أصـول
كـمـاله فـسـمت عليـه فـروعـه
حـسـن المحـيـا من يؤمل مـجـده
قـد تم فى ذاك الجـمـال طلوعـه
من قـام ينصب نفـسـه فـإذا به
نحـو الكمـال قـد انتـهى مـرفـوعـه
السـيـد الحـسـن العلىُّ بن العلى
من لم يَفُـتـه من العـلا مـجـمـوعـه

يا ابن النبى إليك شــرحَ صـــبــابتى
يحلو بذكــرك ســيــدى توقــيــعُــه
شكوى أسير هوى ومطلق عبرة (ص٦٦٠)
ذلُّ الخــضــوع إليك منه شــفــيــعُــه
مــناضــره وهواك من مــحــمــوله
إن كــان يُرفع فى الهــوى مــوضــوعُــه
فــبحق جــدك خل عن حــد الهــوى
إن كــان ينفع فى هواك خــضــوعُــه
وانظر إلى قلبٍ صــــريع نكاية
من غــيــر طرفك لا يُفــيق صــريعُــه
وحــشــاً تصــدّع من مكابدة الأسى
لولا الهنا مــا ناله تصــديعُــه
واعطف عليــه فــقــد تمزق قلبــه
أيدى ســبــا فــعــسى يُرم خليــعُــه
وأدر على الأوقــات صــهــبــاء الصــفــا
فــالدهر أينعَ زهرُه وربيــعُــه
مــا شــأن عــصــرٍ أنتَ واحــد حــسنه
أن لا يتــيــه على الزمــان ربيــعُــه
واليكهــا من مــدنِف* ملك الغــرام
جــمــيــعــه مذبان عنه جــمــوعــه
حــاكَ الصــلاحى وشــيْــهــا فطرازها
تكمــيله قــد زانه ترصــيــعُــه
ضــمنت مــعــانيــهــا البــيــان فكلهــا
بيتٌ تلاعب بالعــقــول بديعُــه
فــاقــبل ومــا ضــاق الفــضــا إلا ومن
نفــثــات ســحــرك يستــمــد وسيعُــه

* مدنف: أدنفه المرض أى ثقل عليه فهو مدنف بفتح النون وكسرها.

لازال يخـــدم باب سُـــدّتك التى
حلت من المجـد العـزيز رفـيـعـه

(ص٦٦١) ومن غرر قصائده ما مدح به شيخه الشمس الحفنى قُدّس سره وقد أجاد:

لهـذا المحـيـا طلعـة الشـمس تسـجـد
ومن ذكـــره دَوْح الثنا يتــأود*
وألسنة الأكـوان كـالورُقِ كلهـا
بذكـراه بين الخـافـقين تغـرد
مـحـيـا عليـه للقـبـول طلاقـة
يزين حـلالهـا حلى مـجـد وسـودد
مـحـيـا إمـام بيض الله وجـهـه
فـوجـه مـشـانيـه من الخـزى أسـود
إمـام الهـدى الراقى إلى ذروة العـلا
إلى رتبـة عنهـا الشـوابت تقـعـدُ
إمـام له فى المجـد فـخـرٌ مـؤثلٌ
وفى رتبـة العليـاء عـز مـؤيد
إمـام حـمـاه الله من كف لامس
كـذاك الثـريا ليس تدركـهـا اليـد
أمـعـراجـه السـامى ينال فـيـرتقى
وليس سـواءَ سـيـد ومـسـوّدُ
فـمـا شئتَ قل فـيـه فـأنت مـصـدّق
مـزاياه تقـضى والمحـاسنُ تشـهـد
مـزايا يهـز الغـصنُ أعطافَـه لهـا
ويثنى عليـه الكون طُراً ويحـمـد
وأيدٍ يبـارى الريحَ وكف* أكـفـهـا
عليـهـا ازدحـام فـهى للناس مـورد

* يتأود: بمعنى يتمايل.

* وكف الأكف أى ندى الأيدى والمراد به الجود.

(ص٦٦٢) وفضل أقر الناس ـ وهو شهادةٌ
له ـ أنه في حَلْبة الفضل أوحد
فيا لدروس كم بها حي دارس
من الدين يجيبه بها ويجدد
دروس يرى فيها ابن ادريس* راحة
ويصفر منها من يغار ويحسد
فليس لأم الشافعي قرابة
سواء ولا صنو له بعد يولد
فيا فاتحاً عين العمى ليرى بها
معايب غُض الطرف إنك أرمد
ويا منكراً سعي الإمام ووقته
أبعدَ وقد قال المؤذن أشهد؟
أبعدَ ثناء الكونِ والكونُ ناطق
يوافيه من عز المناقب تجحد؟
ويا من يسوم الأسد بالسوء خلّ عن
مجالك هذا اليوم حتفك أوغد
أخا العزم كم ذا أنت تتهم* في السرى
إلى غيره تبغي النجاح وتُنْجد
وفي بابه العافون من كل وجهة
يطوفون في أرجائه فهو مسجد
ونجم الثريا ثابت في رحابه
ومن دونه في مقعد الصدق فرقد
وبشر روى عن وجهه البشر والرضا
وعن رأيه المحمود يروى مسدد
(ص٦٦٣) نَصَحْتك لا تنزل بغير مُقامه
فليس سواه في الحوادثُ يقصد

* ابن ادريس يقصد به الإمام الشافعي رضي الله عنه. ينسب له كتاب الأم في المذهب الشافعي.

* تتهم: أي يسير في الأرض المنخفضة وينجد أي يسير في الأرض المرتفعة.

فـيــا نـاصــر الدين الحنيــفى ظاهراً
ببــاطن ســرٍ ســرْ فــأنتَ المؤيد
وقم ســيــدى بالعــزم فى نصــر ديننا
وجـد لى بحـسن الرأى فـالسعى أحمـد
ألا إن بيــتــاً أنت عــامــر ربعــه
وأنت إمــام الكون فــهــو المشــيــد
أمــولاى إن الناس إمــا مــبــغضٌ
إليك فـيـشـقى أو مـحبٌ فـيـسـعـد
وهلْ يبــتــغى الإســلامَ والدين والتــقى
وبغــضَك يامــولاى قلبٌ مــوحــد؟
أمــولاى شكوى من زمــان عــهــدته
تغــيــر من حــال له كنت أعــهــد
فــمــا بال ربع العلم أصـبح دارســاً
ومــا بال شــمس الأنس وهو مــبــدد؟
ومــا لى أرى غــيم الجـهلة مطبـقــاً
فــيــبــرقنا من غــيــر قطر ويرعــد؟
أينهــر ســحــبــان البــلاغــة باقلٌ
ويصــبــح بالاعــيــاء قس يهــدد؟
فـيـهـا لهف نفـسى من عناء وحـسـرة
ويـا نـار هَـم بـين جنـبـى تـوقـــــد
ويا زفــرة قــد أولعت بحــشــاشــتى
فـتكمن فى جـسـمى الهـمـوم وتصـعـد
من اجلك يومى مــثل ليلى فى الأسى
فــدهرى وطرفى أســود ومــســهــد
(ص٦٦٤) وليس أخو مجد طريفٍ وتالدِ
كـمن فى ذراعـيـه سـقـاء* ومــــزود

* سقاءٌ، بكسر السين أى وعاء للشرب ومزود بكسر الميم أى وعاء للتمر.

أمـــــولاى هـذى سنـة اللّـه لـم تـزل
علـى ألسـن الأعـــلام تُروى وتُسـنـد
ولو كـــان للإنصـــاف والحق مـــهـيعٌ*
يرام فـــيـحـيى أو طريقـاً فـــيـقـصـد
لكان لـذى القلب المصـــان تبـــصـــر
فــيـبلو به صـرفَ الصــروفِ وينقـد
ولكنهـــا الأقـــدار تأتى بـضـــد مـــا
يحـــاول فـــهـــو المخطئ المتـــعـــمـــد
أمـــولى يهنيك الرقى إلى العـــــلا
برغم المســـاوى والفـــخـــار المؤبد
ويا قلم الســـعـــد الذى هو لم يزل
يوقع فى إســـعـــادكم ويجـــوّد
أمـــولاى مـــا بال الرِّعـــاع تفـرقـوا
وكـــــانوا بأطواق الـولاء تـقـلـدوا
لئن غــضـــبـــوا فـــاللّه راض ولم يزل
يعـــينـك بالنصــــر المبين ويمدد
لقـــد كـشف الخـذلان مكتـوم سـرهم
وأخـطأهـم منـك الـولا والتـــــودد
ومـا شئت إلا الحق فى السـخط والرضـا
وذكـــرك فى الحـــالين إياك نعـــبـــد
فـــإن كنت لم تغـضب فللّه غـيـــرةٌ
عليك وحـــرب نارهـا ليس تُخـــمـــد
لقد رَغِمَت آنافهم وتصدعت (ص٦٦٥)
قلوب من الشـحناء منهم وأكْـبُـدُ
ولو أنصـفـوا كـانت لهم من نفـوسـهم
زواجـــر تَهـــدى للصـــواب وترشـــد

* المهْيع: الطريق.

فـتـرضـيك منا أنفس نشـأت على
رضـاك ولا يثنى هواها المعـقـد
وحـبك نفـديه بكل عـلاقـة
وبالنفس بل بالعين فـهـو مـؤكـد
وأصـحـابك الغـر السـراة همُ همُ
فكلهم مـولى كـريم ممجـد
بقـيتَ بقـاء الدهر إنك سـيـدى
بآثارك الحـسناء فـينا مـخلد
ودونك بكراً بنت فكر أجـادها
يرجى نداك ابن الصـلاحى مـحـمـد
أجـبت بهـا داعى القـوافى ومـهـرها
قـبـولى ولى من راحـتـيك تعـود
فـدع سيـدى حسان* مـدحك بالذى
يحـاول من مـدح وذم يعـربد
فكلنى إلى مـا شـئـتـه من بديهـة
فـإنى بما أرضـيكَ أنشى وأنشـد
وهـبـنـى زَرُورا * من نـداك فـإننى
لأرمـد من داء الأسى وهى إثمـد*
بجـدك طه من شـرفت بحـبـه
وطاب له من جـاهه لك مـحـتـدُ
عليـه من الآل الكرام تحـيـة
تنالك منهـا رحـمـة ليس تنفـد
مدى الدهر مـا قال الصـلاحى مؤرخـاً
هو العـزُّ هامن أجله دحض العـدُو
(ص٦٦٦) (وله أيضا):

أحنُّ لأيام الهـوى وعـذابُهـا
أليم ومـا عـهـدى لهـا بقـديمِ

* حسّان: الشاعر هنا يشير إلى حسّان بن ثابت شاعر النبى صلى الله عليه وسلم.

* الذَّرور: بفتح الذال ما يُذَرّ ويفرق والمراد هنا هبنى نفحة من جودك.
* الأثمد: بكسر الهمزة وسكون الثاء حجر يكتحل به.

وإن كـان شـعـرى ضـاع فـيـه فـإن لى
بقـايا ومـعنى الفكر غـيـر عـقـيمِ

(وله أيضا):

هواكـم قـد تحكم فى فـؤادى
وحـملنى الصـبـابة والسـقـامـا
ومـا زرتم ولا هـبـت ريـاح
عـسى يشـفى تنشـقـهـا الزكـامـا

(وله أيضا):

إن رمت تـصـحب شـخـصـاً
ولـيـس مـن أقـرانـك
فـانظر له واخـتـبـره
وزنـه فـى مـيـزانـك
فـنـقـصُ مـن لـك يـعـزى
لمقـتـضـى نقـصـانك

(وله أيضا):

يا حـسنًا قـد غـدت بضـاعـتـهُ
حليـةَ أهلِ الكمـال والفـضـل
بـابـوجـكـم* مـعـجـبٌ لناظره
لـكـنـه ضـيـقٌ عـن الـرِجْـلِ
فـأبدلوا ضـيـقَـه لنا سَـعـةً
وعـاملونا بقـسـمـة العـدلِ
وعندنا لاجـتـمـاعكم شـغفٌ
فـشـرفـوا دارنا بلا مَـهـل

* بابوج: بمعنى حذاء.

وقال مشطراً:

ويوم أنس به اقتنصنا
ظبيا تهاب الأسود قنصه
طاب به الوقت فانتهزنا
من الزمان الخئون فرصه
في روضة زانها ربيع
كمل صوبُ السحاب نقصه
نسيمها مذحكى شذاها
به غدت للعقول نقصه

وله:

هذه الدار والعوارض حالتْ
عن وصولي فأخضر العُيش أغبرْ
وعهود الحبيب كيف استحالت
ليتها كالخدود لم تتعذر

(وقال ارتجالا في مجلس أنس حفّت به الأحباب من ذوى الألباب)

شاق طرفَ السرور ظرفُ الربيع
فتملى بحسن تلك الربوع
ما ترى الزهر ضاحكا لبكاء الطل
من در قطره بالدموع؟
وغصون الرياض تخلع أثوا
ب التداني على الندىً الخليع
فأنسنا بجمع إخوان صدق
زان طبع الوفاء قدرَ الجميع

صــــالحى أرح فـــــؤادك والبسْ
من بشــيـر اللقــا قـمـيص الرجـوع

(ص٦٦٨) ثم أنشد فى المجلس ارتجالا:

إلى القـبـة الفـيـحـاء سرنا فـسـرّنا
ربيعُ المنى من ثغـر طلعـتـهـا الغـرا
أنـسـنابـهـــــا من كـل بـدر ولا نـرى
عـجـيـبـا طلوع البـدر فى القبـة الخـضـرا

ثم أنشد عند التهيئ للقيام من ذلك المجلس:

يا نهـــار الســـرورِ كـيـف اخـتلسنا
فـــيـك أنســـا كـــأنما هو شكٌّ
قـــد أنسنا فى فـــتـــحـــه بالتـــدانى
ودهانا خـــتـــامـــه وهو مـــسكُ

وله أيضاً:

قـــد كنـت أهجـــو الرقــيـب حـــينا
لأنه يرصـــــد الحــــبــــيــــبــــا
والآن لما نـوى التـــجـــــافى
عـــشـــقت من أجله الرقـــيـــبـــا

وله:

يظن سلُوّى حين شـــاهد أدمـــعى
تحـلـى بـدرّ تـربـه وتـرائـبـــــــــــه
وحـقّك مـا شـابت هواى وقـد جـرت
دمـوعى من عـصـر الشـبـيـبـة شـائبـه



(وله أيضاً)

إن أذنب الدهر بتقديمه
من ليس يدرى قيمة الشعر
فبسطُ إحسانك يا سيدى (٦٦٩)
مازال يمحو زَلّة الدهر

(وله)

أشرت لها فى قُبْلةٍ ورقيبهُا
شهيدٌ وغيم الأفق قد غيب الشما
فقالت بعينيها تشير إلى السما
فيا حسن معناها الذى سلبَ الحِسا

ومن غرر قصائده التى أبدع فيها وأجاد وأشار فيها بالمدح



لشيخه الشمس الحفنى قدس الله سره وهى هذه:

مل بى فـقـد وقَـدَ الهـجـيـر
انى بظلك مـسـتـجـيـر
وأرح مطيك يا سـمـيـر
فلقـدْ أضـر بهـا المسـيـر
هذا الحـمى فـارصـد إذا
مـا اسـتـأنس الظبى النفـور
واطرق كناس الغـيـد حـيـث
ينام راعـيـه الغـيـور
وأمِطْ سـتـائره فـذلك
حين تـنـفـتـح الخـدور
وأسـأل من الظبـيـات عن
عـهـد تضن به الصـدور

واحـــفظ فـــؤادك أن تـصـــيبَ
عـــيـــونهن فـــهن حــــور
من كـل غـــــانيـــــة يـلوح
بوجـــهـــهـــا القـــمـــر المنيـــر
تختـال فى مَـرَح الشباب (ص٦٧٠)
فـــيـــخـــجل الغـــصن النضـــيـــر
تسـعى فـيـقـعـدها روادفـهـا
وتنهـــضـــهـــا الخـــصـــور
سكرى رأت كـــســـر القلوب
فـــصـــار ناظرها الكـــســـيـــر
فـعلتْ بسـحــر جـفـونهـا
مـــا ليس تفـــعله الخـــمـــور
خَنُثَتْ مـــعـــاطف قـــدها
لكن لـواحـظهـــا ذكـــور
اللّه أكـــبـــر من نشـــاط
جـــفـــونهـــا وبهـــا فـــتـــور
يا صـــاح إن جُـــزْتَ الخـــيـــام
وللظبـــاء بهـــا ظهـــور
قـل للبـــخـــيلة بالزيارة
مـــا لطيـــفك لا يـزور؟
لـم أنس إذا وافى البـــشـــيـــر
يلوح فى فـــمـــه الســـرور
إذ أقـــبلتْ ريح القـــبـــول
بهـــا وأدبـرت الـدبـور
فـضـمـمـتـهـا وبمهـجـتى
من حـــر أشـــواقى ســـعـــيـــر

فـــتـــعـــوذت بالروض من
شـــر بأنفـــاسى يطيـــر
روض تـعلـق بـالمجـــرة
من جـــوانبـــه نـهـــور
(ص٦٧١) تبـــدو به زهر الزهور
لأنـــه فـــلـــك يـــدور
ضـــحكت ثغـــور زهوره
فـــبكى لهـــا النوءُ المطيـــر
وحـنـت نـواعـــره وحَنْنَتْ
وهى من غـــيظٍ تـفـــور
ذكـــرت قـــديم عـــهـــودها
فـــانهلّ مـدمـعـهـا النمـــير
يـا طيـب أنـفـــاس الـربـيـع
فـــفى تنفـــسهـــا عـــبـــير
والجـــو مـــجـــمـــرة عليـــهـــا
من ضـــبـــابتـــهـــا بخـــور
وافـت بـه رود بـأســـــرارى
لهـــا طـرف خـــبـــيـــر
وســـعت على طرق الجـــداول
والنســـيم لهـــا ســـفـــيـــر
وطروس قـــامـــتـــهـــا عليـــهـــا
من ضـــفـــائرها سطور
يا طيب مـــا تملى الشـــعـــور
وحـــسن مـــا نقل الغـــدير
مـــا ذاك الافَـــرْعُ لـيـل
قـــد تـبـلـج فـــيـــه نـور

والورق ساجعة لها
من كل ناحية سمير
عجّماء تعرب عن ضمائرنا (ص٦٧٢)
وليس لها ضمير
والريح تعتنق الغصون
بها فتعتبق الزهور
وبدت شموس الراحِ تحملها
الكواكبُ والبدور
فقضيتُ منها ما قضيت
وكان لى ولها أمور
هذا كلامى الحلو أهدته
إلى فمىّ الثغور
وضممتها عند الوداع
وكل أنفاسى زفير
وبكت عيون السحب حينَ
تساقط الدمع الغزير
نُحنا معا فتحلت الأغصان
منا والنحور
وسرت وقد لاقيت منها
ما يطيش له الصبور
صبرى وما لاقيت إذ
رضيت به كل يسير
رعيا لذياك الحمى
والطرف مبتهج قرير
ولمعهد حصباؤه
درر وتربته ذرور

قــــد لـح بـالقـلـب الـغـــــرور

وذلـك الـطـرف الـغـــــــريـر

(ص٦٧٣) ومـــرور أيام الصـــبـــا

مـن دونـهـــا الـعـــيـش المـريـر

أنـى يـروج الـعـــمــــرو

الأيام تـنـهـب والـشـــهـــور

كـم أنجـــد الـســـارى وكـم

تـهـم الـهـــمـــوم بـه تـغـــور

مـن لـى بدهـر لا يـســاعــد

فــالـيــســيـــر بـه عـــسـيـر

أرجـــو انتـــصــافــا من زمــان

صـــار عـــادلـه يـجـــور

وحـــوادث قـــد آن فـى

كـبـــدى لاسـهـــمـهـا خـطـور

لـكـن بـجـــاه إمـــام هـذا

الـعـــصــر لى فـيـهـا نـصـيـر

مـــولـى تـرفـع قـــدره

فـلـه أنـامـلـنـا تـشـــيــر

مـلأ النواظر منه إجـلالا وليس لـه نظيـر

وحـــمـــاه يـنـفَكُ الأســـيـر

بـه ويـســتــغنى الـفــقــيـر

وندى أياديه شـهـيـر والقليل به كـثـيـر

منن تـذل لـهــــا الـرقـــاب

ولا يـقـــوم بـهـــا الـشـكـور

يا من به تُهـدى الســراة (ص٦٧٤)

لأنـه عـلـم مـنـيـــر

طالت لخدمتك القوافي
والزمان بها قصير
وجرت لنحو حماك آمالي
وأنت بها جدير
وقصور مدحك ليس في
فهمي لرفعتها بصور
خذها على شرط الصيارف
إنّ ناقدها يصير
جاءت تعارض بالبيان
وسيف حجتها شهير
يحيا بصحتها العليلُ
وما لأصر بها كسور
حلفت بكامل بحرها
أن لا تطاولها بحورُ
حسنت بمدحكم كما
تاريخها حسن نضير
ما في تأخر عصرها
قد يحرز القصب الأخيرُ

(وله)

عجبت له كيف أمسى الغبي
برؤياه وهو مليء غني
وأُحرم منه على فاقتي
ولكنّ كم معدن مع دني*

(وله) (ص٦٧٥)

* دني: أصلها دنئ وهو الخسيس الدون.

ذكـــــرتك لا أنـي نـطـقـت وإنمـا
ذكـرتك فى نفـسى فكنتَ سـمـيـرَها
ذكـــرتك فى روض تبـسـم عن شـــذا
وقـــد فـــتـــحت كف النســيم زهورَها
ذكـرتك والكاسـات تخـتـال بالطّلا
وحَبٌ لنفـــسى أن تكون مـــديرَها
ذكـــرتك والأطيـــار تنطق عن هوى
كـأنك قـــد آويت منهـا ضـمـيـرَها
فـلا خـيـر فى أرض إذا لم تكن بهـا
سـمـيـراً ولا فى روضـــة لن تزورَها

(وله)

يا مـعـيـر الرمـاحِ والبـدرِ والظبى
انعطافـــا وبهـــجـــة والتـــفـــاتا
أنت لو لم يكن مـحـيّـاك روضـا
لم يكـن ريقـك الشـــهى نبـــاتا*

(وله)

أفـدى بروحي عِـذاراً لست ألثـمـة
الا بثـغـر الأمـانى أو فم الغـزل
يا قـوم إنى مـحب أشـعـرىٌ هوى
فكيف خـالط قلبى وهو مـعـتـزلى

وكتب إلى صاحبنا السيد حسن البدرى العوضى قوله:

يا بدر بعـدَك لم آنس بطيب كـرى
ولم أجـد حـسناً إلاّ على مـضض

* نباتاً: المراد به (سكر نبات) ويسميه الفرس (حب نبات)، وقد ذكره شاعر الفرس حافظ الشيرازى فى إحدى مربعاته (رباعياته) التى يقول فيها:

كفتم كه لبت كفت لبم آب حيات
كفتم دهنت كفت زهى حب نبات
كفتم سخن تو كفت حافظ كفنا
شادى همه لطيفه كريان صلوات

وترجمتها العربية:
اقـول مـا شـفـتـاك؟
تقـول مـاء الحـيـاة
اقـول مـا هو فـوك؟
تقـول حب نبـات
اقـول لفظك مـاذا؟
تقـول آى الصـلاة
وحـافظ فى قـيـام
يـرتـل الآيـات

إذا تطاول ليل الهـــجـــر أنشـــدُيا
بدرى وإن غـاب كـاس صـحت بالعـوضى

وكتب إلى أعجوبة زمانه قاسم الأديب ما نصه: (ص٦٧٦)

يـــا ذا الأديـــب الـــذى أنـــســـنـــا
بـه فـــــأيامـنـا مـــــواسـم
لله مـــا فـــيك من مـــزايا
ثـغـــــــور أزهــارهـا بــواسـمْ
إذا تـرفـــــعـت فـى خـطـوط
حـق لـهــــا طـاعـــــة المراسمْ
وإن توخـــيت فـــهم مـــعنى
عَنَتْ إلى فـــهـــمك الطلاسمْ
وإن تـصـــــرفتَ فـى بـديـعٍ
فـــالذوق مـــوطن وأنت قـــاسم

(فأعاده الجواب وقال)

أفـــديك مـــولاى من بـليـغ
طابت بـألفـــاظه جـــراحى
دخـلتُ بـحـــرا من المعـــانى
قـامـوسـه جـاد بـالصـحـاح
إن كنتُ عن دركـــهـــا ونيـــا
فـالعـفـو يا صـاحبَ السمـاحِ
أو كـــان فـــهـــمى به فـــســاد
فـــأنت يا ســـيـدى صـلاحى

ومن غـرر قصايده ما مدح به رسولَ الله صلى الله عليه

وسلم والتزم الألف فى أول كل كلمة وهى:

أسـال أسـيل* الخـدّ أرواحنا القـتلى
أسى أصله إغـراء ألحـاظه الكحـلا
أغـرّ أغـار الغـادة الرَوْد* أنـه
أعـار اللآلى الغـرّ اجـيادَها العُطلا
(ص٦٧٧) أطال المدى أنكى الأسى أعجز الأسى
أطل المهـا أسنى المدى ألف المطلا
أغـار استطال استـفرس افـترس اجـترا
أصـاب اسـتباح استـأصل احـتكم السؤلا
أشـاكى اليـه الحـر أبغى اسـتراحـة
أوْقـد أشـلاء الحشـا الحطب الجـزلا
أغـالطه البلوى أخـاف اتهـامـه
أأنهى إليـه الشـوق أم أطلب الوصـلا؟
أطارحـه الشكوى إذا اسـتل أسـهمـا
الا إنه أقـسى الأنام إذا اسـتلا
أجل إننى أسلمت أحـشـائى البـلا
ألست إلى ألحـاظه أنسب الفـعلا؟
أراه إذا اختـل الحـجـا اختلب الحشـا
إليـه أو اسـتل القنا اسـتلب العـقلا
أبى القلبُ أن أسلـوه أو أدعَ الهـوى
أبان العـذول العـدل أو أوسع العـذلا
إذا آية النـمـل العـذاريّ أشكلت
أصـول الجـمـال استنسخ النظر الشكلا
اليـه التـيـاع المغـرم الصب إنه
امـالتـه أهوى إذا اعـتلت اعـتلا
إذا ابتـسم البـرق الحـجـازى إخـالنى
أعـير السحـاب الجوْن أجـفـانى الشكلا*

* أسيل الخد: أى لين الخد.

* الروْد بفتح الراء وسكون الواو الهينة اللينة.

* الجوْن: بفتح الجيم يطلق على الأبيض والأسود والمراد الأسود، وهى من الاضداد، والشكلا بفتح الشين أو الشكلاء ومعناها البيضاء.

أخـاطب أطلال الربا أستـحـشـهـا
أسى البين الا أننى اقـتـضى أن لا
أرى الأمـل الأدنـى أبـى أن أنـالـه (ص٦٧٨)
أيستسهل الصعب الذى استصعب السهلا
أخـوض المنايا أبتـغى أدرك المنى
اذا اختطب النبلُ الفتى احتطب النبلا
إلى الصعـدة السمـراء أستوقف الحشا
إن انتـصب البـيض السنان أو النصـلا
ألا أيهـا الانسـان أنت الذى ازدرت
أسـودَ الشرى اهدابُ أجـفـانك الكسلى
ألا أيهـا القـالى أمسـالىَ أدمـعى
أمـا أنت أسندت الى الإمـلا؟
اليك أسـيـرُ الشـوق أقلقـه الهـوى
اداوة أسنى الصـبـر أفـراغـهـا البـذلا
أبحت السـهـام القلب أو حـبـه أسى
أأجـريت اجـفـانى أعـاملتـهـا الهـمـلا؟
أذاب التـهـاب الوجـد أسطر أضلعى
اذا استـحكم التبـريج أضـعف أو أبلى
اصـاحِ اتئـد إنى أحَـذِّرك الردى
أمـا أغْـرَت الآرام أعـينهـا النجـلا؟
أبى الله أن ألقى الظبـا أمن الظبـا
إذا ألـف الاعـزاز أم أنـف الـذلا
أسـيـر أمـام العـاشـقين أدلهم
الـى الـطـرق الا أنـنـى أسـلـك المثـلى
أنـافس أبـنـاء الـنـسـيب إجـادة
أطـالبـهم أن ألحق النـسبَ الأعلى

أروم امـــــتـداح المصطفى أشـــرف الورى
اذا اخـــتلف المداح امـــدحـــه أولى
(ص٦٧٩) إمام الهدى المولى الذى اخترق العلا
أجل الورى أهلا وأعـــلاهم أصـــلا
أمين المعـــالى أشـــرف الرسل الذى
اليـه انتـهى التـقـديم إذ أخـبـر الرسـلا
أبان الهـدى أحــيـا الندى أعلن الندا
أباد العـدا أردى الردى أخـصب المحـلا
اليـه انتـهى الصـفح الجـمـيل الذى أبى
أعـاديه إذ أبدى أبو الحكم الجـهـلا
أضـاع افـتـخـار الجـاهليـة أنهم
أطاعـوا الهـوى إذ أغـضبـوا الحكم العـدلا
أباح البـلا أم القـرى اسـتـامـهـا الردى
اليـه اخـتـصـاصـا أشبـه الحـرم الحـلا
أحل العـروضين الأمـان اجـتـبـاهمـا
أجل الأمـانى أمن الأمّـة الهـولا
أراد أذاه المشـــركـــون إهـانة
أُهينوا اذا امـتـدوا اليـه اليـد الشـلا
أذاقـهم السـبى اسـتـسـامـهم الجـلا
أباحـهم الأمـوال إذ آثروا البـخـلا
أعـارهم الخـوف المضـر أراعـهم
اذا استـسلم العليـا انتحـوا الطرق السـفلى
أصـر العـدو البـغى أرداه أيهم
أسـر اليـه الغل ألبـسـه الغُـلا
أمـا آية القـرآن أعـجـزت الورى
إلى آية العـرب انتظامـهم اخـتـلا

(ص٦٨٠) إذا انتسخ الأديان أجمع آية
أينكر أمر الضوء أن أذهب الظلا؟
أتته الوفود استغرق الكل أمنهُ
أفاض الندى اأرضاهم احتمل الكَلا
أيا أطيب الكل الذى آل آله
اليه انتسابا أنت أزكى الورى أصلا
أما أنت أندى العالمين أياديا؟
أما أخجلت أدنى أناملك الوبلا؟
أياد أعارت أيدى السحب الندى
أمستبعد أن أغرق الوابلُ الطلا
أيا أشرف الأبناء أنت الذى أتى
اليه الهدى أنت الذى أوضح السْبلا
اليك انتهى أسنى الخصال التى ازدهت
أفانيها أنت الذى ألْف الشملا
أتاك الفقير ابن الصلاحى آملا
أعنْه أغثْه أغنه أبلغ السؤلا
اليك اشتكى الوزر الذى أوهن القوى
أقله أقله إنه استثقل الحملا
أمولاى أنت العون أرجوك إن أكن
أسأتُ ادخرت المدح أستمطر الفضلا
أناديك أستجرى الندى أرتجى الرضا
أناجيك استجدى إلى العُقَد الحلا
أجرنى أجرنى أكرم الخلق إننى
أضفتك ارتاد الغنى أكرم النزلا
أتيت الحمى أستغفر الله آثما
ألا أيهذا المستجير اخلع النعلا

(ص٦٨١) إلهى اقبل المدح اغفر المزح إننى
أرى الجد الا أننى أخلط الهزلا
اله الورى ارزقنى القبول اقبل الدعا
أقلنى العثار افرج أزل أزمتى الجلى
إلهى أفض أزكى الصلاة أمدها
اجل السلام استنهلا المورد الأحلى
إلى المصطفى الهادى إلى أنجم الهدى
الى الآل أهل الفضل ألحقهم النسلا
الى الخلفاء الراشدين الألى اقتفوا
الى السيرة الحسنا الألى آثروا العدلا
الى التابعين الكل أتباعهم الى
أئمتنا القوم الألى احتفظوا النقلا
الى المؤمنين الصالحين أولى الوفا
الى السادة الأمداد امددهم الكلا
أمولى البرايا أحسن الختم إننى
أؤرخ أرجو أطهر الشرف الأعلى

وله أيضا

زكمت فى ليلة التدانى
وقد زها ثغرها الأقاحى
جوزيت لما غدوت فيها
مشمتا* عاطس الصباح

* شَمَّتَ العاطس: أى دعا له بقوله (يرحمك الله).

وله أيضاً

ومهفهف لما بدا
يختال فى حلل الخَفَر

يسبى بطرف ناعس
قد زانه ذاك الحور
ناديته صل مغرماً
فأجابنى أهلا ومر*

* ومر: يريد بها (ومرحبا).

(ص٦٨٢) وله فى مليح بعين: *

لقد غاب عنى قوم من قد هويته
فقلت لعمرى ما أصيب بعين
ولكنه أهدى الملاحة للورى
فجاد على كل الملاح بعين

(وله) قد اتخذ صاحبه الأديب حسين بن أحمد المكى مسطرة عِدّةُ سطورها ست عشر سطراً فكتب عليها:

ومسطرة فى رقة الجسم قد حكت
نحولى من عشقى وعد ضلوعى
أُسَوِّد من شعرى سطورَ طروسها
وأبكى فأمحوه بقطر دموعى

وله:

أهوى عليا ولكنى بليتُ به
من فاتن عجزت فى وصفه حيلى
يقول لى لحظه إن رمت قبلته
أخطأت تقتل يا هذا بسيف على

وله:

أهوى بربع الأشرفية شادناً
أحيت محاسنه الجمال اليوسفى

مـــا لاح لى دينار وجنتـــه الزهى
الا دهشت بنقـــد ذاك الأشـــرفى

وله ارتجالا وهو فى مجلس إخوان:

للـه يوم قطعنا فـــيـــه زهر منى
والأُنـــس قـلــدنـا مـنـه بـطـوق مـن
وقـد تجلى عـروسُ الروض فى حللٍ(ص٦٨٣)
من الربيع وحــيّـانا بوجـه حـسن

فانشد بعض من فى المجلس:

لـلـه يـوم زهـا بـجـــمـع
من كـل مـــولى به تجـاحى
وأُنـســنـا تم حـين وافـى
مـبـشّـر الـسـعـد بالصـلاحى

(وله) مهنئا بشهر رمضان وأرسله إلى صاحبه السيد حسن البدرى:

أمـــولى المعـــالي الذى قـــد بنى
بـنـاء الـسـنـاء بـحـــسـن الـثـنـا
ومن وجـــهـــه وندى كـــفـــه
هـو المجـــتـلي وهـو المجـــتـنى
ومَنْ حـــبـــه فى فـــؤادى ثَوىَ
ومـن هـو من أضـلـعـى المنـحـنى
إذا كـــان لى فى الورى ســيـــد
فـــأنت ومـــا العـــبـــد إلا أنا
أتيت أهنى بشـــهـــر الصـــيـــام
وأرّخـــتـــه رمـــضـــانُ الهـنـا

وكتب إليه أيضاً:

أيا حَسناً وهو للعسر يسر
ومن هو فى مبسم الدهر ثغر
أتى رمضان وفى رمضان
يصح لمنكسر الحب جبر
فما لك تختار هجر المحب الذى (ص٦٨٤)
لا يليق به منك هجر
إذا قلتَ أرخ وللصائم أعذر
فانى أؤرخ ما الصومُ عذر
فأرسل جواباً به استريح
وعجل فللشوق فى الصدر جمرُ

وكتب إليه أيضاً وقد أرسله بجواب:

جوابك قد جاءنى يسخر
بفضل خطابى الذى يسحر
أتى رافلا فى بديع الحلى
يبشر حينا ويستبشر
فأطمعنى لفظه فى الوفا
وأطربنى خمره المسكرْ
ولكنه قد غدا قاصرا
ومثلك والله لا يُعذر
فان لم تجبنى بما أرتضى
أؤرخْ جوابك لا يظهر

وكتب إليه أيضاً

وفى كتابك بالبيان مموّها
وأراه فى شرع الهوى مردودا

دعوى العواذلِ منك ليس بحجة
باب التلاقى لم يكن مسدودا
هذى طريق الوصل غير مخوفة
والحر أولى أن يرى مقصودا
فدع الأسنة فى صدودك والقنا
واجعل جوابى سعيك المحمودا

وله أيضاً (ص٦٨٥)

لا خير فى ريح الشمال فإنها
حملتكُم وغَدت بروحى رائحة
وإذا تنفست الصَبا من نحوكم
أهدت شذا ولكل ريح رائحة

(وله تشطير بيت ذكر فى أول كتاب المواهب)

كل إليه بكله مشتاق
وعليه من رقبائه أحداق

فقال:

كلّ إليه بكله مشتاقُ
أبداً وقد عبثت به الأشواقُ
من أين يمكنه الوصول إلى الحمى
وعليه من رقبائه أحداقُ

ولما وقف عليه السيد العيدروس كتب:

كلّ إليه بكله مشتاق
ولقيده من حبه إطلاقُ

فـهـو الذى من شـوقـه دخل الحـمى
وعليـــه من رقـــبـــائه أحـــداقُ

(وله وقد كتب على ظهر سفينة):
سفينة قد جرت فيها بحور هوى (ص٦٨٦)
وعـــادة الـــسفن أن تجـــرى على الماء
حـوت هوى فـغـدت بالشـعـر ناطقـة
وحـــركت نغـــمـــاً يحلو على النائى

وله أيضا:
سـفـينة قـد جـرت فـيـهـا بحـور هوى
وعـادة البـحـر أن تجـرى به السـفن
يهـز فـيـهـا الهـوى المقـصـور كل شج
من كل روض مـــعـــان زانه فنن

وله أيضاً:
يا ســـفين الغـــرام أنت نجـــاتى
من هـوى لا يقـــر منه القـــرار
لا تغـيـبى عنى إلى مـسـتـعـيـر
إن شـرط الحـبـيب لا يسـتـعـار

(وله مخاطباً صاحبه حسين بن أحمد المكى):
يا حـــســـينا علق القلب به
خـــاطبـــا صـــفـــو ودادٍ وولا*
لا تقل «لا» فى جـــوابى كـــرمـــا
يا حـــســـينا أنا أخـــشى كـــربَ لا

* ولا: أى ولاء.

(فأعاد الجواب ما نصه):

سـيـدى قلبى بدا الشـوق به
فـعـسى ترضـون رِقّى فى الملا
إننى عـبـد إليكم راغب
وبكم أمـرى على الكل عـلا
أنّ عـذرى واضح مـولاى جـد
لعـبـيـد راجف من قـول لا
لا تـخـل أنىَ الـقـاك بـلا
لا ومَنْ قـد جـاء فـينا مـرسـلا

وللمترجم كلام كثير وصوته جهير، وفيما نقلته كفاية، توجه بآخر أمره إلى بلده، وبه توفى سنة ثمانين ومائة وألف، رحمه الله.

٢٩٣ محمد سعيد ابن أبي بكر الحسيني. ت/ ١١٨٠هـ = ١٧٦٦م.

[ومات] الإمام الصوفى العارف (ص٦٨٧) الناسك الشيخ محمد سعيد بن أبى بكر بن عبد الرحيم بن مهنا الحسينى البغدادى، وله بمحلة أبى النجيب من بغداد، وبها نشأ وأخذ عن الشيخ عبد العزيز بن أحمد الرحبى وحسن بن مصطفى القادرى فى آخرين، وحج وقطن المدينة مدة وأجازه الشيخ محمد حيوة السندى والشيخ حسن الكورانى، ورد مصر سنة إحدى وسبعين ومائة وألف فنزل بقصر الشوك* قرب المشهد الحسينى وكان له فى كلام القوم عرفان إلى الغاية يورده على طريقة غريبة بحيث يرسخ فى ذهن السامع ويلتذ به، وكان يذهب لزيارته الأجلاء من الأشياخ مثل شيخنا السيد على المقدسى والسيد محمد مرتضى والشيخ العفيفى، وبالجملة فكان من

* قصر الشوك: ويسمى الآن (قصر الشوق).

أعاجيب دهره وكان الشيخ العفيفى ينوه بشأنه ويقول فى حقه «إنه من رجال الحضرة وإنه ممن يرى النبى صلى الله عليه وسلم عيانا» وتوجه إلى الديار الرومية ثم عاد إلى المدينة ثم ورد أيضاً إلى مصر بعد ذلك ونزل قرب الجامع الأزهر ثم توجه إلى الديار الرومية وقطن بها وظهرت له هناك الكرامات وطار صيته وعلت كلمته وصار له أتباع ومريدون ولم يزل هناك على حالة حسنة حتى وافاه الأجل المحتوم فى أواخر الثمانين، وخلف ولده من بعده، رحمه الله تعالى وسامحه.

٢٩٤ احمد بن احمد السنبلاوى، الشهير برزه.
ت/ ١١٨٠ هـ = ١٧٦٦م.

[ومات] الفقيه الصالح العلامة الفرضى الحيسوبى الشيخ/ أحمد بن أحمد السنبلاوى الشافعى الأزهرى الشهير برزة، كان إماماً عالماً مواظباً على تدريس الفقه والمعقول بالجامع الأزهر وكان يحترف بيع الكتب وله حانوت (ص٦٨٨) بسوق الكتبيين مع الصلاح والورع والديانة، ملازما على قراءة ابن قاسم بالأزهر كل يوم بعد الظهر، أخذ عن الأشياخ المتقدمين وانتفع به الطلبة وكان إنساناً حسناً بهى الشكل عظيم اللحية منور الشيبة معتنياً بشأنه مقبلا على ربه. توفى سنة ثمانين وماية وألف.

٢٩٥ حسن افندى ابن حسن الضيائى الخطاط.
ت/ ١١٨٠ هـ = ١٧٦٦م

[ومات] الأجل المكرم الفاضل النبيه النجيب الفقيه/ حسن أفندى ابن حسن الضيائى المصرى المجود المكتب، ولد كما وجد بخطه سنة اثنتين وتسعين وألف فى منتصف جمادى الثانية واشتغل بالعلم على أعيان عصره واشتغل بالخط وجوده على مشايخ هذا الفن فى طريقتى الحمدية وابن



الصايغ أما الطريقة الحمدية فعلى سليمان الشاكرى والجزايرى وصالح الحمامى، وأما طريقة ابن الصايغ فعلى الشيخ محمد بن عبد المعطى السملاوى، فالشاكرى والحمامى جوّدا على عمر أفندى.. وهو على درويش على، وهو على خالد أفندى، وهو على درويش محمد شيخ المشايخ حمد الله بن بير على المعروف بابن الشيخ الأماسى، وأما السملاوى فجوّد على محمد بن محمد بن عمار، وهو على والده، وهو على يحيى المرصفى، وهو على اسماعيل المكتّب، وهو على محمد الوسيمى، وهو على أبى الفضل الأعرج، وهو على ابن الصايغ بسنده، وكان شيخاً مهيباً بهى الشكل منوّر الشيبة شديد الانجماع عن الناس، وله معرفة فى علم الموسيقا والأوزان والعروض، وكان يعاشر الشيخ محمد الطائى كثيراً ويذاكره فى العلوم والمعارف

(ص٦٨٩) ويكتب غالب تقاريره على ما يكتبه بيده من الرسايل والمرقَّعات، وقد أجاز فى الخط لأناس كثيرا ويجتمع فى مجالس الكتبة مع صرامة وشهامة وعزة نفس، واتفق يوماً أنه طلِّب إلى مجلسهم في يوم جمعهم لإجازة فامتنع عن الحضور وعز ذلك على الجمهور، فقال الشيخ عبد الله الإدكاوى وكان إذ ذاك حاضراً فى جملتهم:

وناد قـــد حـــوى أقـــمـــار تم
من الكتّـــاب زادوا فى البـــهـــاء
بهم قـــد زاد نورا وابتـــهـــاجـــا
فـلا يحـتـاج فـيـه إلى الضـيـائى

(ثم قال بضده فى المجلس):

لئن غـدا مـجلس الكتـاب ليس به المَوْلى
الضـــيـــائى من فى خطه بهـــرا
فـالشـمس مع بعـدها منهـا الضـيـاء لقـد
عم الورى فهـو شـمس غـاب أو حـضـرا

توفى فى منتصف ذى الحجة سنة ثمانين وماية وألف.

٢٩٦ عبد الكريم ابن على المسيرى، المعروف بالزيات.
ت/ ١١٨١ هـ = ١٧٦٧م.

[ومات] الإمام العالم العلامة أحد العلماء الأذكياء وأفراد الدهر البحاث فى المعضلات، الفتاح للمقفَلات، الشيخ/ عبد الكريم بن على المسيرى الشافعى المعروف بالزيات لملازمته شيخه سليمان الزيات، حضر دروس فضلاء الوقت، وانضوى إلى الشيخ سليمان الزيات ولازمه حتى صار معيدا لدروسه، ومهر وأنجب وتضلع فى الفنون ودرّس وأملى وكان أوحد زمانه فى المعقولات ولازم آخراً دروس الشيخ الحفنى

وتلقن منه العهد، ثم أرسله الشيخ إلى بلاد الصعيد لأنه (ص٦٩٠) جاء كتاب من أحد مشايخ الهوارة ممن يعتقد فى الشيخ بأن يرسل إليهم أحد تلامذته ينفع الناس بالناحية، فكان هو المعيَّن لهذا المهم فألبسه وأجازه، ولما وصل إلى ساحل بهجورة تلقته الناس بالقبول التام، وعُيِّن له منزلٌ واسعٌ وحشم وخدم، وأقطعوا له جانباً من الأرض ليزرعها فقطن بالبهجورة، واعتنى به أميرها شيخ العرب اسماعيل بن عبد الله، فدرّس وأفتى وقطع العهود، وأقام مجلس الذكر وراج أمره وراش جناحه* ونفع وشفع وأثرى جدا وتملك عَقارات ومواشيَ وعبيداً وزروعات، ثم تقلبت الأحوال بالصعيد وأوذى المترجم وأخذ ما بيده من الأراضى وزحزحت حاله فأتى إلى مصر فلم يجد من يعينه لوفاة شيخه، ثم عاد ولم يحصل على طائل، وما زال بالبهجورة حتى مات فى أواخر سنة إحدى وثمانين وماية وألف.

* راش جناحه: أى صار لجناحه ريش كناية عن كثرة ماله.

٢٩٧ احمد بن عبد الفتاح الملوى. ت/ ١١٨١ هـ = ١٧٦٧م..

[ومات] الإمام العلامة المتقن المعمَّر مسند الوقت وشيخ الشيوخ الشيخ/ أحمد بن عبد الفتاح بن يوسف بن عمر المجيرى الملوى الشافعى الأزهرى، ولد كما أخبر من لفظه فى فجر يوم الخميس ثانى شهر رمضان سنة ثمان وثمانين وألف، وأمه آمنة بنت عامر بن حسن بن حسن بن على بن سيف الدين بن سليمان بن صالح بن القطب على المغراوى الحسنى، اعتنى من صغره بالعلوم عناية كبيرة وأخذ عن الكبار من أولى الإسناد، وألحق الأحفاد بالأجداد، فمن شيوخه الشهاب أحمد بن الفقيه والشيخ منصور المنوفى والشيخ عبد الرءوف البشبيشى والشيخ (ص٦٩١) محمد

بن منصور الإطفيحي والشهاب الخليفي والشيخ عيد النمرسى والشيخ عبد الوهاب الطندتاوى وأبو العز محمد بن العجمي والشيخ عبد ربه الديوى والشيخ رضوان الطوخي والشيخ عبد الجواد المحلى وخاله أبو جابر على بن عامر الايتاوى. وأبو الفيض على بن ابراهيم البوتيجى وأبو الأنس محمد ابن عبد الرحمن المليجى هؤلاء [من] الشافعية، ومن المالكية محمد بن عبد الرحمن بن أحمد الورزازى والشيخ محمد الزرقانى والشيخ عمر بن عبد السلام التطاونى والشيخ أحمد الهشتوكى والشيخ محمد ابن عبد الله السجلماسى والشيخ أحمد النفراوى والشيخ عبد الله الكنكسى وابن أبى ذكرى وسليمان الحصينى والشبرخيتى، ومن الحنفية السيد على ابن على الحسنى الضرير الشهير باسكندر. ورحل إلى الحرمين سنة اثنتين وعشرين وماية وألف فسمع على البصرى والنخلى الأولية وأوايل الكتب الستة وأجازاه الشيخ محمد طاهر الكورانى، واجازه الشيخ إدريس اليمانى وملاً الياسى الكورانى ودخل تحت إجازة الشيخ ابراهيم الكورانى فى العموم، وعاد إلى مصر وهو إمام وقته المشار إليه فى حل المشكلات المعوّل عليه فى المعقولات والمنقولات، اقرأ المنهج مراراً وكذا غالب الكتب، وانتفع به الناس طبقة بعد طبقة وجيلا بعد جيل، وكان تحريره أقوى من تقريره. وله رضى الله عنه مؤلفات كثيرة منها شرحان على متن السلم كبير وصغير، وشرحان كذلك على السمرقندية، وشرح على الياسمينية، (ص٦٩٢) وشرح الآجرومية ونظم النسب وشرحها، وشرح عقيدة الغمرى وعقود الدرر على شرح ديباجة المختصر، أتمه بالمشهد الحسينى سنة ثلاث وعشرين ونظم

الموجهات وشرحها وتعريب رسالة ملا عصام في المجاز، ومجموع صيغ صلوات على النبى صلى الله عليه وسلم، ومؤلفاته مشهورة مقبولة متداولة بأيدى الطلبة ويدرسها الأشياخ، وتعلل مدة وانقطع لذلك فى منزله وهو ملقى على الفراش ومع ذلك يُقرأ عليه فى كل يوم فى أوقات مختلفة أنواعُ العلوم وترد عليه الناس من الآفاق ويقرءون عليه، ويستجيزونه فيجيزهم ويملى عليهم ويفيدهم، ومنهم من يأتيه للزيارة والتبرك وطلب الدعاء فيمدهم بأنفاسه ويدعو لهم، وكان ممتع الحواس. وأقام على هذه الحالة نحو الثلاثين سنة حتى توفى فى منتصف شهر ربيع الأول سنة إحدى وثمانين ومائة وألف ومن نظمه رضى الله عنه:

كم كل كهف له يرد كساه بها
لذكم له لاذكم بل لف سما كملا
كالشكل الأول كم بدر كوى سلما
كم كان كل بدير للوداد كلا
كم لاح بدرٌ لليل سام كم كلما
سرت له بضروب الشكل فاكتملا

وأخبرنى شيخنا الشيخ محمد المالكى المعروف بابن الست أنه تولى القُطبانية سنةً قبل موته، ودفن بالمشهد الحسينى فى موضع أعد له ورثاه الشيخ عبد الله الإدكاوى بقصيدة بيت تاريخها: (ص٦٩٣)

رحم الله العالم الربانى
علم لاح أحمد الملوانى

[ومات] الشيخ الامام الصالح/ عبد الحى بن الحسن بن زين

٢٩٨ عبد الحى ابن الحسن البهنسى، ت/ ١١٨١ هـ = ١٧٦٧م.

العابدين الحسينى البهنسى المالكى نزيل بولاق، ولد بالبهنسا سنة ثلاث وثمانين وألف، وقدم إلى مصر فأخذ عن الشيخ خليل اللقانى والشيخ محمد النشرتى والشيخ محمد الزرقانى والشيخ محمد الاطفيحى والشيخ محمد الغمرى والشيخ عبد الله الكنكسى والشيخ محمد بن يوسف والشيخ محمد الخرشى، وحج سنة ثلاث عشرة وماية وألف فأخذ عن البصرى والنخلى وأجازه السيد محمد التهامى بالطريقة الشاذلية، والسيد محمد ابن على العلوى فى الأحمدية، والشيخ محمد شويخ فى الشناوية، وحضر دروس المحدث الشيخ على الطولونى ودَّرس بالجامع الخطيرى ببولاق وأفاد الطلبة وكان شيخاً بهياً معمراً منور الشيبة منجمعاً عن الناس زاهداً قانعاً بالكفاف. توفى ليلة الاثنين حادى عشرى شعبان سنة إحدى وثمانين وماية وألف بمنزله ببولاق وصُلى عليه بالجامع الكبير فى مشهد حافل وحمل على الأعناق إلى مدافن الخلفا قرب مشهد السيدة نفيسة فدفن بها رحمه الله.

٢٩٩ عبد الخالق بن ابى بكر الزجاجى. ت/١١٨١ هـ = ١٧٦٧م.

[ومات] الشيخ إمام السنة ومقتدى الأمة/ عبد الخالق بن أبى بكر بن الزين ابن الصديق بن الزين بن محمد بن محمد بن عبد الرحمن بن محمد بن محمد بن أبى القاسم النمرى الأشعرى المزجاجى الزبيدى الحنفى من بيت العلم والتصوف، جده الأعلى محمد بن محمد بن أبى القاسم صاحب الشيخ إسماعيل الجبرتى قطب اليمن وحفيده (ص٦٩٤) عبد الرحمن بن محمد خليفة جده فى التسليك والتربية وهو الذى تديَّر زبيد* بأهله

* تديَّر زبيد: بفتح الزاى وكسر الباء بلد باليمن، وتديرها أى اتخذها داراً.

وعيالـه وكـان قبـل بالمزجاجـة وهـى قريـة أسفـل زبيد خـربت الآن، ولد المتـرجم سنـة ألـف ومـايـة بزبيـد وحفـظ القرآن وبعض المتون، ولما ترعرع أخذ عن الإمام المسند الشيـخ عـلاء الديـن المزجاجـى والسيـد يحيـى بـن عمر الأهدل والمسند عبد الفتاح بن اسماعيل الخاص والشيخ على المرحومى نزيل مخا* ، وأجازه من مكة الشيخ حسن العجمـى بعنايـة والـده وبعنايـة قريبـه الشيـخ علـى بن على المزجاجى نزيل مكة، ووفد إلى الحرمين فأخذ بمكة عن الشيـخ محـمـد عقيلة، روى عنه الكتب السـتة وحمل عنه المسلسلات بشرطها وألبسه وحكمه، وحضر على الشيخ عـبـد الكريم اللاهورى فـى الفقـه والأصـول وكـان يحـثـه علـى قـراءة الأخـسكيـتـى ويقـول «لا يستغنـى عنه طالب» وحضر دروس الشيخ عبد المنعم بن تاج الدين القلعى ومحمد بن حسن العجمى ومحمد بن سعيد التنبكتى، وبالمدينة عن الشيخ محمد طاهر الكردى سمع منه أوايل الكتب الستة والشيخ محمد حياة السندى لازمه فى سماع الكتب الستة وعاد إلى زبيد فأقبل على التدريس والإفادة، وسمع عليه شيخنا السيد محمد مرتضى الصحيحين وسنن النسائى كله بقراءته عليه فى عين الرضا موضع بالنخل خارج زبيد كان يمكث فيـه أيام خـراف* النخـل، والكنـز والمنـار كلاهمـا للنسفـى ومسلسـلات شيخـه ابن عقيلـة وهـى خمسـة وأربعون مسلسـلا، وسمـع عليـه أيضـاً المسلسـل بيـوم العيـد ولازم درسـه (ص٦٩٥) العـامـةَ والخاصـة وألبسـه الخرقـة ونقبـه وحكمـه بعـد أن صـحـبـه وتـأدب بـه، وبـه تخـرج شيخنـا المذكور كذا ذكر فى ترجمته قال. وفى آخِر توجه

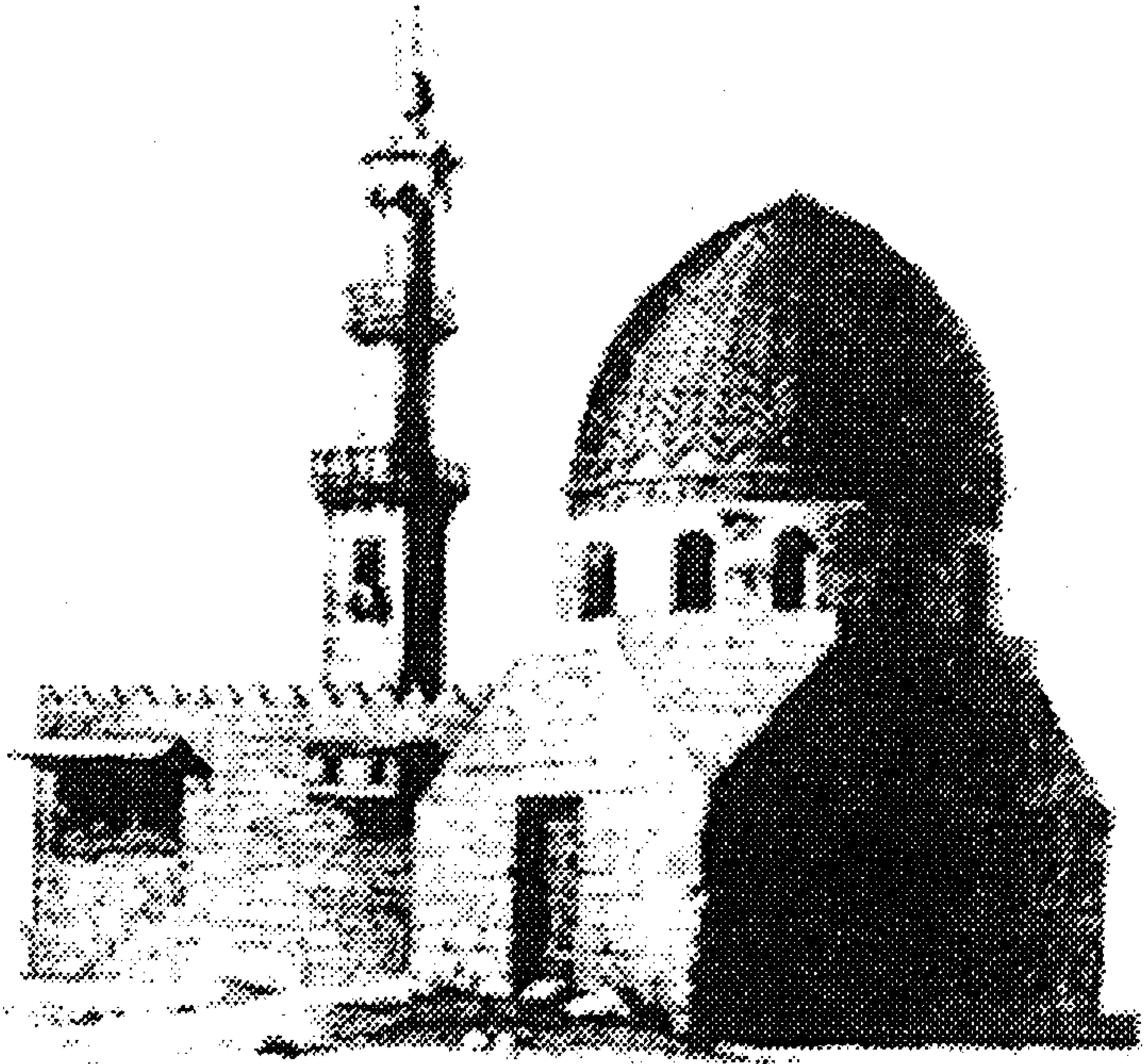
* مخا: بفتح الميم ميناء باليمن على ساحل البحر الأحمر.

* خراف النخل: أى اجتناء ثماره وهى بكسر الخاء وفتحها.

[حياته] إلى الحرمين فمات بمكة فى ذى الحجة سنة إحدى وثمانين وماية وألف.

٣٠٠ عمر بن على ابن يحيى الطحلاوى. ت/١١٨١ هـ = ١٧٦٧م.

[ومات] الشيخ الإمام الثبت العلامة الفقيه المحدث الشيخ/ عمر بن على بن يحيى بن مصطفى الطحلاوى المالكى الأزهرى، تفقه على الشيخ سالم النفراوى وحضر دروس الشيخ منصور المنوفى والشهاب ابن الفقيه والشيخ محمد الصغير الورزازى والشيخ أحمد الملوى والشبراوى والبليدى، وسمع الحديث عن الشهابين أحمد البابلى والشيخ أحمد العماوى وأبى الحسن على ابن أحمد الحريشى الفاسى، وتمهر فى الفنون ودرّس بالجامع الأزهر وبالمشهد الحسينى واشتهر أمره وطار صيته وأشير إليه بالتقدم فى العلوم وتوجه إلى دار السلطنة فى مهم اقتضى لأمراء مصر فقوبل بالاجابة، وألقى هناك دروساً فى الحديث فى آيا صوفية، وتلقى عنه أكابر العلماء هناك فى ذلك الوقت وصُرف معززاً مقضياً حوايجهُ، وذلك فى سنة سبع وأربعين وماية وألف، ولما تمم عثمان كتخدا القازدغلى بناء مسجده بالأزبكية فى تلك السنة تعين المترجَم للتدريس فيه وذلك قبل سفره إلى الديار الرومية، وكان مشهوراً فى حسن التقرير وعذوبة البيان وجودة الإلقاء، وأقرأ الموطّا وغيره بالمشهد الحسينى، وأفاد وأجاز الأشياخ، وكان يطلع فى كل جمعة إلى المرحوم حمزة باشا مرة فيسمع عليه الحديث وكان للناس فيه اعتقاد حسن وعليه هيبة ووقار وسكون ولكلامه (ص٦٩٦) وقع فى القلوب. توفى ليلة الخميس حادي عشر صفر سنة إحدى وثمانين وماية وألف وصلى عليه بصباحه فى الأزهر فى مشهد حافل ودفن بالمجاورين، رحمه الله.



٣٠١ عبد الوهاب الشربينى.
ت/ ١١٨١ هـ = ١٧٦٧م.

[ومات] الوجيه الصالح الشيخ/ عبد الوهاب بن زين الدين بن عبد الوهاب ابن نور الدين بن بايزيد بن أحمد بن القطب شمس الدين بن أبى المفاخر محمد بن داود الشربينى الشافعى، وهو أحد الإخوة الثلاثة وهو أكبرهم، تولى النظر والمشيخة بمقام جَده بعد أبيه فسار فيها سيراً مليحاً وأحْيا المآثر بعد ما اندرست وعمر الزاوية وأكرم الوافدين وأقام حلقة الذكر كل يوم وليلة بالمسجد، ويغدق على المنشدين، وورد مصر مراراً منها صحبة والده ومنها بعد وفاته والف باسمه شيخنا السيد مرتضى رسالة فى الطريقة الأوبسية سماها (عقيلة الأتراب فى سند الطريقة والأحزاب) وفى آخره أتى إلى مصر لمقتض، ومرض نحو ثلاثة أيام. وتوفى ليلة الأحد غرة ذى القعدة سنة إحدى وثمانين ومائة

وألف، وغسل وكفن وذهبوا به إلى بلده فدفنوه عند أسلافه.

٣٠٢ محمد بن سالم الحفناوى الخلوتى.

[ومات] الشيخ الامام العلامة الهمام أوحد أهل زمانه علما وعمل ومن أدرك ما لم تدركه الأول المشهود له بالكمال والتحقيق والمجمع على تقدمه فى كل فريق شمس الملة والدين/ محمد بن سالم الحفناوى الشافعى الخلوتى وهو شريف حسينى من جهة أم أبيه وهى السيدة ترك ابنة السيد سالم بن محمد بن على بن عبد الكريم ابن السيد برطع المدفون ببركة الحاج وينتهى نسبه إلى الامام الحسين رضى الله عنه، (ص٦٩٧) وكان والده مستوفياً عند بعض الأمراء بمصر، وكان على غاية من العفاف ولد على رأس المائة ببلده حفنا بالقصر قرية من أعمال بلبيس وبها نشأ، والنسبة إليها حفناوى وحفنى وحفنوى، وغلبت عليه النسبة حتى صار لا يذكر إلا بها، وقرأ بها القرآن إلى سورة الشعراء ثم حجزه أبوه باشارة الشيخ عبد الرءوف البشبيشى وعمره أربع عشرة سنة بالقاهرة فكمل حفظ القرآن ثم اشتغل بحفظ المتون، فحفظ ألفيه ابن مالك والسلم والجوهرة والرحبية وأبا شجاع وغير ذلك، وأخذ العلم عن علماء عصره واجتهد ولازم دروسهم حتى تمهر وأقرأ ودرّس وأفاد فى حياة أشياخه وأجازوه بالافتاء والتدريس فأقرأ الكتب الدقيقة كالأشمونى وجمع الجوامع والمهج ومختصر السعد وغير ذلك من كتب الفقه والمنطق والأصول والحديث والكلام عام اثنتين وعشرين، وأشياخه الذين أخذ عنهم وتخرج عليهم الشيخ أحمد الخليفى والشيخ محمد الديربى والشيخ عبد الرءوف البشبيشى والشيخ أحمد الملوى والشيخ محمد السجاعى والشيخ يوسف الملوى والشيخ عبده الديوى

والشيخ محمد الصغير، ومن أجلّ شيوخه الذين تخرج بالسند عنهم الشيخ محمد البديرى الدمياطى الشهير بابن الميت، أخذ عنه التفسير والحديث والمسندات والمسلسلات والإحياء للامام الغزالى وصحيح البخارى ومسلم وسنن أبى داود وسنن النسائى وسنن ابن ماجه والموطأ ومسند الشافعى والمعجم الكبير للطبرانى والمعجم الأوسط والصغير له أيضاً وصحيح ابن حبان والمستدرك (ص٦٩٨) للنيسابورى والحلية للحافظ أبى نعيم وغير ذلك، وشهد له معاصروه بالتقدم فى العلوم، وحين جلس للإفادة لازمه جل طلبة العلم ومن بهم يسمو المعقول والمنقول وكان اذ ذاك فى شدة من ضيق العيش والنفقة فأشترى دواة وأقلاما وأوراقا واشتغل بنسخ الكتب فشق عليه ذلك خوفا من انقطاعه عن العلم فبينما هو فى بعض الدروس إذ جاءه رجل وانتظره حتى فرغ من الدرس فقال له «يا سيدى أريد أن أكلمك كلمتين» وأشار إلى مكان قريب فسار معه حتى انتهيا إلى المدرسة العينية فدخلاها ثم جلسا فأخرج الرجل محرمة ملآنة بالدراهم وقال له «يا سيدى فلان يسلم عليك وقد بعث لك معى بهذه الدراهم ويريد أن يحظى بقبولها» فأخذها منه وفتحها وملا كفه من الدراهم وأراد اعطاءها لحاملها فامتنع وحلف لا يأخذ منها شيئاً ثم فارقه ذلك الرجل وذهب الشيخ إلى البيت وكسر الأقلام والدواة فاقبلت عليه الدنيا من حينئذ، وكان يتردد إلى زاوية سيدى شاهين الخلوتى بسفح الجبل ويمكث فيها الليالى متحنثا* وأقبل على العلم وعقد الدروس وختم الختوم بحضرة جمع العلماء وأقرأ المنهاج مرات وكتب عليه، وكذلك جمع الجوامع والأشمونى ومختصر السعد وحاشية حفيده عليه

* متحنثا: أى متعبدا.

كتب عليها وقرأها غير مرة، وكان الشيخ العلامة مصطفى العزيزى إذا رفُع اليه سؤال يرسله اليه، واشتغل بعلم العروض حتى برع فيه وعانى النظم والنثر وتخرج عليه غالبُ أهل عصره وطبقته (ص٦٩٩) ومن دونهم كأخيه العلامة الشيخ يوسف والشيخ اسماعيل الغنيمى صاحب التآليف البديعة والتحريرات الرفيعة المتوفى سنة إحدى وستين وشيخ الشيوخ الشيخ على العدوى والشيخ محمد الغيلانى والشيخ محمد الزهار نزيل المحلة الكبرى وغيرهم كما هو فى تراجم المذكورين منهم، وكان على مجالسه هيبة ووقار ولا يسأله أحد لمهابته وجلالته، ولم يعان التأليف لاشتغاله بالإلقاء والإقراء، فمن تآليفه المشهورة حاشية على شرح رسالة العضد للسعد وعلى الشنشورى فى الفرايض وعلى شرح الهمزية لابن حجر وعلى مختصر السعد وعلى شرح السمرقندى للياسمينية فى الجبر والمقابلة، وله تصانيف أخرى مشهورة، وكان كريم الطبع جداً وليس للدنيا عنده قدر ولا قيمة، جميل السجايا مهيب الشكل عظيم اللحية أبيضها كأن على وجهه قنديلا من النور، وكان كريم* العين على إحداهما نقطة وأكثر الناس لا يعلمون ذلك لجلالته ومهابته، وكان فى الحلم على جانب عظيم، ومن مكارم أخلاقه إصغاؤه لكلام كل متكلم، ولو من الخزعبلات مع انبساطه اليه واظهار المحبة ولو أطال عليه، ومن رآه مدعياً شيئاً سلم له فى دعواه، ومن مكارم أخلاقه أنه لو سأل إنسان أعزّ حاجة عليه أعطاها له كاينة ما كانت ويجد لذلك أنسا وانشراحا، ولا يعلق أمله بشىء من الدنيا، وله صدقات وصلات خفية وظاهرة، وكان راتب بيته من الخبز فى كل يوم نحو الإردب والطاحون دايمةُ الدوران

* كريم العين: إعتاد المصريون اطلاق الفاظ روحية على اصحاب العاهات مثل «كريم العين للأعور والبصير بقلبه للأعمى.

وكذلك دق البن وشربات (ص٧٠٠) السكر ولاينقطع ورود الواردين ليلا ونهاراً ويجتمع على مائدته الأربعون والخمسون والستون، ويصرف على بيوت أتباعه والمنتسبين اليه، وشاع ذكرع فى أقطار الأرض، وأقبل عليه الوافدون بالطول والعرض، وهادته الملوك، وقصده الأمير والصعلوك، فكل من طلب شيئاً من أمور الدنيا أو الآخرة وجده، وكان رزقه فيضاً إلهيا، وذكر الشيخ حسن شمه فى كتابه الذى ألّفه فى نسب الأستاذ ومناقبه قال: «كنت مع الشيخ يوماً فى منتزه فجلست فى ناحية أكتب فى المقامة التى وضعتها فى مدحه المسماة (بفيض المغنى بمدح الحفنى) وجعلتها مشتملة على سائر الفنون الشعرية التى هى النسب والموشح والدوبيت* والزجل وكان وكان والقوما والحماق والمواليا بأنواعه الثلاثة القرقيا والبليق والمكفر وعلى نبذة من الموشحات والمحسنات البديعية كالمعطلات والحية الرقطاء ووسع الاطلاع وحسن الصنيع والمشجر والجناس واللغز والمعمى والمصحف والقلب ونوعى الاقتباس، وكنت إذ ذاك فى فن المواليا فعملت مواليا قرقيا وهو:

قالوا تحب المدمس قلت بالزيت حار
والعيش الابيض تحبه قلت والكشكار
قالوا تحب المطبق قلت بالقنطار
قالوا اش تقول فى الخضارى* قلت عقلى طار

فقال لى أنت فيم تكتب فأخبرته وأنشدته المواليا فضحك وقال لى ممازحاً أنا لا أحبه بالزيت الحار وإنما (ص٧٠١) أحبه بالسمن وأنشد:

* الدوبيت: هى المقطوعة الشعرية المكونة من بيتين بقافية واحدة.

* فنون الشعر:
النسب. الموشح. الدوبيت. الزجل.
كان كان. القوما. الحماق.
الموال بأنواعه الثلاث:
١ ـ القرقيا.
٢ ـ البليق.
٣ ـ المكفر.

* المحسنات البديعية:
المعطلات. الحية الرقطاء. المصحف.
وسع الاطلاع. حسن الصنيع.
المشجر. الجناس. اللغز. المعمى. القلب.
الاقتباس

* الخضارى: بضم الخاء طائر مهاجر أصفر اللون ضارب إلى الخضرة.

قـــالوا تحب المدمس قلت بالمسلى
والبـيض مـشـوى تحـبـه قلت والمقلى

قال وقد شرحت هذا المواليا بلسان القوم شرحا لطيفا، ثم قال لى: أحدتك حدوته بالزيت ملتوته حلفت ما اكلها حتى يجى التاجر والتاجر فوق السطوح والسطوح عاوز سلم والسلم عند النجار والنجار عاوز مسمار والمسمار عند الحداد والحداد عاوز بيضه والبيضة فى بطن الفرخة والفرخة عاوزة قمحه والقمحه فى الأجران والأجران عاوزه الدراس تدرى ما معنى هذه؟ قلت لا أعلم الا ما علمتنى (فقال أحدتك حدوته بالزيت ملتوتة) يعنى السر الإلهى والسلاف الأحمدى الأوّاهى الممزوج براح القرب والتقريب المدار من يد الحبيب (حلفت ما آكلها) أى أتناولها فإن المقصد لا يتم بلا وسيلة والسالك قبل كل شىء يحصل دليله (حتى يجى التاجر) أى المسلّك العامر والمراد به المرشد الكامل والمربى الواصل (والتاجر فوق السطوح) يتلقى معارج الروح لا يذهب ولا يروح بل إليهُ يراح وبه تنتعش الأرواح (والسطوح عاوز سلم) يُتوصل به إليه. حيث أن المدار عليه إذ لا يمكن صعود بلا معراج ولو أمكن لفعل بالأولى صاحب المعراج (والسلم عند النجار) أى له صاحب مخصوص لإقامته ومركب يركبه من آلته هو النجار وهو الأستاذ الكامل المسلك الواصل (والنجار عاوز مسمار) يثبت (ص٢٠٧) به سلم القرب والوصل كى يوصل لمنازل الحصول (والمسمار عند الحداد) صانعه المخصوص به، المقيم ببحبوح سربة (والحداد عاوز بيضة) إذ لا يكون شىء بلا شىء، والغالى لا يفرط فيه حىّ، ومن عمل عملا وأتم أمره استحق على عمله الأجرة

(والبيضة فى بطن الفرخة) فمن أرادها فلينصب فخه فإنها مخبوءة فى صدفها ومنفردة عن صنفها (والفرخة عاوزه قمحة) كى تتنفس بها فتنفخ نفخة لتلقى ما فى جوفها وذلك من ذعرتها وخوفها (والقمحة فى الأجران) لأنها ظرفها والعنان (والأجران عاوزة الدراس) ودراسها ليس إلا الجد والاجتهاد لمن أراد أن يرتع فى رياض الإسعاد، فكل هذه درجات للسالك يصعدها، ومسافة لسيره يقطعها، وثم خواص طويت لهم السبل كلها، ونالوا كل ما راموا من مشتهى، انتهى، فانظر رحمك الله هذا المزح الذى هو حقيقة الجد .

(ومما سمع من إنشاده فى الدياجى موشح الدلنجاوى):

يا هلالا قد بدا لى
من ورا الحجب
فى جلابيب الكمال
مادروا صحبى
إن قلبا منك خالى
ليس بالقلب
وفؤاداً عنك سالى
واجب السلب

(ثم أنشد مواليا):

بحياة ياليل قوامك وصوم الحر
تحجز لنا الفجر دافوت الرفاقة حر
لما يجى الفجر يصبح ركبهم منجر (ص٧٠٣)
ازداد لوعة ولا عمرى بقيت أنسر

(وكرره ثم أنشد):

أأظمــا وأنت العــذب فى كل منهل؟
وأظلم فى الدنيــا وأنت نصــيــرى؟
خــبــيــر بضــعــفى راحم لشكيتى
وقــدير على تيــســيــر كل عــســيــر
عــار على راعى الحــمى وهو فى الحمى
إذا ضــاع فى البيــدا عــقــال بعــيــر

(وأنشد أيضاً):

إن وجدُتْ أو جرّت أو صديت أو جافيت
أو حلت أو ملت أو واصلت أو وافــيتّ
أنِت الحبيب الذى فى القلب قد حَليت
ونا على العــهــد مــا خنتك ولا اختليتْ

(ثم أنشد)

يا من إذا قلت يا كل المنى صل صــال
صلنى بمن خلق الإنســان من صلصــالْ
إذا تذكـــرت ريقـــاً بارداً سلســـال
وقلت يا دمع عــينى بالدمــا سِلْ ســالْ

(قال) الشيخ حسن قلت له ما أبلغ بيت السبعينية:

خطرات النســـيم تجــرح خـــديه
ولمس الحــــــرير يدمى بنــانه

(فقال) لى أبلغ منه قوله

توهمــــه قلبى فـــأصـــبح خـــده
وفــيـــه مكانَ الوهم من نظرى أثرُ



ومر بفكري جسمه فجرحته (ص٧٠٤)

ولم أر جسـما قَط يجـرحـه الفكرُ

(قال) وسمعته كثيراً ما ينشد في الدياجي:

خل الغـرام لصب دمـعـه دمـه

حيـرانَ توجـده الذكـرى وتعـدَمـه

واسـمع له بعـلاقـاتٍ علقن به

لو اطّلعتَ عليـهـا كنت ترحـمـه

(قال) وسمعته مرة ينشد:

لو فـتـشـوا قلبي لألْفـوا به

سطرين قـد خُطّا بلا كـاتب

العلمُ والتـوحـيـدُ في جـانب

وحبُّ آلِ البـيـتِ في جـانب

(وانشد مرة أيضا):

خبز وماء وظل
هم النعيم الأجَل
جحدت نُعمةَ ربى
إن قلتُ إنى مقلٌ

(وقال) لى مرة كان عندنا شاعر يدّعى النظم ومعرفته، فطارحنى فيه يوما فقلت له أكتب ما حضرنى ونظمت بيتين وهما:

بحار شوقى بأمواج الهوى عبثت
ومزقت حبل وصلى فى مجاريها
وحرّمت مقلتى طيب الكرى شغفا
بشادنٍ قد سبى ريم الفلا تيها

(قال) فأذعن الشاعر بفضله وعجب من قوة استحضاره. ودخل الشيخ المنوفى على الشيخ الخليفى وهو جالس عنده متشفعاً فى جماعة متجاهرين بالمعاصى، وكان الشيخ الخليفى قد طردهم (ص٧٠٥) وغضب عليهم فسأله المنوفى فى الرضا عنهم فقال له «إذا كنت أرضى عنهم فان الله لا يرضى كما قال فى كتابه العزيز» فقال الأستاذ الحفنى قد حضرنى بيتان فقيل له ما هما فقال:

أتطلبون رضائى الآن عن نفر
قلوبهم بنفاق لم تزل مرضى
تجاهروا بقبيح الفسق لاربحوا
إن كنت أرضى فان الله لا يرضى

وقال من بحر الهزج:

رعـــــــاك الـلـه يـا قـلـبـى
إذا مــــــا ملـت لـلـقـلـب
ولا بُـــلِّـــغـــت يـــا واشـــى
لمـا فـى طيِّـــــــه سـلـبـى
فـــمـــهـــلا يا خلى مـــهـــلا
فـــدينى فى الهـــوى حـــبى

وقد شطر هذه الأبيات مولانا السيد البكرى الصدّيقى وخمسّها وشطرها غيرُ واحد غيَره، وقال عام رحلته إلى بيت المقدس لزيارة السيد الصدّيقى مادحاً جنابه بقصيدة من بحر المجتث:

يا مـــبـــتـــغى أن يحـــيـــا
برشف كـــأس الحـــمـــيّـــا
وســـــالـكـا نـهـج قـــــوم
شـــامـــوا جـــمـــال المحـــيـــا
ســـــامـــــوا لـربح المعـــــالى
طابوا مماتاً ومـــحـــيـــا
واســـتـنـشـــقـــوا طِيبَ عَـــرْف
أحـــيـــا المعنّى وحـــيّـــا
اخـــــرج عـن الـنـفـس والـزم
بـابـا كـــــريما عـلـيّـــــا
وقـم بِـسُـــــدّة فـــــضـل
بهـــا الكمـــال تهـــيـــا
وطف بكعـــبـــة خـــيـــر
واجـــملن منك ســـعـــيـــا
تـراك فـــــزت بـقـــــرب
وحـــزت ســـراً وفـــيّـــا

من حضرة قد تسامتْ
ذرا المعالى رُقيّا
(ص٧٠٦) قد اصطفاها لسرٍ
ثم ارتضاها سميّا
محمدىٌ مقام
نال المقام السنيّا
أجلُّ، من يتصدى
للناس يمنح هَديا
سِبْط الحسين وصنو
خالى من اللهو أعيا
يا ابن الرفيق بغار
وابن العتيق فهيّا
لابنٍ رهين صروف
عما يروم نئيا
فوجهنّ لنحوى
قلبا به الميتُ يحيا
وقل محمدنا اشرب
منا شرابا صفيّا
حسبكم من سواكم
أمسى غريبا عريّا
صلى وسلم ربَى
على الرسول المحيّا
والآل ما قال صَبٌ
يا مبتغى أن يُحيا

وكان لاشتغاله بالالقاء والإقراء للعلم لا يعانى النظم كثيراً، وله مواليا من المكفر، المواليا على ثلاثة أقسام قرقيا وبليق ومكفر، فالقرقيا ما اشتمل على الهزل، والبليق ما اشتمل

على الغزل، والمكفِر بكسر الفاء ما اشتمل على المواعظ،
(فمن ذلك قوله):

يا مبتغى طرق أهل الله والتسليك
دع عنك أهل الهوى تسلم من التشكيك
إن أذكرونى لرد المعترض يكفيك
فاجعل سُلاف الجلالة دايما فى فيك

وقوله:

بالله يا قلب دع عنك الهوى واسلم
من كل ميل ووافى عهدهم اسلم
والزم حمى سادة من أمهم يسلم (ص٧٠٧)
واسلك سبيل التقى يوم اللقا تسلم

وقوله:

حرك جواد الهمم واسلك طريق الحق
واصحب معك زاد أهل المعرفة والحق
ولا تمل للسوى تحرق بنار الفرق
وادخل جنان التقى تظفر بثانى فرق

وله من البليق:

خطر عَليّا غزالى مر ما اتكلم
فوق جفونه وقلبى والحشا كلمْ
ايش كان يضره إذا بالراس لى سلم
حتى أسَرْ مهجتى لولا السلام سلمْ

(ومن) مراسلاته لبعض تلامذته: أما بعد إهداء سلام بسر الحب نام تام للحبيب الصفى، ومن بالعهد وفى، السرى الأسعد، أحمدنا الأحمد جمّلنا الله وإياه بلباس التقوى،

* رسالة أدبية تربوية من عهد الجبرتى.

وثبتنا وإياه على التمسك بسبب الوصول الأقوى، فقد وصلت الرسايل، المنبئة بحفظ الوسايل، المشعرة بالصفا، والقيام على قدم الوفا، والذى به نوصيك، وبسره الخفى نوافيك، أن تدوم منتبها لتحرك النفس، فى كل حركة ونفس، خصوصا عند اقبال العباد، وطلبهم الفايدة والارشاد، فانها ولو للمعمرين بالمرصاد، فلا ينبغى أن يغمد عنها سيف الجهاد، ومن زاد عليك اقباله، وتوجهت إليك بالصدق آماله، فاصرف قلبك إليه، وعوّل فى التربية عليه، (ص٧٠٨) ومن عنك بهواه صد، بعد أخذك عليه وثيق العهد، فدعه ولا تشغل به البال، وأنشدْه قولَ استاذنا لمن عن طريقنا قد مال:

ألم تدر أنا مَنْ قلانا سفاهةَ
تركناه غب الوصل يعمى بصدّه
ومن صدّ عنا حسبه الصدُّ والجفا
وأن الردى أصماه من بعد بُعده
ومن فاتنا يكفيه أنا نفوتهُ
وأنا نكافيه على تركِ حمده
وأنا غداً لما نَعُدّ محبّنا
وأتباعنا لسنانَهُمّ بعدّه

ومن أردت زجره للتربية وارشاده، فليكن ذلك عند الانفراد إذ هو أرجى لاسعاده، ولا تزجر بضرب ولا نهر بين الناس: فان ذلك ربما أوقع المريد فى الباس، ولا تلتفت لمن أعرض، ولا لمن يصحبك باحسان، والأدب واللطف محمودان، والغلظة والحقد موبقان، فاطرح القال والقيل، واصفح الصفح الجميل، ولك ولكل من أخذ عنك أو أحبك منا

ومن أهل سلسلة طريقنا ما سرّك، فأبشر إن عملت بما أشرنا بكل خير، ومزيد الفتح والمسير فى السير، وللشيخ رضى الله عنه مناقب ومكاشفات وكرامات وبشارات وخوارق عادات يطول شرحها ذكرها الشيخ (ص٧٠٩) حسن المكى المعروف بشمه فى كتابه الذى جمعه فى خصوص الأستاذ، وكذلك العلامة الشيخ محمد الدمنهورى المعروف بالهلباوى له مؤلف فى مناقب الشيخ ومدايحه وغير ذلك.

وصل فى ذكر أخذ العهد بطريق الخلوتية

وهى نسبة إلى سيدى محمد الخلوتى أحد أهل السلسلة ويعرفون أيضا بالقرباشلية نسبة إلى سيدى على افندى قره باش أحد رجالها أيضا وهذا هو الاسم الخاص المميز لهم عن غيرهم من الخلوتية ولذلك قال السيد البكرى فى الألفية.

والخلوتية الكرام فرق
قد نهجوا نهج الجنيد فرقوا
وخيرهم طريقنا العلية
من قد دعوا بالقَرباشلية

وهى طريقة مؤيدة بالشريعة الغراء والحنيفة السمحاء، ليس فيها تكليف بما لا يطاق وكانت خير الطرق لأن ذكرها الخاص بها (لا إله إلا الله) وهى أفضل ما يقول العبد كما فى الحديث الشريف. وكان المترجَم رضى الله عنه اشتغل بالسلوك وطريق القوم بعد الثلاثين فأخذ على رجل يقال له الشيخ أحمد الشاذلى المغربى المعروف بالمقَّرى فتلقى منه بعض أحزاب وأوراد، ثم قدم السيد البكرى من الشام سنة

ثلاث وثلاثين ومابة وألف فاجتمع عليه الشيخ بواسطة بعض تلامذة السيد، وهو السيد عبد الله السلفيتي فسلم عليه وجلس فجعل السيد ينظر إليه وهو (ص٧١٠) كذلك ينظر إليه فحصل بينهما الارتباط القلبي، ثم قام وجلس بين يدي السيد بعد الاستئذان، وكانت عادة السيد إذا أتاه مريدٌ أمره أولا بالاستخارة قبل ذلك إلا وهو فلم يأمره بها، وذلك إشارة إلى كمال الارتباط، فأخذ عليه العهد حالا ثم اشتغل بالذكر والمجاهدة فرأى في منامه في بعض الليالي السيد البكري والشيخ أحمد الشاذلي المذكور جالسين والشيخ أحمد يعاتبه على دخوله في الطريق ويعاتب أيضاً السيد، فقال له السيد: «هل لك معه حاجة؟» قال: «نعم، لي معه أمانة» وإذا بجريدة خضراء بيد السيد فقال له: «هذه أمانتك؟» ثم انتبه فأخبر السيد فقال له: «هذا اتصال بنا وانفصال عنه وهذه هي النسبة الباطنية التي صار بها سلمان الفارسي وصهيب من أهل البيت». وقال ابن الفارض رضي الله عنه في اليائية:

نسبٌ أقربُ في شرع الهوى
بيننا من نسب من أبوى

وقال في التائية على لسان الصادق صلى الله عليه وسلم:

وإني وإن كنتُ ابنَ آدم صورةَ
فلي فيه معنىً شاهدٌ بالأبوة

فإن آدم له أب من حيث النسبة الظاهرة، وهو أب لآدم من حيث النسبة الباطنة، لأنه نايب عنه في الإرسال ومنبأ بعده

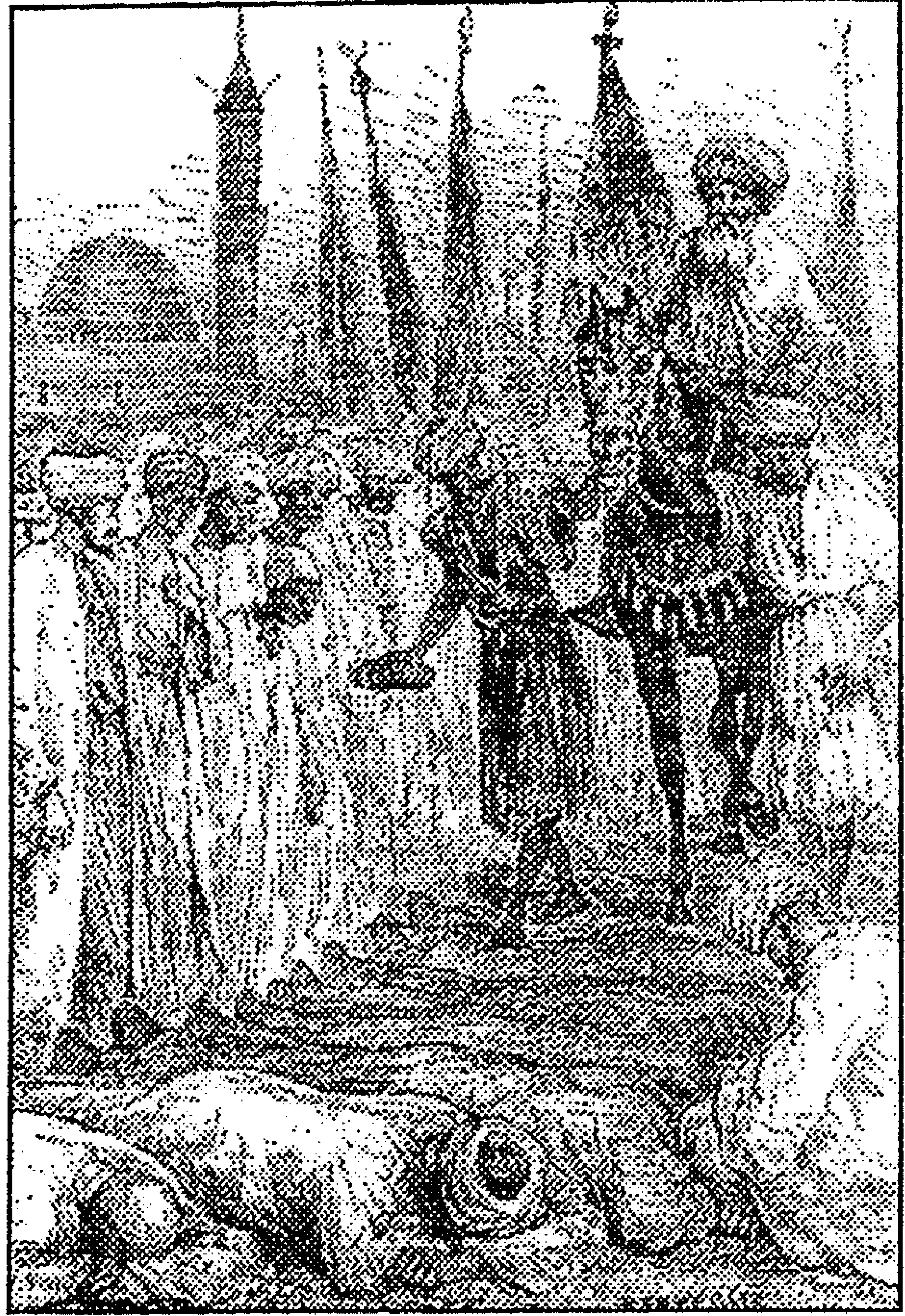
فى الإنزال، ولم يستمد (ص٧١١) من الحضرة العلية إلا بواسطته، ولذلك لما توسل به قُبلت توبته، وزادت محبته، ولم يجعل مهر حواء سوى الصلاة والسلام عليه كما ورد ذلك كله، وهو من المعلوم ضرورة، فظهر بهذا أن هذه النسبة أعظمُ من تلك لترتب الثمرة عليها، ثم سار فى طريقة القوم أتم سير حتى لقنه الأستاذ الاسم الثانى والثالث، ومن حين أخذ عليه العهد لم يقع منه فى حق الشيخ إلا كمال الأدب والصدق التام وهو الذى قدمه وبه ساد أهل عصره، فمن ذلك أنه كان لا يتكلم فى مجلسه أصلا إلا إذا سأله فإنه يجيبه على قدر السؤال، ولم يزل يستعمل ذلك معه حتى أذن له بالتكلم فى مجلسه فى بعض رحلاته إلى القاهرة، وسببه أنه لما رأى إقبال الناس عليه وتوجههم إليه قال له: «انبسط إلى الناس واستقبلهم، لأن يهدىَ الله بك رجلا واحداً خير لك من حمرُ النعم* ».

* الانعام: هى ذوات الخفِ والظِلف وهى الإبل والبقر والغنم، وحمرُ النعَم هى كرائم الأنعام.

ومما اتفق له أن شيخه المذكور قال له مرة «تعال الليلة مع الجماعة واذكروا عندنا فى البيت»، فلما دخل الليل نزل شتاء ومطر شديد فلم يتخلف وذهب حافياً والمطر يسكب عليه وهو يخوض فى الوحَل، فقال له «كيف جيت فى هذه الحالة؟» فقال «يا سيدى أمرتمونا بالمجىء ولم تقيدوه بعذر وأيضاً لا عذر والحالة هذه لإمكان المجى وإن كنت حافياً» فقال له «أحسنت، هذا أول قدم فى الكمال» إلى غير ذلك. ولما علم الشيخ صدق حاله وحسن فعاله، قدمه على خلفائه وأولاه حسن ولائه، ودعاه بالأخ الصادق،

* صورة أخذ العهد فى الطريقة الخلوتية.

ومنحه أسراراً، وأراه عيون الحقايق، وكيفية تلقين الذكر (ص٧١٢) وأخذ العهد كما وجد بخط الأستاذ بظهر ثبت عبد الله بن سالم البصرى ما نصه: هذه صورة أخذ العهد أرسلها إليه السيد البكرى الصديقى الخلوتى حين أذنه بأخذ العهود على طريقة السادة الخلوتية ونص ما كتب كيفية المبايعة للنفس الطايعة أن يجلس المريد بين يدى الأستاذ ويلصق ركبته بركبته والشيخ مستقبل القبلة ويقرأ الفاتحة ويضع يده اليمنى فى يده مسلماً له نفسه مستمداً من إمداده ويقول له قل معى أستغفر الله العظيم ثلاث مرات، ويتعوذ ويقرأ آية التحريم «يأيها الذين آمنوا توبوا إلى الله توبة نصوحاً» إلى «قدير» ثم يقرأ آية المبايعة التى فى الفتح ليزول الاشتباه وهى «إن الذين يعايعونك إنما يايعون الله» اقتداء برسول الله صلى الله عليه وسلم إلى قوله تعالى: «عظيما». ثم يقرأ فاتحة الكتاب ويدعو الله لنفسه وللآخذ بالتوفيق، ويوصيه بالقيام بأوراد الطريق، والدوام على ذوق أهل هذا الفريق، وعرض الخواطر، وقص الرؤيات العواطر، وإذا وقعت الإشارة بتلقين الاسم الثانى، لقنه ليبلغ الأمانى، وفتح له باب توحيد الأفعال، إذ لا غيره فَعّال، وفى الثالث توحيد الأسما، ليشهد السر الأسمى، وفى الرابع توحيد الصفات، ليدرّجه إلى أعلى الصفات، وفى الخامس توحيد الذات، ليحظى بأوفر اللذات، وفى السادس والسابع، يكمل له التوابع، ونسأل الله تعالى الهداية والرعاية، والعناية والدراية، والحمد لله (ص٧١٣) رب العالمين، انتهى.



هذا ما كتب بخطه الشريف، قال ورأيت أيضاً بظهر الثبت المذكور ما نصه ثم رأيت فى «الفتوحات الإلهية فى نفع أرواح الذوات الإنسانية» وهو كتاب نحو كراس لشيخ الإسلام زكريا الأنصارى ما نصه: إذا أراد الشيخ أن يأخذ العهد على المريد فليتطهر وليأمره بالتطهر من الحدث والخبث ليتهيأ لقبول ما يلقيه إليه من الشروط فى الطريق ويتوجه إلى الله تعالى ويسأله القبول لهما، ويتوسل إليه فى ذلك بمحمد صلى الله عليه وسلم، لأنه الواسطة بينه وبين خلقه، ويضع يده اليمنى على يد المريد اليمنى بأن يضع راحته على راحته ويقبض إبهامه بأصابعه ويتعوذ ويبسمل ثم يقول: «الحمد لله رب العالمين أستغفرُ اللهَ العظيم الذى لا إله إلا هو الحىَّ القيوم وأتوب إليه وصلى الله على سيدنا



محمد وعلى آله وصحبه وسلم». ويقول المريد بعده مثل ما قال، ثم يقول: «اللهم إنى أشهدك وأشهدُ ملائكتَك وأنبياءَك ورسلَك وأولياءَك أنى قد قبلته شيخاً فى الله ومرشداً وداعيا إليه، ثم يقول الشيخ: «اللهم إنى أشهدك وأشهد ملائكتك وأنبياءَك ورسلك وأولياءك أنى قد قبلته ولداً فى الله فاقبله وأقبل عليه، وكن له ولا تكن عليه»، ثم يدعو كأنْ يقول: «اللهم أصلحنا وأصلح بنا، واهدنا واهد بنا، وأرشدنا وأرشد بنا، اللهم أرنا الحق حقا وألهمنا اتباعه، وأرنا الباطل باطلا وارزقنا اجتنابه، اللهم اقطع عنا كل قاطع يقطعنا عنك، لا تقطعنا عنك، ولا تشغلنا (ص٧١٤) بغيرك عنك» انتهى، قلت والمراتب السبعة التى أشار إليها السيد فى الكيفية المتقدمة هى مراتب الأسماء السبعة وللنفس فى كل مرتبة منها مرتبة باسم خاص دالٍ عليها، الأسم الأول (لا

إله إلا الله) وتسمى النفس فيه (أمارة) والثانى (الله) وتسمى النفس فيه (لوامة) والثالث (هو) وتسمى النفس فيه (ملهمة) والرابع (حق) وهو أول قدم يحله المريد من الولاية كما مرت الاشارة إليه وتسمى النفس فيه (مطمئنة) والخامس (حى) وتسمى النفس فيه راضية والسادس (قيوم) وتسمى النفس فيه (مرضية) والسابع (قهّار) وتسمى النفس فيه (كاملة) وهو غاية التلقين، وكلها ماعدا الأول منها تلقن فى الأذن اليمنى الا السابع ففى اليسرى وتلقينها بحسب ما يراه الشيخ من أحوال المريدين أفعال وأقوال وعالم مثال، واعلم ان سلسلةَ القوم هذه فى كيفية أخذ العهد والتلقين مرويةٌ عن النبى صلى الله عليه وسلم وهو يرويه عن جبريل، وهو يرويه عن الله عزوجل، وفى بعض الروايات روايته عن رؤساء الملايكة الأربع، والنبى صلى الله عليه وسلم لقن عليا رضى الله عنه، وصورة ذلك كما فى «ريحان القلوب فى التوصل إلى المحبوب» لسيدى يوسف العجمى أن عليا سأل رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال «يا رسول الله دلنى على أقرب الطرق إلى الله تعالى» فقال «يا على عليك بمداومة ذكر الله فى الخلوات» فقال (ص٧١٥) علىّ رضى الله عنه «هذا فضيلة الذكر وكل الناس ذاكرون» فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم «يا على لا تقوم الساعة وعلى وجه الأرض من يقول الله» فقال على «كيف أذكر يا رسول الله» قال «غمض عينيك واسمع منى ثلاث مرات ثم قل أنت ثلاث مرات وأنا أسمع» فقال النبى صلى الله عليه وسلم «لا إله إلا الله» ثلاث مرات مغمضا عينيه رافعا صوته وعلى يسمع ثم قال على «لا إله إلا الله» ثلاث مرات مغمّضا عينيه رافعا صوته

* سلسلة أخذ العهد كما رواها النبى محمد.

والنبى صلى الله عليه وسلم يسمع، ثم لقن عليٌ الحسن البصرى رضى الله عنهما على الصحيح عند أهل السلسلة الأخيار من المحدثين، قال الحافظ السيوطى: الراجح أن البصرى أخذ عن على ومثله عن الضياء المقدسى. ومن المقرر فى الأصول أن المثبت مقدم على النافى، ثم لقن الحسنُ البصرىُ حبيباً العجمى وهو لقن أبا القاسم سيد الطائفتين الجنيد البغدادى وعنه تفرقت سائر الطرق المشهورة فى الإسلام ثم لقن عمر البكرى وهو لقن أبا النجيب السُهْرَوَرْدى وهو لقن قطب الدين الأبهرى، وهو لقن محمداً النجاشى، وهو لقن شهاب الدين الشيرازى، وهو لقن جلال الدين التبريزى، وهو لقن إبراهيم الكيلانى، وهو لقْن أخى محمداً الخلوتى واليه نسبة أهل الطريق، وهو لقن بير عمر الخلوتى، وهو لقن (ص٧١٦) أخى بيرام الخلوتى وهو لقن عز الدين الخلوتى، وهو لقن صدر الدين الحيانى وهو لقن يحى الشروانى صاحب ورد الستار وهو لقن بير محمد الأرزنجانى وهو لقن جلبى سلطان المشهور بجلبى خليفة وهو لقن خير التوقادى وهو لقن شعبان القسطمونى وهو لقن إسماعيل الجوررومى، وهو المدفون فى باب الصغير فى بيت المقدس عند مرقدسيدى بلال الحبشى، وهو لقن سيدى على أفندى قره باش، أى أسود الرأس باللغة التركية، وإليه نسبة طريقنا كما مر، وهو لقن مصطفى أفندى ولده، وخلفاؤه كما قال السيد الصديقى أربعماية ونيف وأربعون خليفة، وهو لقن عبد اللطيف بن حسام الدين الحلبى وهو لقن شمس الطريقة وبرهان الحقيقة السيد مصطفى بن كمال الدين البكرى الصديقى وهو لقن قطب رحاها، ومقصد سرها ونجواها، شيخنا الشيخ محمد الحفناوى، وهو

لقن وخلف أشياخا كثيرة منهم:
بركة المسلمين، وكهف الواصلين، الصوفى الصايم القايم العابد الزاهد الشيخ محمد السمنودى المعروف بالمنير شيخ القراء والمحدثين، وصدر الفقها والمتكلمين، من مناقبه الحميدة صيام الدهر مع عدم التكلف لذلك وقيام الليل يقرأ فى كل ركعة ثلث القرآن وربما قرأ نصفه أو جميعه فى كل ركعة، هذا ورده دايماً صيفاً وشتا فتى وشيخا ويافعا، ومنها تواضعه وخموله وعدم رؤية نفسه، ويبرأ من أن تنسب إليه منقبة، وسيأتى باقى ترجمته فى وفاته.
(ومنهم) علامة وقته وأوانه الولى الصوفى الشيخ حسن الشيبينى ثم الفُوّى، طلب العلم وبرع فيه وفاق على أقرانه ثم جذبته أيدى العناية إلى الشيخ فاخذ (ص٧١٧) عليه العهد ولقنه أسماء الطريق السبعة على حسب سلوكه فى سيره، ثم ألبسه التاج وأجازه بأخذ العهود والتلقين والتسليك، وصار خليفة محضا فأدار مجالس الذكر ودعا الناس إليها من ساير الأقطار وفتح الله عليه باب العرفان، حتى صار ينطق بأسرار القرآن.
(ومنهم) العالم النحرير الصوفى الصالح السالك الراجح الشيخ محمد السنهورى ثم الفوى، طلب العلم حتى صار من أهل الإفتاء والتدريس، وانتصب للتأكيد والتأسيس، ثم دعته سعادة حضرة القوم فسلك مع المجاهدة وحسن السيرة على يد الأستاذ حتى لقنه الأسماء السبعة وألبسه التاج، وأقامه خليفة يهدى لأقوم منهاج، ثم أذن له فى التوجه إلى بلده فتوجه إليها وربى بها المريدين وأدار مجالس الأذكار بتلك البقاع، وعم به فى الوجود الانتفاع.
(ومنهم) البحر الزاخر، حايز مراتب المفاخر، الولى الربانى

والصوفى فى العالم الإنسانى الشيخ محمد الزعيرى، اشتغل بالعلم حتى برع وصار قدوة لكل مقتدى، وجذوة لمن لا يهتدى، ثم سلك على يد الأستاذ فاخذ عليه العهد ولقنه الأسماء على حسب سيره وسلوكه، ثم خلفه وألبسه التاج وأجازه بالتلقين والتسليك.

(ومنهم) الحبر العلامة والبحر الفهامة شيخ الإفتاء والتدريس الشيخ خضر رسلان، اشتغل عل الشيخ مدة مديدة، ولازمه ملازمة شديدة، وأخذ عليه العهد فى طريق الخلوتية حتى تلقن الأسماء وألبسه الشيخ التاج وصار خليفة مجازاً باخذ العهود والتسليك.

(ومنهم) الشيخ الصوفى الولى صاحب الكرامات، والأيادى والمكرمات، شيخنا الشيخ محمود الكردى أخذ على الشيخ العهد والطريق ولقنه الأسماء فكان محمود الأفعال، معروفا بالكمال، (ص٧١٨) ثم ألبسه التاج وصار خليفة وأجازه بالتلقين والتسليك فارشد الناس، وأزال عن قلوبهم الوسواس وهو مشهور البركة يعتقده الخاص والعام كثير الرؤية لرسول الله صلى الله عليه وسلم، ومن كراماته أنه متى أراد رؤية النبى صلى الله عليه وسلم رآه، وله مكاشفات عجيبة نفعنا الله بحبِّه، ولا حجبنا عن قربه، وهو الذى قام للإرشاد والتسليك بعد انتقال شيخه، وسلك على يده كثير وخلفوه من بعده منهم: الشيخ الصالح الصوفى الشيخ محمد السقاط والشيخ العلامة شيخ الإسلام والمسلمين مولانا الشيخ عبد الله الشرقاوى شيخ الجامع الأزهر الآن والإمام الأوحد الشيخ محمد بدير الذى هو الآن بالقدس الشريف، والمشار إليه فى التسليك بتلك الديار، والشيخ الصالح الناجح إبراهيم الحلبى الحنفى، والسيد الأجل العلامة

والرَّحلة الفهامة السيد عبد القادر الطرابلسى الحنفى، والشيخ الإمام، العمدة الهمام، الشيخ عمر البابلى وغيرهم، أدام الله النفع بوجودهمْ.

(ومنهم) العالم العلامة الألمعى الفهامة بقية السلف، والخليفة ونعم الخلف، الشيخ محمد سِبْط الأستاذ المترجَم أطال الله بقاءه.

(ومنهم) الشيخ الفهامة الأديب الأريب، واللوذعى النجيب، الشيخ محمد الهلباوى الشهير بالدمنهورى الشافعى.

(ومنهم) الشيخ الصوفى القدوة الشيخ أحمد الغزالى، تلقن منه الأسماء وتخلف عنه وألبسه التاج وأجازه بالتلقين والتسليك.

(ومنهم) العالم العامل الشيخ أحمد القُحافى الأنصارى، أخذ العهد وانتظم فى سلك أهل الطريق وتلقن الأسماء وصار خليفة مجازاً فأرشد الناس وافتتح مجالس الأذكار.

(ومنهم) تاج الملة، وإنسان عين المجد من غير علة، ذو النسب الباذخ، (ص٧١٩) والشرف الرفيع الشامخ، السيد على القناوى، تلقن الأسماء والبس التاج وصار خليفة حقا ومجازاً بالتلقين والتسليك فأدار مجالس الأذكار وأشرقت به الأنوار.

(ومنهم) العلامة العامل والفهامة الواصل الفاضل الشيخ سليمان المنوفى نزيل طندتا لقنه وأرشده وخلفه وألبسه التاج وأجازه فسلّك وأرشد وله أحوال عجيبة.

(ومنهم) الصوفى الصالح الشيخ حسن السخاوى نزيل طندتا أيضاً لقنه وخلفه وألبسه التاج، فدعا الناس لأقوم منهاج.

(ومنهم) علامة الأنام الشيخ محمد الرشيدى الملقب

بشعير، لقنه وخلفه وأجازه فكثر نفعه.

(ومنهم) العلامة الأوحد، ومن على مثله الخناصر تعقدْ، الشيخ يوسف الرشيدى الملقب بالشيال، رحل أيضاً إليه فتلقن منه وسلك على يديه حتى صار خليفة، وألبسه التاج وأجازه بالتلقين والتسليك ورجع إلى بلاده، بأوفر زاده، وأدار مجالس الذكر، وأكثر المراقبة والفكر، حتى كثرت أتباعه وعم انتفاعه.

(ومنهم) العمدة المقدم الهمام الناسك السالك الشيخ محمد الشهير بالسقاء، لقنه وأجازه بالتلقين والتسليك فكثر نفعه وطاب صنعه.

(ومنهم) فريد دهره وعالم عصره معدن الفضل والكمال، قطب الجمال والجلال، الشيخ باكير أفندى، لقنه وألبسه التاج وأجازه بالتلقين والتسليك.

(ومنهم) بدر الطريق، وشمس أفق التحقيق، العالم العلامة والصوفى الفهامة الشيخ محمد الفشنى، لقنه وخلفه وألبسه التاج فأخذ العهود ولقن وسلك وفاق فى ساير الآفاق، وتقدم فى الخلاف والوفاق.

(ومنهم) العالم العامل والشهم الماهر الكامل الشيخ عبد الكريم المسيرى الشهير بالزيات، تلقن العهد (ص٧٢٠) والأسماء حسب سلوكه وسيره وأجيز بأخذ العهود والتلقين والتسليك فزاد نورا على نور، وحبى بلذة الطاعة والحبور.

(ومنهم) شيخ الفروع والأصول، الجامع بين المعقول والمنقول، علامة الزمان، والحامل فى وقته لواء العرفان، الشيخ أحمد العدوى الملقب بدردير، جذبته العناية إلى نادى الهداية، فجاء إلى الشيخ وطلب منه تلقين الذكر فلقنه وسار أحسن سير، وسلك أحسن سلوك، حتى صار خليفة بأخذ



العهود والتلقين والتسليك مع المجاهدة والعمل المرضى، وسيأتى فى وفياتهم تتمة تراجمهم رضى الله عنهم.

(ومنهم) أيضاً الشيخ العلامة الولى الصوفى الشيخ محمد الرشيدى الشهير بالمعصراوى.

(ومنهم) الإمام الجامع والولى الصوفى النافع مولاى أحمد الصقلى المغربى، تلقن وتخلف وأجيز بأخذ العهود والتلقين والتسليك.

(ومنهم) الأمجد العامل بعلمه والمزدرى السحر بفهمه الشيخ سليمان البتراوى ثم الأنصارى.

(ومنهم) الصالح العامل الفهامة العابد الزاهد الشيخ إسماعيل اليمنى تلقن وسلك مع التقى والعفاف والملازمة الشديدة والخدمة الأكيدة وحسن المجاهدة.

(ومنهم) النحرير الكامل، واللوذعى الفاضل، مؤلف

المجموع الشيخ حسن بن على المكى المعروف بشمه الناظم الناثر، الحاوى الخير المتكاثر، وغير هؤلاء ممن لم نعرف كثير.

(فصل) في ذكر رحلة الأستاذ المترجم إلى بيت المقدس

وهو أنه لما أذن له السيد البكرى بأخذ العهود وتلقين الذكر لم يقع له تسليك أحد فى هذه الطريقة، إنما كان شغله وتوجهه كله إلى العلم وإقرائه، لكن ذلك بجسمه، وأما قلبه فلم يكن إلا عند شيخه السيد الصديقى، ولم يزل كذلك إلى عام تسع وأربعين فحن جسمه إلى زيارة (ص٧٢١) شيخه وأنشد لسان حاله:

أخذتم فؤادى وهو بعضى فما الذى
يضركمُ لو كان عندكمُ الكل

فأرسل إليه السيد يدعوه لزيارته، فهام إذ فهم رمز إشارته، وتعلّقت نفسه بالرحيل فترك الإقراء والتدريس وتقشف وسافر إلى أن وصل بالقرب من بيت المقدس، فقيل له: «إذا دخلت بيت المقدس فادخل من الباب الفلانى وصَلِّ ركعتين وزر محل كذا» فقال لهم: أنا ما جيت قاصداً بيت المقدس وما جيت قاصداً إلاَّ أستاذى فلا أدخل إلاَّ من بابه ولا أصلى إلا فى بيته فعجبوا له فبلغ السيدَ كلامُه فكان سبباً لإقباله عليه وإمداده، ثم سار حتى دخل بيت المقدس فتوجه إلى بيت الأستاذ فقابله بالرحب والسعة وأفرد له مكاناً، ثم أخذ فى المجاهدة من الصلاة والصوم والذكر والعزلة والخلوة. قال: فبينما أنا جالس فى الخلوة إذا بداع يدعونى إليه

فجيت إليه فوجدت بين يديه مائدة. فقال: أنت صايم قلت: نعم. فقال: كل فامتثلت أمره وأكلت. فقال: اسمع ما أقول لك إن كان مرادك صوما وصلاة وجهاداً أو رياضة فليكن ذلك فى بلدك، وأما عندنا فلا تشتغل بغيرنا ولا تقيد أوقاتك بما تروم من المجاهدة، وإنما يكون ذلك بحسب الاستطاعة وكل واشرب وانبسط قال: فامتثلت إشارته ومكثتُ عنده أربعة أشهر كأنها ساعة غير أنى لم أفارقه قط خلوةً وجلوة* . ومنحه فى هذه المدة الأسرار وخلعَ عليه خلع القبول، وتوّجه بتاج العرفان وأشهده مشاهد الجمع الأول والثانى، وفرق له فرق الفرق الثانى، فحاز من التدانى أسرار المثانى، ثم لما انقضت المدة وأراد العود إلى القاهرة (ص٧٢٢) ودّعه وما ودّعه، وسافر حتى وصل إلى غزّة فبلغ خبرُه أميرَ تلك القرية وكانت الطريق مخيفة فوُجهٌ معه قافلة ببَيْرقين من العسكر فساروا فلقيهم فى أثناء الطريق أعراب فخافوهم فقالوا لأهل القافلة لا تخافوا فلسنا من قطاع الطريق، وإن كنا منهم فلا نقدر نكلمكم وهذا معكم» وأشاروا إلى الشيخ، ولم يزالوا سايرين حتى انتهوا إلى مكان فى أثناء الطريق بعد مجاوزة العريش بنحو يومين، فقيل لهم إن طريقكم هذا غير مأمون الخطر، ثم تشاوروا فقال لهم أعراب ذلك المكان نحن نسير معكم ونسلك بكم طريقا غير هذا، لكن اجعلوا لنا قدراً من الدراهم نأخذه منكم إذا وصلتم إلى بُلبيس، فتوقف الركب أجمعه، فقال الأستاذ «أنا أدفع لكم هذا القدر هنالك» فقالوا «لا سبيل إلى ذلك، كيف تدفع أنت وليس لك فى القافلة شيء؟ والله ما نأخذ منك شيئا إلا إن ضمنت أهل القافلة» فقبل ذلك، فاتفق الرأى على دفع الدراهم من أرباب

* خلوة وجلوة: أى فى مجالسه الخاصة والعامة، يعنى فى السر والعلن.

التجارات بضمانة الشيخ، فضمنهم وساروا حتى وصلوا إلى بُلبيس ثم منها إلى القاهرة فسُرّت به أتم سرور، وأقبل عليه الناس من حينئذ أتم قبول، ودانت لطاعته الرقاب وأخذ العهود على العالم، وأدار مجالس الأذكار بالليل والنهار، وأحيا طريق القوم بعد دروسها وأنقذ من ورطة الجهل مهجاً من غَيِّ نفوسها، فبلغ هديه الأقطار كلها وصار له فى كثير من قرى مصر نقيب وخليفة وتلامذة وأتباع يذكرون الله تعالى، ولم يزل أمره فى ازدياد وانتشار حتى بلغ سائر أقطار الأرض وصار الكبار والصغار والنساء والرجال يذكرون الله تعالى بطريقته، وصار خليفة الوقت وقطبه، ولم يبق (ص٧٢٣) ولى من أهل عصره إلا أذعن له، وحين تصدى للتسليك وأخذ العهود أقبل عليه الناس من كل فج وكان فى بدء الأمر لا يأخذون إلا بالاستخارة والاستشارة وكتابة أسمايهم ونحو ذلك، فكثر الناس عليه وكثر الطلب فأخبر شيخه السيد الصدّيقى بذلك فقال لهَ: «لا تمنع أحداً يأخذ عنك ولو نصرانياً من غير شرط» وأسلم على يديه خلق كثير من النصارى، وأول من أخذ عنه الطريق وسلك على يديه الولى الصوفى العالم العلامة المرشد الشيخ أحمد البناء الفِوى، ثم تلاه من ذكر وغيرهم، وكان أستاذه السيد يثنى عليه ويمدحه ويراسله نظما ونثراً، ويترجمه بالأخ ولولا رآه قسيما له فى الحال ما صدر عنه ذلك المقال، حتى أنه قال له يوماً: «إنى أخشى من دعائكم لى بالأخ لأنه خلاف عادة الأشياخ مع المريدين» فقال له: «لا تخش من شىء» وامتدحه أشياخه ومعاصروه وتلامذته، فمن امتدحه أخوه الأوحد العلامة سيدى الشيخ يوسف الحفناوى، فمن ذلك قصيدتان وأثبتهما فى ديوانه إحداهما:

إن ترم وصلة السلوك السنيه
فانتهج نهج سادة خلوتيه
وتمسك بعهدهم وتعطر
بشذاهم فى بكرة وعشيه
سادة مهدوا الطريق وشادوا
ربعها بالشريعة الأحمدية
واعتصم بالسلوك إن رمت قرباً
بدليل تسقيك راحاً شهيه
كالإمام الحفنىّ أشرف دان (ص٧٢٤)
أسكرته المدامة البكريه
ورَد الحان وارتوى بسُلاف
من كؤوس الشهود مصطفويه
فغدا هائماً بسرّ التجلى
جائلا فى رياضه العدنيه
لابساً من حلاوة الصدق ثوباً
أين منه الملابس السندسيه؟
راقياً فى سماء عز التدانى
نزلا عن سواه أمست نشيه
ناهلا من مناهل القرب ما فيه وصول للحضرة الأقدسيه
عين عين نحاه عن علم عين
صدق سير وهمة عُلويه
وهبأت فتحية نشرتها
يد أستاذه عليه عليّه
أُمّهُ يا مزيدَ هدْيٍ ورشدٍ
فهو باب للمنحة الخلوتيه
وارتشف من مدامة قد أديرت
بيديه وانهض بإخلاص نيه

وَتوسلْ به إلى الله تظفر
بالذى ترتجيه من أمنيِّه
وتأمل فى ذاته ومزاياه
لتهدَى إلى الطريق السويّه
عالم عامل تقى نقى
صادق السِّيْر ذو مزايا بهيِّه
(ص٧٢٥) فاتحه إن دهاك وَازِدُ خطبِ
ونحتك الخواطر النفسيه
تلقه للنفوس أقوى طبيب
بهبات قد حازها فرديه
وصلاةٌ مهديةٌ مع سلامٍ
لنبى هَدى لطرْقٍ سنيه
ثم آلٍ والصحب ما هام عانٍ
واهتدت بالسلوك نفس أبيه

وهذه الأخرى:

دع عنك رَوْمَ وصالِ سَلْمى
وانهض إلى المغنى وسل ما
سل ما يريح فؤادك العانى ونقِّ القلب مما
وسيوف وسوسة السوى
أغمد بطيب هوى ألما
وإذا دهتك خواطر
وظلامها فيك ادلهمّا
فاكشف غياهبها بشرب
مدامة الإرشاد تحمُى
من راحة الحفنى أشرفِ من سما عِلماً وحلما

كنز المقـــامـــــات التى
بسنائهـــا العليـــاء تهـــمَى
دارت عليـــه كـــئـوس حـــانات
(ص٧٢٦) الشـــهـود فـغـاب عـمـا
ولســـــر ســـــرّ الكائنات
فـــؤاده العلوى ضـــمـــا
شـــملتــــه عين عناية
من ربه فـــصـــفـــا ولما
ومـــذ انمحت عين التـــغـــاير
بالشـــهـــود سناه عـــمـــا
لم يدُر كُنه هبـــاتهـــا
إلاّ فـــتى للحـــان أمـــا
يختـــال فى جلبـــاب حـضـرة
من هـواه تـراه غُـنمـــــا
فـــهناك تعـــرف مـــا حـــوى
من رتبـــة وتزيد علمـــا
وإذا اقـــتـــصـــرت على المُشـــاهد
منـه لم تـدر الأهَــمّــــا
بشـــرى لنا هل كـــاســـه
إن عـــد غـــيـره هواه جـــزمـــا
مـــــا تم إلا ســـيـــدى
وطريقـــه الزاكى المســـمى
من ينتـحـيـه هو السـعـيـد ومن يزغ عنه فـأعـمى
ثـم الصـــلاة مع الســـلام
لمن لأهـل الريـغ أصـــمـى
والآل والأصـــحـــاب مـــا
قلبٌ لنيل القـــرب همّـــا

أو يوسف الحفني يرجو (ص٧٢٧)
منه إسعافاً ورحما

ونقل عن الوزير المفخم محمد باشا راغب أنه قال لبعض بني السقاف: «إنما لقب جدكم بالسقاف لكونه كان سقفاً على اليمن من البلاء، وكذلك الشيخ [يوسف] الحفناوى سقفٌ على مصر من نزول البلاء» ونظيره قول بعض الأمراء حين قيل له: الأستاذ الحفناوى من عجايب مصر قال: «بل قل من عجايب الدنيا». وللأديب العلامة الشيخ مصطفى اللقيمى فى مدحه ومدح السيد البكرىّ معاً:

قم هات لى خمرة المعانى
مع كل مولى لهـا معانى
ثم اجتليها مع النُدامى
وطف بها كعبة الأمانى
وروق الراح كى أراها
فى الكأس لاحت كبهرمان
ثم اسقنيها بجنح ليل
صرفاً على نغمة المثانى
فإن تروما بها اتصالا
هيا إلى الحان واصحبانى
فتلك خمر الشهود تدعى
لا خمرة الكرم والدنان
خلعت فيها العذار لما
أن غبت عن مشهد العيان
وهمت فى حبها غراماً
فيا خليلىّ خلّيانى

ووحد الحق فهو فرد (ص٧٢٨)

لم يثنني عن ثناه ثاني

قيّدت في حبه فؤادي

أطلقت في ذكره لساني

في خلوة القرب لي بقاء

في جلوة الحب صرتُ فاني

أيا عذولي فدع ملامي

فسيد الصدق قد دعاني

لحضرة القدس واجتلالي

من كاسه خمرة المعاني

بجانب الطور لاح نور

أضاء من سره جناني

بيانه قد خفي ظهوراً

وصونه غاية البيان

فهمت لما فهمت رمزاً

لم تحوه أحرف المباني

مظاهر للطريق شتى

قد أعجمت من لها يعاني

فذو جلال وذو جمال

وذو كمال وذو افتتان

وذو سكون وذو هيام

وذو سكوت وذو بيان

فلا تلم هائماً تراه

من سكره كَسَّرَ الأواني

وتاه من شوقه سماعا

للذكر في مشهد التداني

(ص٧٢٩) إن شام نحو الحمى بروقا
يهيجة برقها اليماني
صاحب فريقاً نَحوا طريقاً
قد شادها قطب ذا الأوان
السيد المصطفى الحسيني
ذو نسبة عقدها جماني
وبضعة الصدق من عتيق
رفيق غار وخير ثاني
فمنطقى لم يفى بمدح
وكلٌ عن ضبطه بناثى
فالعجز عن دركه وصول
من ذا لنشر الثنا يداني
هيا مريدَ الطريق هيا
واشرب سُلافا بطيب حان
وهيمٌ القلبَ بالجلاله
ليشربوا كاسها الكياني
وتجذب الكل نحو ناد الحفنى شمس سما التهاني
بادر وشمر بصدق سير
كى تشهد السر منك داني
وتغنم الأنس فى رحاب
تجلى به كُنّس* الغواني
بشراك بشراكِ يا معاني
فهذه بُلغة الأماني

*كُنس: جمع كانس وهو الظبي.

ولما سمعها السيد البكرى وقعت عنده أحسن (ص٧٣٠) موقع وهى حَرِيَّة بذلك، فينبغى أن تحمل ولا تهمل.

وفى المترجم مدايح كثيرة يطول شرحها وذُكر بعضها وسيذكر فى تراجم أصحابها.

توفى رضى الله عنه يوم السبت قبل الظهر سابع عشرين ربيع الأول سنة إحدى وثمانين وماية وألف، ودفن يوم الأحد بعد أن صُلى عليه فى الأزهر فى مشهد عظيم جداً، وكان يوم هول كبير، وكان بين وفاته ووفاة الأستاذ الملوى ثلاثة عشر يوماً، ومن ذلك التاريخ ابتدأ نزول البلا واختلال أحوال الديار المصرية، وظهر مصداق قول الراغب إن وجوده أمان على أهل مصر من نزول البلاء، وهذا من المشاهد المحسوس، وذلك أنه إذا لم يكن فى الناس من يصدعُ بالحق ويأمر بالمعروف وينهى عن المنكر ويقيم الهدى فسد نظام العالم وتنافرت القلوب، ومتى تنافرت القلوب نزل البلا، ومن المعلوم المقرر أن صلاح الأمة بالعلما والملوك، وصلاح الملوك تابع لصلاح العلما وفساد اللازم بفساد الملزوم، فما بالك بفقده والرحى لا تدور بدون قطبها، وقد كان رحمه الله قطب رحى الديار المصرية، ولا يتم أمر من أمور الدولة وغيرها إلا باطلاعه وإذنه، ولما شرع الأمرا القايمون بمصر فى إخراج التجاريد لعلى بك وصالح بك وأستأذنوه فمنعهم من ذلك وزجرهم وشنع عليهم ولم يأذن بذلك كما تقدم وعلموا أنه لا يتم قصدهم بدون ذلك فأشغلوا الأستاذ وسموه، فعند ذلك لم يجدوا مانعاً ولا رادعاً، وأخرجوا التجاريد وآل الأمر لخذلانهم وهلاكهم والتمثيل بهم، وملك على بك وفعل ما بداله فلم يجد رادعا أيضاً، (ص٧٣١) ونزل البلاء حينئذ بالبلاد المصرية والشامية والحجازية، ولم يزل يتضاعف حتى عم الدنيا وأقطار الأرض، فهذا هو السر الظاهرى وهو لاشك تابع

للباطنى وهو القيام بحق وراثة النبوة وكمال المتابعة وتمهيد القواعد وإقامة أعلام الهدى والإسلام وإحكام مبانى التقوى، لأنهم أمناء الله فى العالم، وخلاصة بنى آدم، أوليك هم الوارثون الذين يرثون الفردوس هم فيها خالدون.

ولو أن أهل العلم صانوه صانَهم
ولو عظّموه فى القلوب لعُظما

* عبد الوهاب الشربينى.

[ومات] شمس الكمال أبو محمد الشيخ/ عبد الوهاب بن زين الدين ابن عبد الوهاب ابن الشيخ نور بن بايزيد بن شهاب* الدين أحمد بن القطب سيدى محمد بن أبى المفاخر داود الشربينى بمصر، ونقلوا جسده إلى شربين ودفن عند جده، سامحه الله وتجاوز عن سيآته، وتولى بعده فى خلافتهم أخوه الشيخ محمد ولهما أخ ثالث اسمه على، وكانت وفاة المترجم ليلة الأحد غرة ذى القعدة سنة إحدى وثمانين وماية وألف.

* هذه الترجمة كرّرها الجبرتى تحت رقم ٣٠١.

٣٠٣ محمد العبيدى الفارسكورى.

[ومات] الشيخ الإمام العلامة المتقن المتفنن الفقيه الأصولى النحوى الشيخ/ محمد بن موسى العُبيدى الفارسكورى الشافعى، وأصله من فارسكور، أخذ عن الشيخ على قايتباى والشيخ الدفرى والبشبيشى والنفراوى، وكان آية فى المعارف والزهد والورع والتصوف، وكان يلقى دروسا بجامع قوصون على طريقة الشيخ العزيزى والدمياطى، وبآخرة توجه إلى الحجاز وجاور به سنة، وألقى هناك دروساً وانتفع به جماعة، ومات بمكة وكان له مشهد عظيم، ودفن عند السيدة خديجة (ص٧٣٢) رضى الله عنها.

٣٠٤ احمد أبو عامر النفراوى.

[ومات] الشيخ الإمام العلامة مفيد الطالبين الشيخ/ أحمد أبو عامر النفراوى المالكى، أخذ الفقه عن الشيخ سالم النفراوى والشيخ البليدى والطحلاوى، والمعقول عنهم والشيخ الملوى والحفنى والشيخ عيسى البراوى، وبرع فى المعقول والمنقول، ودرّس وأفاد وانتفع به الطلبة، وكان درسه حافلا، وله حظوة فى كثرة الطلبة والتلاميذ. توفى سنة إحدى وثمانين وماية وألف أيضاً.

٣٠٥ حسن جوجو بك وجن على بك.

[ومات] الأمير حسن بك جوجو، وجن على بك وهما من مماليك إبراهيم كتخدا، وكان حسن مذبذباً ومنافقاً بين خشداشينه يوالى هؤلاء ظاهرا وينافق الآخرين سراً، وتعصب مع حسين بك وخليل بك حتى أخرجوا على بك إلى النوسات، ثم صار يراسله سراً ويعلمه بأحوالهم وأسرارهم، إلى أن تحول إلى قبلى وانضم إلى صالح بك فأخذ يستميل متكلمى الوجاقلية إلى أن كانوا يكتبون لأغراضهم بقبلى، ويرسلون المكاتبات فى داخل أقصاب الدخان وغيرها، وهو مع من بمصر فى الحركات والسكنات إلى أن حضر على بك وصالح بك وكان هو ناصبا وطاقه معهم جهة البساتين، فلما أرادوا الارتحال استمر مكانه وتخلف عنهم، وبقى مع على بك بمصر يشار إليه ويرى لنفسه المنة عليه، وربما حدثته نفسه بالإمارة دونه، وتحقق على بك أنه لا يتمكن من أغراضه وتمهيد الأمر لنفسه مادام حسن بك موجوداً، فكتم أمره وأخذ يدبِّر على قتله، فبيت مع أتباعه محمد بك وأيوب بك وخشداشينهم، (ص٧٣٣) وتوافقوا على اغتياله، فلما كان ليلة الثلاثاء ثامن شهر رجب حضر حسن بك المذكور وكذا خشداشه جن على

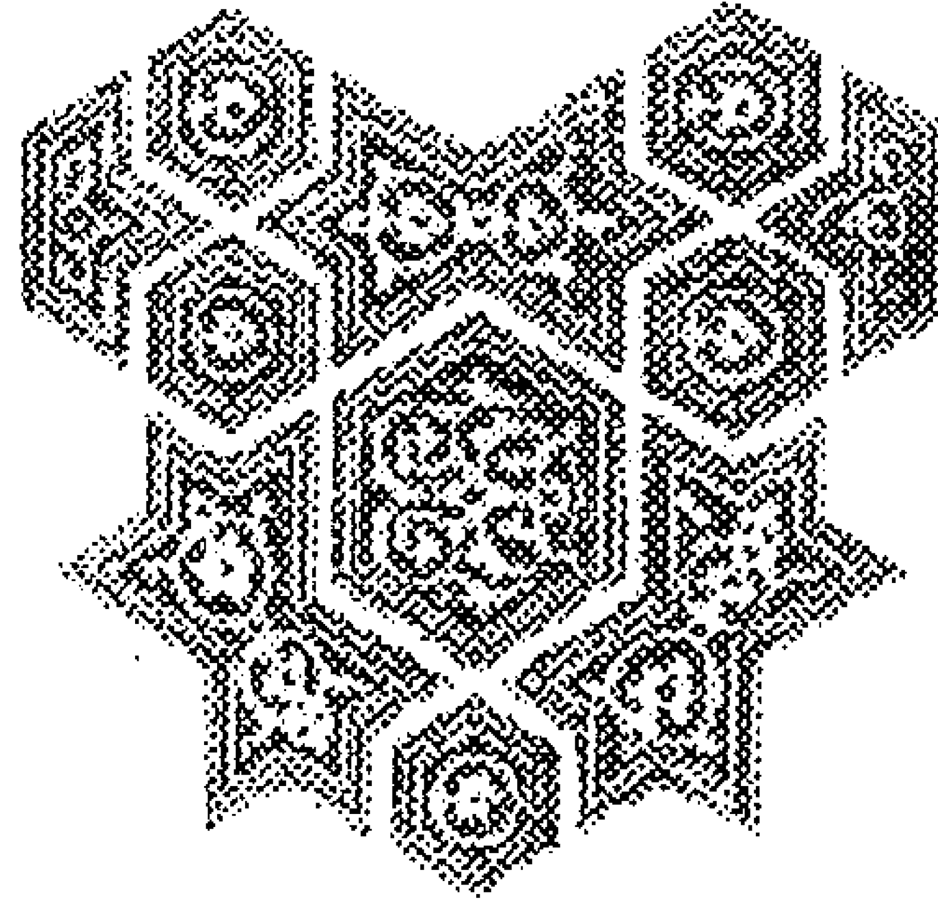
بك وسَمَرا معه حصة من الليل، ثم ركبا فركب صحبتهما محمد بك وأيوب بك ومماليكهما واغتالوهما فى أثناء الطريق كما تقدم.

٣٠٦ رضوان جربجى الرزاز.

[ومات] الأمير رضوان جربجى الرزاز وأصله مملوك حسن كتخدا ابن الأمير خليل أغا، وأصل خليل أغا هذا شاب تركى خردجى يبيع الخردة* ، دخل يوما من بيت لاجين بك الذى عند السويقة المعروفة بسويقة لاجين وهو بيت عبد الرحمن أغا المتخرب الآن، وكان ينفذ من الجهتين فرآه لاجين بك فمال قلبه إليه ونظر فيه بالفراسة مخايل النجابة فدعاه للمقام عنده فى خدمته فأجاب لذلك، واستمر فى خدمته مدة وترقى عنده، ثم عينه لسد جسر ثوساح ووعده بالإكرام إن هو اجتهد فى سده على ما ينبغى فنزل إليه وساعدته العناية حتى سده وأحكمه ورجع، ثم عينه لجبى الخراج وكان لا يحصّل له الخراج إلا بالمشقة، وتبقى البواقى على البواقى القديمة فى كل سنة، فلما نزل وكان فى أوان حصاد الأرز فوزن من المزارعين شعير الأرز من المال الجديد والبواقى أول بأول، وشطب جميع ذلك من غير ضرر ولا أذية، وجمعه وخزنه، واتفق أنه غلا ثمنه فى تلك السنة غلواً زايدا عن المعتاد فباعه بمبلغ عظيم ورجع لسيده بصناديق المال، فقال «ما هذا؟» فقال هو «مالك الذى أرسلتنى لإحضاره» وعرفه الأمر، فقال «لا آخذ إلا حقى وأما الربح فهو لك» فأخذ قدر ماله وأعطاه الباقى، (ص٧٣٤) فذهب واشترى لمخدومه جارية مليحة وأهداها له فلم يقبلها وردها إليه وأعطى له البيت الذى بالتبانة، ونزل له عن طصفة وكفرها ومنية تمامه، وصار من الأمراء المعدودين، فولد

* الخردة: بضم الخاء وسكون الراء كلمة فارسية تدل على ما صغر وتفرق من الأمتعة والمقصود هنا الخردجى هو بائع الخردة.

الخليل هذا حسن كتخدا ومصطفى كتخدا، كانا أميرين كبيرين معدودين بمصر، ومماليكه صالح كتخدا وعبد الله جربجى وإبراهيم خربجى وغيرهم ومن مماليكه حسن حسين جربجى المعروف بالفحل ورضوان جربجى هذا المترجم وغيرهما أكثر من المابة أمير وكان رضوان جربجى هذا من الأمراء الخيرين الدينين له مكارم أخلاق وبر ومعروف، ولما نفى على بك عبد الرحمن كتخدا فنفاه أيضا وأخرجه من مصر ثم إن على بك ذهب يوما عند سليمان أغا كتخدا الجاويشية فعاتبه على نفى رضوان جربجى فقال له على بك «تعاتبنى على نفى رضوان ولا تعاتبنى على نفى ابنك عبد الرحمن كتخدا؟» فقال «ابنى المذكور منافق يسعى فى إثارة الفتن ويلقى بين الناس فهو يستاهل، وأما هذا فهو إنسان طيب وما علمنا عليه ما يشينه فى دينه ولا دنياه» فقال «نرده لأجل خاطرك وخاطره» ورده ولم يزل فى سيادته حتى مات على فراشه سادس جمادى الأولى فى هذه السنة، والله سبحانه وتعالى أعلم.



(١) كشكش: وجدناها مضبوطة بكسر الكافين في المقال الذي كتبه الأستاذ [هولت ـ Holt] في مجلة التاريخ المعاصر History To-] [day في عدد يناير ١٩٥٩ صفحة ٤٨ ولكنها مضبوطة في الطبعة الفرنسية لكتاب تاريخ الجبرتي بفتح الكافين.

(٢) قندية: كانت تسمى قديماً (هرقَليون) ويسميها الإنجليز الآن (Candia) والفرنسيون (Candie) وهي من مدن الساحل الشمالي لجزيرة كريت.

(٣) كان رق المماليك ينتهي بتدريبهم على فنون القتال، واعتناقهم الدين الإسلامي، وتعلمهم اللغة التركية. وهي لغة الطبقة الحاكمة. فإذا أتم المملوك كل هذا سمح له بإرخاء لحيته، والالتحاق بأحد الفرق العسكرية الرسمية، وبذلك يدخل في عداد الطبقة الحاكمة.

(٤) عبد الرحمن كتخدا: انظر ترجمته رقم ٣٩٩ في هذا الجزء

(٥) حسن بيك جوجو وجن علي بيك: ورد اسم حسن بك جوجو عند الجبرتي عند ذكره لحادثة اغتياله هو وجن علي بك في ليلة الثلاثاء ١٨ من رجب سنة ١١٨١هـ = نوفمبر ١٧٦٧م، كما يورد الجبرتي ترجمة للأمير حسن بيك جوجو وخشداشه جن علي بيك (ذكرنا لها رقم ٣٠٥)، فيذكر أن حسن بيك كان مذبذبا ومنافقا، وكان يكيد لعلي بيك حتى تسبب في نفيه، ثم صار يراسله سرا ويعلمه بأحوال منافسيه من الأمراء حتى مكّنه من العودة إلى القاهرة والتغلب على منافسيه. وبقي مع علي بيك يشار إليه ويرى لنفسه المنة عليه، وتحقق علي بك أنه لا يتمكن من تحقيق أغراضه وتمهيد الأمر لنفسه إلا بعد القضاء عليه، فتم له ذلك.

(٦) النوسات: قريتان من القرى القديمة تتبعان مركز أجا بمحافظة الدقهلية، وهي نوسا البحر ونوسا الغيط، تقع الأولى على فرع دمياط مباشرة، والثانية في وسط الأراضي الزراعية.

(٧) أرباب العكاكيز: كان المحاربون القدماء من رجال الوجاقات يطلق عليهم (أرباب العكاكيز) لأنهم كانوا يحضرون الاحتفالات وفي أيديهم العكاكيز وهي عصي ذات حديد في أسفلها وكانوا يعملون في جباية الضرايب من الاقاليم مقابل معاشا ويضربون المتأخرين في سداد ديونهم بعكازهم لكي يدفعوا جزيتهم واموالهم عن يد وهم صاغرون.

(٨) جماعة الفلاح: يذكر اسماعيل بن سعد الخشاب في مؤلفه «أخبار أهل القرن الثاني عشر» أن أصل جماعة الفلاح رجل يقال له صالح الفلاح، وكان أصله صبي حريم في منزل سليمان كتخدا القازدغلي، ثم أنه استفاد أموالا كثيرة، فاشترى منها مماليك كثيرة وأدخلهم في سلك الوجاقات، فانتشر صيتهم وكثرت اتباعهم، وذلك في مدة حياة سيدهم المذكور.

(٩) البرهامية: أو البراهمة: نسبة إلى الولي ابراهيم الدسوقي صاحب هذه الطريقة. توفي سنة ٦٧٦هـ = ١٢٧٧م. وله مسجد ومقام يزار بمدينة دسوق من مراكز محافظة كفر الشيخ.

(١٠) عبد الله الإدكاوي: ترجم له الجبرتي في وفيات سنة ١١٨٤هـ. رقم ٣٢٧

(١١) جامع الحبشلي: هذا الجامع بدرب سعادة على رأس عطفة النيوبة بباب الخلق.

الحالة الاجتماعية في فترة الاحتلال العثماني

ظهر في هذا العصر شراب القهوة . وقد قيل إن أول من اهتدى إليه هو أبو بكر بن عبد الله المعروف بالعيدروس. وكان أصل اتخاذه له أنه مر في سياحته بشجر البن فاقتات من ثمره حين رآه متروكا مع كثرته. فوجد فيه تجفيفا للدماغ، واجتلابا للسهر، وتنشيطا للعبادة . فاتخذه قوتا وطعاما وشرابا. وأرشد أتباعه إليه. ثم نشر ذلك في اليمن والحجاز ومصر. وقد جاء أبو بكر إلى مصر سنة ٩٠٥هـ، فكما أن الصوفية هم الذين أدخلوا مادة الحشيش المخدرة إلى مصر في أوائل القرن السابع للهجرة، وأشاعوا استعمالها بين المصريين، كذلك أدخلوا شراب قهوة البن إلى مصر في أوائل القرن العاشر.

وكما اختلف المصريون في الحشيش ، وهل هو حلال أم حرام؛ اختلفوا كذلك في أمر القهوة. فذهب قوم إلى تحريمها لما فيها من الضرر. وخالفهم آخرون ومنهم المتصوفة، وقالوا بإباحتها لأنها ليست مسكرة ولامغيبة. وإنما فيها تنشيط النفس لأشغالها وما يطلب منها، وخصوصا في سهر العبادة أو قراءة القرآن، أو دراسة علم، أو تحصيل معاش. فإن قصد بها الإعانة على شيء من ذلك كانت قربة عند الله تعالى .

أما الذين حرموها فقد استندوا إلى أنها عند شربها بطقوس كالتي تحاط بها كتصفيق شاربها، وإنشاد أشعار الغزل والحب، ووصف الخمر، فان ذلك يفسد النفوس وبخاصة إذا صحبها مخدر مثل الحشيش ، وخبز الغراب، والأفيون. ولأن المقاهي تجمع الأراذل الذين يروجون الأكاذيب ويغتابون الناس، ويلعبون الشطرنج وألعاب الميسر. وأنكروا على رجال الدين ذهابهم إلى المقاهي ورأوا أن ذلك يخل بالمروءة ويسقط الشهادة ويدنس العرض.

وقد ألف المتعصبون لها الرسائل في بيان فضائلها ومنافعها. وذكروا أن شجرة البن في الجنة غرسها سبعون ألف ملك، وتسمى شجرة السلوان، لأنها خرجت مع آدم ليتسلى بها عما فاته من النعيم المقيم. وقالوا إن مداومة أكل البن يقوى النظر والفهم، ويصفي الذهن، ويشرح الصدر، ويزيل الهم ويطيب النكهة، ويقطع البلغم، ويدفع الجدرى والحصباء والسحر. وفي أكل سبع حبات منه دعوة مستجابة، لأن فيهاه «بسم الله الرحمن الرحيم» .

وقد زار الرحالة المغربي أبو بكر العياشي مدينة القاهرة ١٠٣٧هـ فقال « .. ثم دخلنا لزيارة الشيخ ابراهيم الميموني ــ رضي الله عنه ــ ومنزله قرب الجامع ــ يعني الجامع الأزهر ــ وقدم لنا طعاما حسنا وكنا جماعة. وهذا خلاف المعتاد من أهل مصر، وإنما يتكارمون بينهم بشراب البن الذي يسمونه القهوة. ونحن لا نعرفها وليست عندنا بطعام ولا دواء ولا شهوة. والكلام فيها من حيث الحكم بالإباحة وعدمها طويل عريض، معلوم شهير نظما ونثرا» «وأكثر العلماء مائلون فيها إلى الإباحة. وترشح قولهم بفعل أكثر الصوفية مع تورعهم في المطاعم والمشارب، زاعمين أنها تعين على السهر في العبادة ، ويستعين بها الطلبة كثيرا في المطالعة الليلية. ولا شك أنها تزيل ما يحصل في الرأس من تدويخ بسبب السهر، أو خلو المعدة صباحا. فإذا شربها الإنسان وجد في أعضائه نشاطا، وأحس بخفة في رأسه، وهذا في الغالب لمن اعتادها. وهي مخففة اتفاقا وهاضمة . وصحح بعض العلماء أنها تحرم على من طبعه السوداء، وتكره لمن طبعه

الصفراء وهي نافعة لصاحب البلغم. وغيرها من أنواع المطعومات كذلك يحرم تناول ما يضر منها على من علم أنه يضره. ولا يكون ذلك موجبا للحكم بتحريمها».

«والحاصل أن الشاربين لها فريقان: فريق يشربونها في أماكن معدة لذلك مزخرفة ، قلما تخلو من لهو وحضور من لا يحل حضوره من الجوارى والمرد. فهؤلاء الحامل لهم على شربها اتباع الأهواء والتلذذ بما قارفها من الأمور المذمومة. فلا يبعد أن يقال إنها فى حق هؤلاء محرمة، لا لذاتها بل لما قارفها».

«وفريق يشربونها فى سكنهم أو حوانيتهم ، أو يشربونها في السوق. ويشربونها من غير جلوس مع الفريق الأول. فهؤلاء الحامل لهم عليها إلفهم لها حتى إنهم ربما يتضررون ضررا خفيفا بتركها كما يتضرر من ألف الحجامة بتركها. ومن ألف شرب العسل المسهل بتركه وغير ذلك من الأمور التى يعتادها الناس. ويحملهم عليها أيضا تحصيل المنافع المتقدمة من الاستعانة على السهر ومن إزالة التدويخ صباحا».

«وغالب ما يستعملونها مع طعام خفيف من كعك أو كسر خبز، فيكفيهم ذلك إلى وقت الغداء. هذا كله مع خفة المئونة، ولامقارفة إدام أو ملح أو أبزار أو خضر أو غير ذلك مما يحتاج إليه غالب الأطعمة».

«ويزاد على ذلك وهو أكبر منافعها عندهم أنها تقوم مقام الغداء للضيف بحيث لا يستحى أحد فى تقديمها للباشا فمن دونه. ويقوم ذلك عندهم مقام ما يتكلفه المرء عندنا من أطعمة كثيرة تبلغ قيمتها في بعض الأحيان دينارا فأكثر . ودرهم واحد يقوم مقام دينار لا يكرهه أحد. بل لو قدم أى طعام لم تكن معه فكأنه لم يقدم شيئا ، وإن قدمت هى كفت».

* * *

وقد ساهم الشعراء فى هذه المعركة بنصيب، فنظموا القصائد والمقطوعات في مدح القهوة والإشادة بمزاياها. ومن هؤلاء ابراهى بن المبلط، وكان موجودا سنة ٩٩١هـ قال:

ياعائبا لشراب قهوتنا التى
تشفى شفاء النفس من أمراضها
أو ما تراها وهى فى فنجانها
تحكى سواد العين وسط بياضها؟

وقال آخر:

للبن سر قد حكته شيوخنا
يا نعم منه كلهم أقطاب
فيهم تقول وقد تكامل وصفه
فى أكله نفع وفيه ثواب

وقال محمد البكرى المتوفى سنة ٩٩٤هـ

وقهوة بن تورث اللب قوة
ومن عجب والقشر أصل وعنبر
ومهما أرادت عصبة منع شربها
ترى أمرها يعلو ويقوى ويظهر
وأعجب منها قول من ضل رأيه
بل عرف الحق الصراح وينكر
يكابر فيها الحق والله شاهد
فيزعم فيها أنها الحسّ تسكر
تحقق فيها النفع لاسيما لمن
عن الجِدّ فى فعل العبادة يَفْتُر

وبقيت مشكلة تحريم القهوة وتحليلها بين علماء

مصر مدة من الزمن ولكن لم ينته القرن العاشر حتى انعقد الإجماع على تحليلها. وفتحت المقاهي في أحياء القاهرة، وأخذ أصحابها يتنافسون في اجتذاب الناس. فكان منهم من يستأجر القصاص ليقصوا الحكايات المشوقة، والقصص المعجبة وبخاصة سير الأبطال والمغامرين. فظهرت في ذلك الوقت سيرة الظاهر بيبرس وهي قصة طويلة امتازت بخيال ووقائع طريفة، فضلا عن أنها تصور حياة المجتمع المصرى أحسن تصوير، وتسجل كثيرا من عاداته وأخلاقه.

وظهرت قصة أخرى هي سيرة الأميرة ذات الهمة. وبعض قصص صغير مثل «الدرة المكللة في فتح مكة المبجلة» و «غزوة الإمام على مع اللعين الهضام بن الجحاف» و «فتوح اليمن المعروفة برأس الغول» وغير ذلك مما عسى أن يكون قد ضاع.

وتضخمت قصص كانت معروفة من قبل مثل سيرة أبى زيد الهلالى، وسيرة عنترة العبسي، وسيرة سيف بن ذى يزن، وقصة ألف ليلة وليلة. ويتخلل هذه القصص شعر تقرب لغته العامية ينشده القاص مع أعوانه تنشيطا للسامعين، ولكل قصة كبيرة طائفة من الناس اختصوا بسردها على الجماهير. فكانت هناك طائفة الظاهرية، والعنترية، والهلالية واليزنية، وهكذا.

وإلى جانب القصاص كانت هناك طوائف المنشدين الذين ينشدون الأشعار والأزجال والموشحات متخذين آلات الطرب كالربابة والعود فراجت سوق الأدب الشعبي رواجا عظيما.

وقد كثر في هذا العصر انتشار المواد المخدرة وبخاصة الحشيش وأنواع السطل، وانتشرت قصص الحشاشين ونوادره وفكاهاتهم. وألف بعضهم في ذلك رسائل وفصولا فيها ما يدل على قوة الخيال وخفة الروح التي اشتهر بها المصريون حتى في عصور المحن والشدائد.

* * *

وفي هذا العصر انتشر الدخان الذي ظهر لأول مرة سنة ١٠١٢ هـ كما ذكر الإسحاقي في تاريخه. وهو مؤرخ معاصر لا شك في صدقه.

وقد ذكر لنا رأيه في الدخان فقال: «وإن الدخان مضر بالأبدان، وهو يابس الطباع، لا شيء فيه من الانتفاع، مبطل لحركة الجماع، مسود للأسنان، مهرب لملائكة الرحمن. وعاقبته وخيمة، ومداومة شربه ذميمة، يورث النتن في الفم والمعدة، ويظلم البصر، ويطلع بخاره على الأفئدة. ومن زعم أن شربه محرق للبلغم فقد أخطأ فيما زعم، وقوله في ذلك غير صحيح. ولو لم يكن من دناءته إلا ولوع السودان به والأجلاف لكان في ذلك ما يكف عنه الأشراف».

ولم يكن شأن الدخان كشأن القهوة، فقد تمسك كثير من فقهاء المسلمين بتحريمه. ومازال المسلمون في اختلاف من أمره.

وكانت تصدر أحيانا أوامر بمنع تعاطيه جهارا. فقد ذكر الجبرتي في حوادث سنة ١١٥٦ هـ أن الوالي العثماني أصدر أوامر بمنع شرب الدخان في الشوارع وعلى الدكاكين وأبواب البيوت، ونزل معه الأغا ونادى بذلك وشدد في الإنكار والنكال بمن يفعل ذلك، وأخذ الأغا يمر ثلاث مرات في اليوم، وكل من رأى في يده آلة الدخان عاقبه، وربما أطعمه الحجر الذي يوضع فيه الدخان بما فيه من النار.

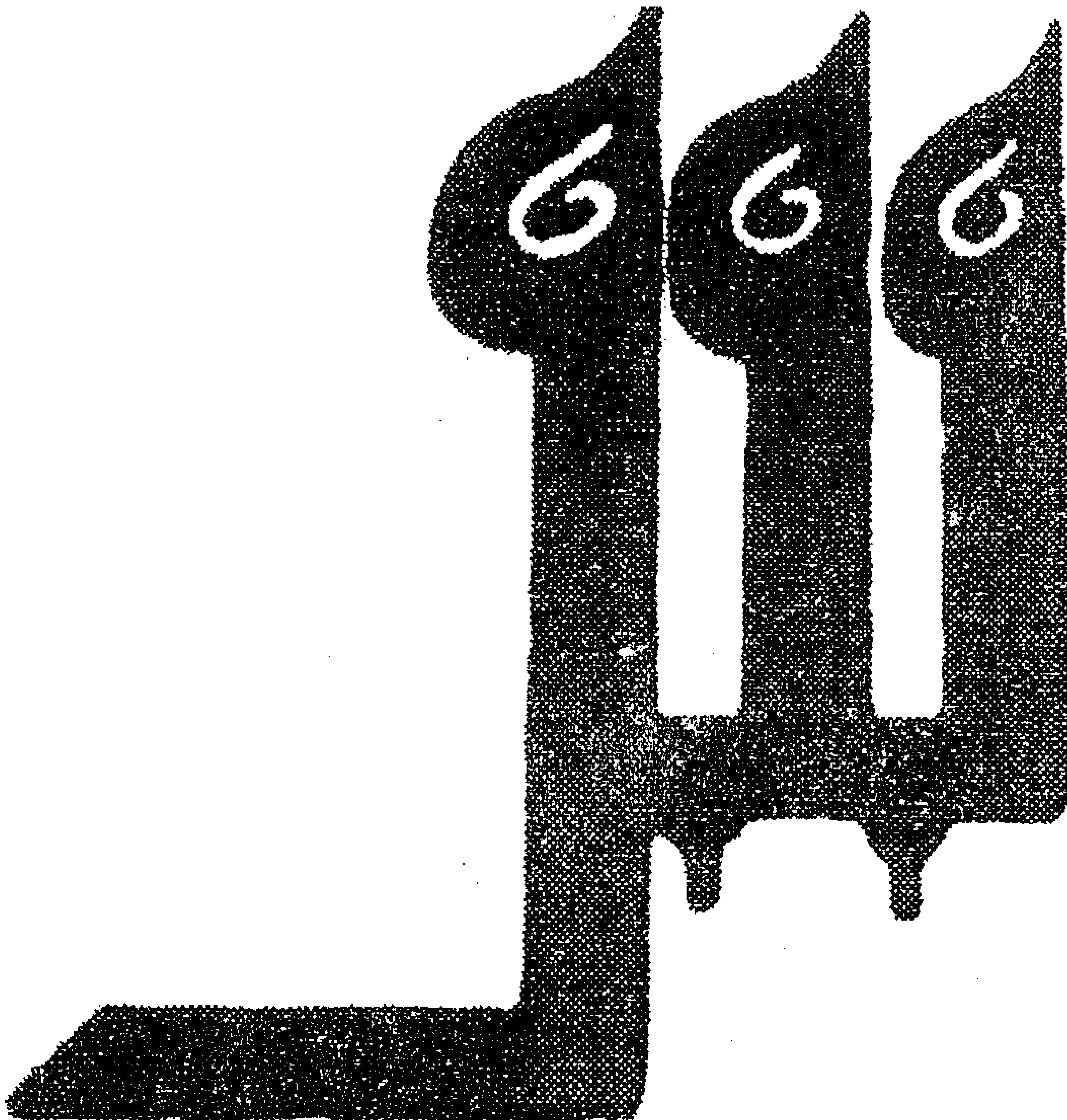
وقد تعصب المتصوفة للدخان كما تعصبوا للقهوة والحشيش من قبل. ونظم بعض الشعراء شعرا في ذلك، نذكر منه قول أبي المواهب البكري

المتوفى سنة ١٠٣٧هـ:

هات اسقنى التبغ إن تبغِ الصفا سحرا
حتى أُخَدِّرَ منه وهو إغشاء
واستجل أنوار شمع من يدى رشا
قدزانه قامة بالحسن هيفاء
لعل نار أسى بالبعد قد وقدت
يوما يكون لهابا بالقرب إطفاء
فاملأ كئوس رحيق كالحريق فقد
أغنتك إذ وصفت باللطف صهباء
ودع ملام طبيب عابها سفها
ودوانى بالتى كان هى الدا

ولم تكن لفائف التبغ قد عرفت فى ذلك الوقت، وإنما كان يوضع الدخان فى الأحجار التى مازالت تتخذ فى النارجيلة. ولذلك ذكر الشاعر النار والكئوس ويعنى بها الأحجار، كما ذكر الساقى الذى ناوله هذه النارجيلة وتغزل فيه على عادة شعراء الخمر

***



الحالة الفكرية

ساد في هذا العصر مذهب أهل السنة ، وهو المذهب الذى عرفته مصر منذ سقوط الخلافة الفاطمية. وكانت آراء الأشعرى هى المعتمدة عند غالبية رجال الدين. والانحياز إلى آراء الأشعرى يقتضى مهاجمة المعتزلة الذين قل وجودهم فى العالم الإسلامى إبان العصر الذى ندرسه، ولكن كتبهم كانت معروفة . فأخذ أشاعرة تلك الأيام على عاتقهم مهمة الرد على ما جاء فى هذه الكتب. وأكثر ما ظهر هذا فى دراستهم لكتب التفسير وبخاصة الكشاف للزمخشرى. فكانوا يحملون عليه إذا تناول شيئا يتعلق بالاعتزال. أما إذا تكلم فى النحو والبلاغة فهو عندهم الصادق المصدق، والإمام المحقق. فهم يأخذون من القدماء ما وافق عقائدهم ويرفضون ما خالفها. ويمدحون كل من يعرض بالمعتزلة بحق وبغير حق. وإلى جانب تفسير الزمخشرى فإنهم كانوا يدرسون تفسير البيضاوى والفخر الرازى ويقفون منهما الموقف المتقدم. وألفوا رسائل فى الإيمان، وهل هو بمشيئة الله أم لا؟ نذكر من هذا «رسالة فى الإيمان وكونه مخلوق أو غير مخلوق» للشهاب الخفاجى ، و «رسالة فى الإيمان، وهل يكون بمشيئة الله أم لا؟» له . و «رسالة الجواهر المضيئة فى تجويز إضافة الإيمان الجازم إلى المشيئة» لأبى الحسن البكرى المتوفى سنة ٩٥٢هـ «رسالة فى كلام الله، وهل هو مخلوق أو غير مخلوق؟» له. و «رسالة الدر النظيم فى تحقيق الكلام القديم» لأحمد الجوهرى المتوفى سنة ١١٨٢هـ، و «رسالة فى تحقيق الجزء الاختيارى» له، و «رسالة الفطرة السليمة فى تحقيق دلالة القرآن على الصفة القديمة» له أيضا. وعلاوة على ذلك فإنهم كانوا يتناولون هذه الموضوعات من خلال شرحهم للقرآن وتفسيرهم للحديث، وفى الحواشى والتعليقات التى وضعوها على بعض الكتب. ولكنه فى نفس الوقت نجد أنه قد جاء بهاء الدين العاملى إلى مصر سنة ٩٩٢هـ وألف بها كتاب «الكشكول» وضمنه مطاعن كثيرة فى آراء الأشعرية، وانتصار للمعتزلة الذين كان ينتمى إليهم.

* * *

وقد اتخذت السلطنة العثمانية المذهب الحنفى مذهبا رسميا لها. فألفت كتب كثيرة فى مناقب أبى حنيفة النعمان، مثل «عقود الجمان فى مناقب أبى حنيفة النعمان» تأليف محمد بن يوسف من فقهاء القرن العاشر. و «الخيرات الحسان فى مناقب أبى حنيفة النعمان» لابن حجر الهيثمى المتوفى سنة ٩٧٤هـ ومع أنه شافعى المذهب إلا أنه سخر قلمه فى خدمة سياسة الدولة العثمانية . و «أعلام الأخيار من فقهاء مذهب النعمان المختار» تأليف محمود بن سليمان المتوفى سنة ٩٩٠ هـ و «الكلمات الشريفة فى تنزيه أبى حنيفة من الترهات السخيفة» لمصطفى بن نوح المتوفى سنة ١٠٧٠هـ و «عقود الجواهر المنيفة فى أدلة مذهب أبى حنيفة » لمرتضى الزبيدى المتوفى سنة ١٢٠٥ هـ إلى غير ذلك.

وكان بعض أتباع المذاهب الأخرى يؤلفون كتبا فى الطعن على أبى حنيفة . وقد أشار إلى ذلك محمد بن يوسف فى مقدمة كتاب «عقود الجمان» كما أشار ابن حجر الهيتمى إلى الطاعنين على أبى حنيفة فى كتابه «الخيرات الحسان».

وعلى كل حال فإن المصريين رفضوا أن يجتمعوا على المذهب الحنفى على الرغم من

الدعاية التى روجها العثمانيون لهذا المذهب ، وعلى الرغم من إيثارهم الأحناف للوظائف القضائية. وتمسك قسم كبير من المصريين بمذهب الشافعي، لأن صاحبه مدفون بالقاهرة، وله ضريح كان الناس ومازالوا يزورونه متبركين . وبقى مذهب مالك كما كان من قبل. وساعد على ذلك وفود المغاربة إلى القاهرة، وهؤلاء معروفون بتمسكهم بالمذهب المالكي. أما الحنابلة فكانوا قلة. ومما هو جدير بالذكر أن المصريين منذ وجدت الدراسات الفقهية فى مصر، أظهروا ميلا شديدا إلى مذهب مالك. ولما جاء الشافعي إلى القاهرة انتشر مذهبه . أما مذهب أبى حنيفة فكان قليلا . ومذهب ابن حنبل كان نادرا.

وإن فكرة توحيد الأحكام فكرة سليمة جدا، ولكن المجتمع المصرى حرم من هذه الميزة. ولذلك كان الناس يعانون فى عباداتهم ومعاملاتهم حيرة واضطرابا، وقد صور لنا الشعرانى فى كتابه «كشف الغمة عن جميع الأمة» هذه الحيرة فقال «... وبعد، فقد شكا إلى مرارا بلسان الحال وبلسان المقال جماعات من الفقراء المتعبدين وأهل النافعة من المؤمنين ما يجدونه فى نفوسهم من كثرة الغم حين يسمعون العلماء يقرأون مذاهبهم وينصرون أقوالها دون مذاهب غيرهم. وقالوا لى : قد التبس علينا شرع ربنا الذى تعبدنا به، وعسر علينا تمييزه، وازدرانا لجهلنا غالب الذين لم نتقيد بمذهبهم. فإن توضأنا على مذهب قال لنا أهل المذهب الآخر: وضوءكم باطل وإن صلينا على مذهب قالوا : صلاتكم باطلة وإن زكينا قالوا : زكاتكم باطلة. وإن صومكم قالوا صومكم باطل. وهكذا فى سائر عباداتنا . وما نعرف الحق مع أيهم حتى نقتصر عليه. وقد أورث ذلك عندنا الحيرة والشك» واستطرد الشعرانى فذكر أنه ألف هذا الكتاب معتمدا على كتب الحديث الموثوق بها. وأورد معظم أدلة المجتهدين معتقدا أنه بهذا الكتاب يستطيع أن يقضى على الحيرة والشك، وأنه قادر على جمع المصريين على كتابه ، ولكن غرضه لم يتحقق لان السلطنة العثمانية كانت ترى فى توحيد المذاهب فقدان لسطوتها ويكفيها أن يكون لها اتباع على مذهبها (الذى يدين به معظم العثمانية) لتدعم الفرقة عملا بمبدأ «فرق تسد» وهى فى سبيل ذلك كانت تدعم أتباع مذهبها بالوظائف والاقطاعات والاوقاف والاموال.

* * *

وظهر فى هذا العصر كثيرون من كبار الفقهاء الذين كسبوا شهرة واسعة فى العالم الإسلامى ، وسعى إليهم طلاب العلم من الآفاق.

فمن فقهاء المذهب الحنفي : أحمد بن محمد الشوبرى المتوفى سنة ١٠٦٦هـ الذى لقب بأبى حنيفة الصغير . وقد أخذ عنه جميع علماء الحنفية فى ذلك الوقت من أهل مصر والشام. ووصفه بعضهم بقوله «قرة عين الإمام الأعظم وصاحبيه، ومن انتهت رياسة الحنفية بالقاهرة المعزية إليه».

ومن فقهاء الشافعية : محمد بن أحمد الملقب بشمس الدين الرملي، المتوفى سنة ١٠٠٤ هـ وقد اشتهر بالشافعى الصغير. وزعم بعضهم أنه مجدد القرن العاشر، وبالغوا فى مدحه. وهو كما يقول صاحب خلاصة الأثر «أستاذ الأستاذين، وأحد أساطين العلماء وأعلام نحاريرهم، محيى السنة ، وعمدة الفقهاء طار صيته فى الآفاق. فرحل إليه طلبة العلم ، وأقبل الناس على قراءة كتبه».

ومن المالكية : سالم بن محمد السنهورى المتوفى سنة ١٠١٥هـ كان كما ذكر المحبى «أجل

أهل عصره غير مدافع ، وأخذ عنه الجم الغفير من أهل مصر والشام والحرمين».

والآن يحق لنا أن نتساءل : إلى أى مدى جدد هؤلاءالعلماء فى الفقه؟ وهل أضافوا شيئا جديدا إلى مادته؟

الواقع أنهم لم يأتوا بجديد، لأن المذاهب الفقهية كانت نضجت واكتملت على أيدى من سبقهم من العلماء، ولكنهم استوعبوا هذه المذاهب وفهموها فهما جيدا، وتمثلوها إلى حد بعيد حتى أصبح كل منهم عالما متبحرا فى مذهبه ، محيطا بدقائقه إحاطة تامة، قادرا على شرح ما عسى أن يكون غامضا منه. وهذه ميزات ليست يسيرة أضف لهذا أن لغتهم فى الشروح التى وضعوها كانت محاولة للخروج من أسر لغة التراث التى كتبت بها المخطوطات الاصلية للمذاهب الفقهية والتى لم يعد يفقها عامة الدارسين والطلاب.

وكان الجامع الأزهر معهدا عاما تدرس فيه جميع العلوم المتصلة بالدين كالتفسير والحديث وفقه المذاهب الأربعة، والنحو والبلاغة والمنطق والرياضيات. وبه أروقة لمختلف أجناس الطلاب. وله أوقاف طائلة ، وبه مكتبة ضخمة. والدراسة فيه منتظمة لا تكاد تنقطع طوال اليوم. والطلاب يلتفون حول أساتذتهم فى شكل حلقة ذات صفوف . فيجلس بالقرب من الأستاذ الأفضل، ويليه الأقل فالأقل. وهذه الصفوف تسمى طبقات . فيقال فلان من أهل الطبقة الأولى، أو الثانية ، أو الثالثة ، وهكذا . وبعض المدرسين يتخذون ملاحظا يتولى إجلاس الطلاب كل فى مكانه. وقد يعهد بهذا إلى أحد طلبته. وليعضهم معيدون يتولون إعادة ما ألقاه الأستاذ على الطلبة.

ومن وظائف الأزهر المتصلة بشئون التعليم؛ وظائف مشايخ الأروقة، وكانت موضوعا للتنافس.

وشيخ الأزهر يعين بعد أخذ رأى علمائه وتراعى فيه الكفاءة والمقدرة والاستقامة بغض النظر عن مذهبه. وقد بلغ بعضهم منزلة رفيعة عند الحكام، وعاشوا عيشة الأمراء فى مسكنهم وملبسهم ومأكلهم.

وقد أنشأ محمد بك أبو الذهب سنة ١١٨٧هـ معهدا عاما أنفق عليه أموالا طائلة، وعين به عددا كبيرا من أساتذة الأزهر، وجعل به مكتبة تحوى عددا كبيرا من الكتب النفيسة، كان من بينها «شرح القاموس المحيط» للزبيدى ، وهى النسخة الخطية التى كتبت فى حياة المؤلف. ورصد له الأوقاف اللازمة للإنفاق على المدرسين والطلبة. ولكن هذا المعهد خرب بعد وفاة منشئه بسبب نهب اتباعه للاوقاف التى كانت مرصودة عليه.

وكانت هناك معاهد خاصة بكل مذهب عدا المذهب الحنبلى لعدم إقبال الناس عليه، فلم يدرس فى غير الأزهر . ولبعض هذه المدارس الخاصة شهرة لا تقل عن شهرة الأزهر، ولها احترام كبير.

فمن هذه المعاهد : المدرسة الخشابية بجوار الإمام الشافعى. ولا يعين بها إلا أعظم علماء الشافعية. وهى مختصة بتدريس فقه الشافعى. وكذلك المدرسة الصلاحية وهى بجوار الخشابية . وهاتان المدرستان من أقدم مدارس القاهرة. وكان للشافعية مدرسة أخرى بجوار الأزهر؛ هى المدرسة الطيبرسية.

وللأحناف مدارسهم الخاصة كذلك؛ وأشهرها الصرغتمشية والسنانية والأشرفية ؛ والمؤيدية . ولهم بحى الصليبة مدرستان : إحداهما اسمها البرقوقية والأخرى اسمها الباسطية.

وعلاوة على ما تقدم فإن كثيرا من مساجد القاهرة والأرياف كان يتخذ أمكنة للدراسة . فإذا اشتهر عالم فى جهة من الجهات، وأراد أن ينفع الناس بعلمه ، ذهب إلى أقرب مسجد واشترى وظيفة الوعظ والتدريس وعقد الدرس فيقبل عليه الناس نظرا لشهرته وقد كان مرتضى الزبيدى يدرس صباحا فى مسجد شيخون لقربه من منزله. ويدرس بعد الظهر فى مسجد الحنفى. وكانت دروسه مجمعا للطلاب بل ولعلماء الأزهر أنفسهم، ولبعض الأمراء والأعيان.

وكانت للاسكندرية مدارسها. واشتهر فى دمياط جامع البحر، وفى طنطا جامع أحمد البدوى وبخاصة بعد أن جدده على بك الكبير، وزوده بمكتبة، ورصد له أوقافا ، وخصص الطعام والكساء لطلبته. وفى دسوق جامع ابراهيم الدسوقى. وفى منوف معهد درس فيه كثير من العلماء. واشتهرت جرجا وفرشوط بمدارسهما وعلمائهما وأدبائهما وشعرائهما. وقد زار مرتضى الزبيدى مدينة فرشوط ونزل عند حاكمها شيخ العرب همام الذى أكرم وفادته، ومدحه بعض شعرائها.

والكتاتيب منتشرة فى كل مكان. وكان طلاب الأقاليم يحضرون إلى الأزهر لاستكمال علومهم.

وكان الأطفال فى هذه الكتاتيب يتعلمون القراءة فقط. أما الذين يتعلمون الكتابة فكانوا قلة ضئيلة. وهكذا تفشت الأمية على الرغم من وجود الكتاتيب فى كل مكان.

ونجد فى هذا العصر تساهلا كبيرا فى منح الإجازات العلمية ففى العصور الأولى كان طالب الأجازة يلازم أستاذه مدة طويلة، يحفظ فيها كل ما يسمعه من الأستاذ الذى لا يمنحه الإجازة إلا بعد تدقيق وتحقيق وامتحان. أما فى العصر الذى ندرسه فكانت تعطى جزافا، إذ كان يكفى أن يقرأ الطالب أوائل كتاب أو كتابين مما يدرسه الأستاذ حتى ينال إجازة بجميع مروياته. وكثيرا ما أعطيت لمن طلبوها من أهل البلاد القاصية عن طريق المراسلة. فكان العالم فى القاهرة يبعث إلى طالب فى مكة بالإجازة دون أن يراه أو يختبره. فيبدو أنهم يعتبروها رتبة فخرية. وشذ من هؤلاد العلماء محمد بن حسن بن جمال الدين الشافعى المتوفى سنة ١١٩٩هـ فقد ذكر الجبرتى «أنه كان صعبا فى الإجازة، لا يجيز أحد إلا إذا قرأ عليه الكتاب الذى يطلبه الإجازة فيه بتمامه ولا يرى الإجازة المطلقة، ولا المراسلة، حتى إن جماعة من أهل البلاد البعيدة أرسلوا يطلبون منه الإجازة فلم يرض ذلك. وهذه الطريقة فى مثل هذا الزمان عسرة جدا».

وقد ورثوا عن أسلافهم عادة التأنق فى صياغة الإجازات. ولذلك أضيفت إلى أبواب الأدب نثرا كانت أو شعرا.

* * *

وإذا فرغ أحد الشيوخ من تدريس كتاب، أقيم لذلك حفل عظيم . وقد وصف لنا أبو بكر العياشى المغربى (فى رحلته) الذى زار مصر سنة ١٠٢٠هـ حفلا رآه فى الأزهر فقال «... فلما كان فى يوم

تسعة وعشرين من الشهر ـ رمضان ـ ختم المشايخ دروسهم بختم الشيخ عبد السلام اللقانى بعد صلاة الصبح وعادتهم فى الختم أن يحضر يوم الختم أنجب تلامذه المدرس وكبراء إخوانه. فإذا فرغ المدرس، قرأ القارئ آيات من القرآن بقراءة مطربة . ومنهم من يقرأها بالقراءات السبعة. وبعد فراغه ينشد منشد بصوت رخيم قصيدة من إنشاء بعض التلاميذ، فيها مدح النبى صلى الله عليه وسلم، والترضى عن مؤلف الكتاب المقروء، والدعاء للشيخ الذى يدرسه. ثم يقوم آخر ويثنى على الله وعلى رسوله بثناء بليغ، ثم على آل رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وأصحابه وتابعيهم بإحسان. ثم يترضى عن المشايخ أرباب المراتب. كل ذلك بنثر بديع ولفظ فصيح. ثم يقرأ الفاتحة ويهدى ثوابها إلى حضرة النبى صلى الله عليه وسلم، وإلى من ذكر بعده . ويبالغ فى الثناء عليهم إلى أن يصل إلى الشيخ المدرس فيدعو له وللحاضرين بأبلغ دعاء بقلب حاضر، وصوت خاشع، ويؤمن الحاضرون على دعائه، ثم يختم . وبعد هذا يقوم أهل المجلس كلهم ويصافحون الشيخ، ويدعون له ويدعو لهم، ويحضر الختم جمع عظيم من الناس وأهل الفضل والمجاذيب»

* * *

وكان بالقاهرة مدرسة للطب فى المارستان المنصورى. وقد جاء إلى مصر فى أوائل هذا العصر طبيب حاز شهرة واسعة، وهو داود الأنطاكى المتوفى سنة ١٠٠٨ هـ وكان على درجة كبيرة من الثقافة، مستوعبا لكتب ابن سينا فى الطب والفلسفة. فوضع عدة كتب فى الطب أشهرها تذكرته التى ظلت موضع احترام طوال العصر العثمانى. وطبعت بمصر عدة طبعات.

ودرس داود فى المارستان المنصورى، وتخرج على يديه طلبه كثيرون اشتهر منهم أحمد بن سراج الدين المعروف بابن الصائغ الشيخ الرئيس، تولى مشيخة مدرسة الطب، وتوفى سنة ١٠٣٩ هـ فخلفته بنته.

ثم نبغ طبيب مصرى آخر؛ هو مدين بن عبد الرحمن القوصونى، كان موجودا سنة ١٠٤٤ هـ وهو من تلاميذ داود، ومن مؤلفاته فى الطب قاموس الأطباء فى المفردات.

واشتهر أحمد بن سلامة القليوبى المتوفى سنة ١٠٦٩ هـ وكان «فى الطب ماهرا خبيرا، حسن التقرير، يبالغ فى تفهيم الطلبة، ويكرر لهم تصوير المسائل».

وكان اليهود أكثر إقبالا على الاشتغال بالطب من المسلمين . قال داود الأنطاكى فى مقدمة تذكرته: « ... فإنى حين دخلت مصر رأيت الفقيه الذى هو مرجع الأمور الدينية يمشى إلى أوضع يهودى للتطبب به، فعزمت على أن أجعله ـ الطب ـ كسائر العلوم، يدرس ليستفيده المسلمون. فكان فى ذلك وبالى ونكد نفسى وعدم راحتى من سفهاء لازمونى قليلا، ثم تعاطوا التطبب فأضروا بالناس فى أموالهم وأبدانهم. وأنكروا الانتفاع بى، وأفحشوا فى أفاعيلى».

وتعاطى الطب كذلك بعض الأقباط ولا سيما الرهبان.

وسبق أن ذكرنا أن عبد الرحمن كتخدا المتوفى

سنة ١١١٩هـ جدد المارستان المنصورى وزاد فى أوقافه. وقد ظل هذا المارستان المدرسة الوحيدة التى يدرس فيها الطب، كما كان المستشفى الحكومى الوحيد الذى تعالج به مختلف الأمراض حتى قيام محمد علي.

* * *

وكانوا يدرسون العلوم الرياضية التى عرفت من قبل . وأخذوا عن القدماء عادة خلط الحساب بالفرائض. ومن أنواع الرياضة التى درسوها: الجبر، والهندسة النظرية «إقليدس» والحيل «الميكانيكا» والفلك. واتخذوا المزاول لمعرفة الأوقات، والساعات التى كانت ترد عليهم من الخارج. وكان لبعض المساجد الكبيرة مؤقتون لتحديد أوقات الصلاة، يعرف الواحد منهم بالميقاتى.

إلا أن الإقبال على دراسة العلوم الرياضية كان قليلا جدا، فى حين أن الإقبال على العلوم الدينية كانت له الغلبة. وهذا يرجع إلى قانون العرض والطلب . فالمعروف أن الطالب يدرس ما يساعده على كسب رزقه وبخاصة إذا كان فقيرا. وقد كانت الوظائف المعروفة إذذاك وظائف كالمؤذن والإمام والخطيب والمأذون والشاهد والقاضى ونائبه، والمفتى والمحتسب والمدرس. وكان لوجود المذاهب الأربعة دخل فى هذه الكثرة التى لو وزعت على كل مذهب لم تكن شيئا . ثم إن رجل الدين كان محترما فى ذلك الوقت من الحكومة والشعب. أما الوظائف الحسابية فكانت فى يد الأقباط.

وفى هذه الحقبة لم يكن الناس كلهم يؤمنون بكرامات الأولياء، ويسلمون بما يدعونه لأنفسهم من القدرة التى لا حد لها ولكن الغالبية من رجال الدين كانوا عكس ذلك وقد صور الشعرانى موقف معاصريه المنكرين للأولياء فى مقدمة كتابه «الطبقات الكبرى» فقال : « .. فإذا مر عليه ولى من أولياء الله ينسبونه إلى الزندقة والجنون، وتراهم ينظرون إليه وهم لا يبصرون . فمنهم المنكر لكراماتهم ، ومنهم المنقص لمقاماتهم، ومنهم الثالب لأعراضهم، ومنهم المعترضون على أحوالهم ، ويخوضون بجهلهم فى مقالهم، وبهم يستهزئون..» .

وقد ألف الشعرانى هذا الكتاب دفاعا عن الأولياء وما يأتون به من الكرامات والخوارق. وقال فى كتابه «لطائف المنن» « .. وفى عصرنا هذا جماعة من الصوفية العاملين، ربما يكون المنكر عليهم لا يصلح تلميذا لهم، كسيدى محمد ابن الشيخ أبى الحسن البكرى، والشيخ سليمان الخضيرى، والشيخ ناصر الدين الطبلاوى، والشيخ زين سبط على المرصفى. وقد عرضت هؤلاء على بعض المنكرين فقال : لا أعتقد فى واحد من هؤلاء إلا إن رأيت له كرامة ، فقلت له : وأى كرامة أعظم من العلم والعمل ؟ ! فلم يرجع إلى قولى وتركته» ولكن الشعرانى عرض بأهل عصره ممن يظهرون التصوف ويبطنون النصب والتدجيل فقال رسالته «تنبيه المغتربين» ما نصه: «... وقال لى الأمير محمد دفتردار مصر مرة : أنا لا أعتقد فى مشايخ مصر الآن ولو مشى أحدهم فى الهواء. فقلت : لماذا ؟ فقال : لأنى رأيتهم يجتهدون فى طلب الدنيا أكثر مما نجتهد نحن فيها.» وقد دخل على شيخ منهم فى رمضان ليفطر عندى فقلت له : هذا الطعام عندى فى حله شك فلا تأكل منه فقال : قدمه لى وعلى حسابه فى الآخرة. فكيف أعتقد فى مثل هذا وأنا لا تطيب نفسى أن آكل منه مع أنى معدود من الظلمة؟!» .

وبقيت هذه المناقشات بين المتعصبين للأولياء

وكراماتهم ، وبين المنكرين . فهذا عبد الرءوف المناوى المتوفى سنة ١٠٣١ هـ يؤلف كتابا اسمه «إرغام أولياء الشيطان بذكر مناقب أولياء الرحمن» والمقصود بأولياء الشيطان هم المنكرون للأولياء وكراماتهم. ويرى المناوى فى طبقاته أن الولى «لا يبلغ درجة النبى، ولا تسقط عنه التكاليف بكمال الولاية كما ادعى بعض أهل الإلحاد والاتحاد، أن الولى إذا بلغ الغاية فى المحبة وصفاء القلب وكمال الإخلاص، سقط عنه الأمر والنهى، ولم يضره ذنب، ولا يدخل النار بارتكاب الكبائر.

وذلك باطل بإجماع المسلمين. ولا تكون ولاية غير النبى أفضل من النبوة بحال. وإنما الكلام فى ولايته ـ أى النبى ـ فقيل هى أفضل لما فيها من معنى التقرب وكمال الإخلاص وقيل بل نبوته لما فيها من الوساطة بين الحق والخلق. ثم إن ظهور الكرامة لا يدل على أفضلية ، وإنما هى بقوة الإيقان وكمال العرفان».

وقد كثرت الكتب المؤلفة لإثبات كرامات الأولياء ، نذكر منها «طبقات الشرنوبى» تأليف أحمد الشرنوبى المتوفى سنة ٩٩٤هـ و «الفتوحات الربانية فى مناقب السادة الخضيرية» تأليف مراد بن يوسف الأزهرى المتوفى سنة ١٠٣٠ هـ و «الماء الزلال فى إثبات كرامات الأولياء فى الحياة وبعد الانتقال لأحمد الجوهرى المتوفى سنة ١١٨٢هـ و «كنز السعادات فى الكرامات بعد الممات» لعبد الرحمن الأجهورى المتوفى سنة ١١٩٧ هـ و «السهم القوى فى نحر كل غبى ، فيمن ينكر كرامات الأولياء» للسجاعى المتوفى سنة ١١٩٧هـ وهذا غير ما ألفه الشعرانى والمناوى.

وفى سنة ١١٢٣ هـ حضر إلى القاهرة واعظ تركى، أخذ يعظ الناس بجامع المؤيد. ثم انتقل من الوعظ إلى ذكر ما يفعله أهل مصر بأضرحة الأولياء، وإيقاد الشموع والقناديل على القبور. وقال إن هذا كفر يجب على الناس أن يتركوه . وعرض بقولى الشعرانى فى طبقاته إن بعض الأولياء اطلع على اللوح المحفوظ. فأنكر ذلك على الأنبياء فضلا عن الأولياء . وقال بوجوب هدم القباب المبنية على الأضرحة. وأنكر وقوف الفقراء بباب زويلة فى شهر رمضان.

فلما سمع الحاضرون ذلك خرجوا ليلا إلى باب زويلة حاملين العصى والأسلحة فهرب من كان هناك. ثم إنهم قطعوا الجوخ والأكر المعلقة وهم يقولون «أين الأولياء؟». فأغضب عملهم بعض الناس فذهبوا إلى الجامع الأزهر وأخبروا الشيخ النفراوى وأحمد الخليفى بما حدث. فأفتى هذان الشيخان بأن كرامات الأولياء لا تنقطع بالموت، ولا يجوز لأحد أن ينكر اطلاع الأولياء على اللوح المحفوظ . وقالا بوجوب زجر الواعظ الذى غضب من هذه الفتوى، وأبدى استعداده لمناظرة العلماء. وتعصب له كثيرون وتطوعوا للدفاع عنه، وتعاهدوا على نصرته. وأخذ الواعظ يحرض أنصاره على الدفاع عن الدين وقمع الدجالين، ولكن الأمر انتهى بنفيه وتشتيت شمل أنصاره.

وهذا الواعظ من غير شك متأثر بآراء ابن تيمية والواقع إن آراء ابن تيمية كان موضوعا للنقاش عند بعض علماء هذا العصر. فقد ألف ابن حجر الهيثمى كتابا سماه «الجوهر المنظم فى زيارة القبر النبوى المكرم» ومعروف أن ابن تيمية يرى أن زيارة

القبر النبوى مشروعة مطلوبة بالكتاب والسنة وإجماع الأمة والقياس. وقد اعتمد ابن حجر على ما كتبه السبكي من قبل في الرد على ابن تيمية، ولم يأت بجديد. على أن ابن حجر في كتابه «النعمة الكبرى على العالم بمولد سيد ولد آدم» يرى إن إقامة المولد النبوى بدعة لأنها لم تعرف عند المسلمين الأولين. ويقول إن أكثر ما يرويه القصاص والوعاظ فيما يتعلق بمولد الرسول مكذوب، لا أساس له من الصحة. ولكنه ذكر أنها بدعة حسنة لما اشتملت عليه من الإحسان الكثير إلى الفقراء، وتلاوة القرآن، وإظهار السرور والفرح بالنبى، وإغاظة أهل الزيغ والزنادقة والملحدين، والكفرة والمشركين. وقد كرر ابن حجر هذه الآراء في كتاب آخر هو «الدر المنضود في الصلاة على صاحب المقام المحمود».

* * *

ولم يعدم ابن تيمية أنصارا في العصر الذى ندرسه. فيقول صاحب «الكواكب السائرة في أعيان المائة العاشرة» « إن موسى المصرى المتوفى سنة ٩٩٠هـ كان يعتقد اعتقاد حمقى الحنابلة» ويقصد بحمقى الحنابلة أتباع ابن تيمية.

وألف بن مرعى الحنبلي المتوفى بالقاهرة سنة ١٠٣٠ هـ كتاب «الكواكب الدرية في مناقب ابن تيمية» خصها من مناقبه لعبد الهادى ابن قدامة المقدسي، ومن مناقبه لسراج الدين البزار، ومن مناقبه لأحمد ابن القاضي محيي الدين بن عمر الشافعي. وختم كتابه بفصل في الرد على خصوم ابن تيمية الذين يرمونه بالكفر.

ونحن نعلم ان ابن تيمية قال بوفاة الخضر، ولكن الصوفية في هذا العصر قالوا ببقائه حيا وقد ألف مرعى «رسالة الخضر» وأثبت فيها أنه مات وهو بهذا يتابع أستاذه ابن تيمية. وله غير ما تقدم كتاب «رفع الشبهة والغرر على من يحتج على فعل المعاصى بالقدر» عرض فيها بالاتحادية والحلولية الذين وقعوا في الإباحية وغرقوا في المعاصى وتركوا الفرائض محتجين على هذا بأنه مقدر عليهم، لا يستطيعون تركه. واعتمد مرعى على آراء ابن تيمية في هذا الموضوع.

ونلاحظ في هذا العصر كثرة الأسئلة التى وجهت إلى العلماء بخصوص الخضر، وهل هو حى أم ميت؟ ونلاحظ كثرة الرسائل التى وضعت في هذا الموضوع ، مما يدل على أن السائلين كانوا في شك من حقيقة أمره. وقد يكون شكهم هذا ناجما عن اطلاعهم على آراء ابن تيمية. ومن الرسائل التى وضعت لإثبات وجود الخضر حيا «القول الدال على حياة الخضر والأبدال» لمصطفى بن نوح المتوفى سنة ١٠٧٠هـ.

* * *

وكانت كتب ابن عربى منتشرة في دوائر المتصوفة، لا سيما «الفتوحات الملكية» ولكن من الإنصاف أن نقول إن أغلبهم لم يقبلوا نظريات الاتحاد والحلول ووحدة الوجود. ومنهم من اعتبر القول بها كفرا. وهذا هو محمد البكرى المتوفى سنة ٩٩٤هـ رأس المتصوفة في عصره يقول في إحدى قصائده :

أطلقوا وحدة الوجود وقالوا
كل شيء هو الإله البارى
يالقومي أما لطه نصيرا؟

غـاب من لم يكن من الأنصـار

ويقول من قصيدة أخرى:

حلول مـحـال، واتحـاد مـخـالف

لوحـدته فـالوصف فـيـه تلونا

* * *

وقد جاء إلى مصر في هذا العصر علماء أجلاء مازالوا موضع ثقة واحترام، وألفوا كتبا قيمة لا يستغنى عنها الباحث. نذكر منهم بهاء الدين العاملى الذى ألف كتابه «الكشكول» بالقاهرة .

وداود الأنطاكى وقد سبقت الإشارة إليه. ومرعى بن يوسف الحنبلى صاحب المؤلفات المشهورة التى أسلفنا الكلام على بعضها. وأحمد بن محمد المقرى صاحب «نفح الطيب» وغيره، وعبد القادر البغدادى صاحب «خزانة الأدب» وبدر الدين العباسى مؤلف «معاهد التنصيص، شرح شواهد التلخيص» ومرتضى الزبيدى شارح القاموس. وعبد الرحمن بن مصطفى العيدروس الصوفى المشهور.

ومر بها كثير من علماء المغرب. وزارها من علماء الشام والد المحبى الذى ألف رحلة عن هذه الزيارة . والمحبى صاحب «خلاصة الأثر» وعبد الغنى النابلسى الذى خصص جزء كبيرا من رحلته عما شاهده بمصر. وأبو بكر العياشى من علماء المغرب، وصاحب الرحلة التى أشرنا إليها .

واستوطنها من شعراء الشام كثيرون نذكر منهم : زين الدين العاملى ، وشمس الدين الحموى. وزارها طرز الريحان البعلى، وفتح الله النحاس، وابن الدرا. واستوطنها من شعراء المغرب يوسف بن زكريا المغربى. ومن الحجاز نور الدين القلعى.

واشتهر في هذا العصر من المتصوفة: محمد البكرى والشعرانى ، وعبد الرءوف المناوى الذى يقول فيه صاحب خلاصة الأثر «... فهو أعظم علماء هذا التاريخ آثارا. ومؤلفاته غالبها متداولة كثيرة النفع، وللناس عليها تهافت زائد، ويتغالون فى أثمانها».

ومن العلماء : ابن حجر الهيتمى ، وأحمد السجاعى ، وأحمد الدمنهورى، وأحمد الجوهرى، وغيرهم كثيرون.

ومن رجال النحو: الصبان، والكفراوى ومحمد الأمير . وقد ألفوا كتبا مازالت تدرس حتى عصرنا هذا.

ومن المؤرخين : ابن إياس الحنفى ، وهو أشهر من أن يذكر . ومحمد ابن عبدالمعطى الشهير بالاسحاقى صاحب كتاب «لطائف أخبار الأول فيمن تصرف بمصر من أرباب الدول» انتهى فيه إلى سنة ١٠٣١هـ ومحمد بن محمد ابن أبى سرور البكرى صاحب كتاب «عيون الأخبار ونزهة الأبصار» والنزهة الزهية فى ذكر ولاة مصر والقاهرة المعزية» و «الوشى المرقوم من النطق المفهوم» و«المنح الربانية فى تاريخ الدولة العثمانية» و «اللطائف الربانية على المنح الرحمانية» وابراهيم الصوالحى ـ كان بالقاهرة سنة ١٠٧١ ـ مؤلف كتاب «تراجم الصواعق فى وقعة الصناجق» ومصطفى بن ابراهيم مؤلف «تاريخ وقايع مصر سنة ١١٠٠ ـ ١١٥٠» وشيخنا الجبرتى، ونقولا الترك مؤلف كتاب «ذكر تملك الجمهور الفرنساوية الاقطار المصرية»

* * *

ومن كتاب السير والتراجم : نور الدين الحلبى مؤلف «إنسان العيون فى سيرة الأمين المأمون »

ويعرف بالسيرة الحلبية. ومحمد بن على الداودى مؤلف «طبقات المفسرين» والشهاب الخفاجى صاحب «ريحانة الألبا» و «خبايا الزوايا فيما فى الرجال من البقايا» وأحمد بن سلامة القليوبى مؤلف «تحفة الراغب فى سيرة جماعة من آل البيت الأطايب» ومحمد بن أحمد البهوتى مؤلف «التحفة الظريفة فى السيرة النبوية الشريفة» وأبو الصلاح على بن محسن الصعيدى مؤلف «تعطيرُ الأنفاس بمناقب الشاذلى وأبى العباس» وأحمد الرشيدى مؤلف «حسن الابتهاج فيمن ولى فى مصر إمارة الحاج» وعبد الرحمن الأجهورى مؤلف «مشارق الأنوار فى آل البيت الأخيار» ومرتضى الزبيدى مؤلف «الروض العطار فى نسب آل جعفر الطيار» و «رفع نقاب الخفا عمن انتمى إلى وفاء الوفا» ومحمد بن على الصبان مؤلف «إسعاف الراغبين فى سيرة المصطفى وفضائل أهل بيته الطاهرين» ومدين بن عبد الرحمن القوصونى مؤلف «ريحانة الألباب وريعان الشباب فى مراتب الآداب» وقداعتمد صاحب خلاصة الأثر على هذا الكتاب الذى لم يصل إلينا فيما كتبه عن أدباء مصر وشعرائها وعلمائها فى القرن الحادى عشر. وعبد البر الفيومى مؤلف «منتزه العيون والألباب فى بعض المتأخرين من أهل الآداب» جعله على طريقة الشهاب الخفاجى فى ريحانته. وهذا الكتاب لم يصل إلينا كذلك مع أنه اشتهر ببلاد الشام، وعليه اعتمد صاحب خلاصة الأثر فيما كتبه عن مصر.

***

وظهرت فى هذا العصر مؤلفات كثيرة فى الروحانيات ، وفك الأرصاد والطلاسم، وفى ألعاب المهارة كالسيما والزايرجة. وفى التنجيم وضرب الرمل ولم يكن الناس كلهم يؤمنون بهذه الخرافات . فها هو الإدكاوى الشاعر ينكر على المنجمين ما يزعمونه من معرفة ما يقع فى المستقبل، وله شعر فى ذلك نذكر منه:

الله يعلم ما يكون وما به
تسرى الرياح وماله يجرى الفلك
فدع المنجم فى ضلالته وما
ينبيك عنه ففى مقالته أفك
واحذر تصدقه فتهلك عامدا
يامدعى الإيمان فيمن قد هلك
علم الإله محجب إلا على
من يرتضيه من نبى أو ملك
هذا اعتقادى والذى ألقى به
ربى لأسلك ناجيا مع من سلك

أما بعد فهذه صورة للحالة الفكرية فى مصر إبان العصر العثمانى. ويمكن أن نخرج من هذه الدراسة بأمور:

أولا : إن الحركة العلمية فى مصر فى ذلك العصر كانت نظرية محضة . ولم يعرف العلم التجريبى القائم على المشاهدة والتجربة والاختبار.

ثانيا: إنها استقت من المصادر القديمة، ولم يكن فيها تجديد أو ابتكار.

ثالثا : إنها لم تتصل بالنهضة العلمية الأوروبية ، لا من قريب ولا من بعيد . فالمعلومات الجغرافية والفلكية القديمة ظلت كما هى . فلم يصل إلى أسماع المصريين أنباء العالم الجديد، وما كشفه الأوروبيون من قارات ومحيطات ولم يقفوا على شىء من تقدم علم الفلك أو علوم الطبيعة والكيمياء والطب ولو ترك المصريون وشأنهم فى ظل هذه الحياة العلمية لما تغير حالهم، ولبقيت معالمهم الفكرية كما هى دون أى تقدم.

لذلك لما اطلعوا على العلوم الحديثة التى صاحبت الحملة الفرنسية أبدوا دهشتهم

نبذة عن أحوال الشعر ومذاهبه فى هذه الفترة

قال الشهاب الخفاجي فى ترجمة محمد البلينى الشاعر المصرى المتوفى سنة ١٠١٩ فى كتابه خلاصة الأثر ما نصه: «وله شعر أصفى من الرحيق المعتق، وأبهى من الوشى المنمق، إلا أنه تجاوز رقة النسيب إلى التجنيس والغريب».

وقال فى ترجمة الشاعر يوسف بن زكريا المغربى نزيل القاهرة، المتوفى سنة ١٠١٩ هـ بعد أن أورد جملة من شعره «واعلم أن هذا كله ليس بشعر ترتضيه الأدباء، وهو كل شعر أكثر فيه من البديع».

وكتب الخشاب إلى أحد الشعراء، وكان يعرض شعره للذم بالتزامه مالا يلزم:

ألزمت نفسك فى القريض مذاهبا
ذهبت بشعرك فى الحضيض الأوهد
وتركت ما قد كان فيه لازما
هلا عكست فجئت بالقول السدى؟
كدرت فيه بما صنعت بحوره
فغدت مشارع ليس ينحوها الصدى
فإذا نظمت فكن لنفسك ناقدا
نقد البصير بذهنك المتوقد
أولا فدع تكليف نفسك واسترح
من قولهم ما شعره بالجيد

فمن هذا وأمثاله نعلم أن الشعراء المصريين فى العصر العثمانى كانوا يكرهون التكلف والتزام الصنعة، واستخدام المحسنات اللفظية من جناس وطباق ومقابلة إلا ما أتى عفوا، ويفضلون أن يترك الشاعر نفسه على سجيتها. وهذا المذهب متفق كل الاتفاق مع قوم غلب على كثير منهم ارتجال الشعر فى سهراتهم الخاصة التى كانت تجمع بينهم، وفى المجالس الأدبية التى كثرت فى ذلك العصر، وفى الموالد التى تقام للأولياء.

وممن اشتهر بالارتجال: أبو السماع البصير المتوفى سنة ١٠٦٦هـ وفيه يقول المحبى «الشاعر البديهى، أعجوبة الزمان، وأحد الأفراد فى البديهة وارتجال الشعر. وكانت طريقته إذا أراد الارتجال أن يبدأ بإنشاد قصيدة من كلام أحد الشعراء المتقدمين بصوت شجى. وفى أثناء إنشاده يستدر على وزن تلك القصيدة فى أى باب من أبواب الشعر؛ مدحا كان أو غزلا أو غيرهما».

وقاسم بن عطاء الله المتوفى سنة ١٢٠٤ هـ وفيه يقول الجبرتى «... وصار وحيد عصره فى هذه الفنون ـ الشعر والزجل ـ بحث لا يجاريه أحد مع ما لديه من الارتجال فى الشعر مع غاية الحسن، وكان الشيخ العيدروس يتعجب منه ويقول: هو ممن يلقنه جنى».

واجتمع يوما فى مجلس به جماعة من الأدباء كالشيخ بن الصلاحى، والشيخ عامر الزرقانى، وكان يوما مطيرا، فقال ابن الصلاحى مرتجلا:

لقدومكم ضحك الغما
م فعلم العين البكا
ما ذاك إلا أنه
لنوال كفك قد حكى

فقال قاسم:

أفديك بالعينين يا
نجل الصلاح مع الذكا
هطل الغمام كأنه
لعزيز جاهك قد شكا

ومثل هذا كثير تجده منبثا فى ثنايا الكتب. وقد بلغ من كراهية بعضهم للتكلف أنهم فضلوا نظم

المزدوجات لأنها أسهل من نظم القصائد.

وكان الفن الشعرى غالبا على كثير منهم حتى إنهم استخدموا الشعر فيما يستخدم فيه النثر. مثال ذلك أن الشاعر يحيى الأصيلى المتوفى سنة ١٠١٠ هـ ذهب إلى منزل أحد الأعيان فأخر الإذن له، فكتب يقول:

على الباب من كاد من شوقه
يموت وذلك يحيى الأصيلى
أتى يتغنى بأوصافكم
فهل تأذنون له بالدخول؟

وحدث أن مرتضى الزبيدى كلف عبد الله الإدكاوى أن ينسخ له كتابا . وقام الإدكاوى بهذه المهمة، ولكن الزبيدى أخر عليه أجره، وأراد الإدكاوى أن يطالبه بهذا الأجر، فلم يبعث إليه برسالة ، وإنما بعث إليه بقصيدة جاء فيها :

صبح الله سيدى بالسعادة
وحباه من كل خير مراده
ووقاه الردى وزاد علاه
رفعة لاتنى تزيد سيادة
خلك المرتجى إجابة ما قد
عودته عاداتك المستجادة
فتفضل وابعث بما قد تبقى
ولك الفضل إن بعثت زيادة
وابق فى العز والسيادة يا أو
حد ما نال ذو احتياج إفاده

والأمثلة على ذلك كثيرة جدا بحيث إننا نستطيع أن نجمع منها مجلدات كما أنهم حذوا حذو أسلافهم فى استخدام الشعر فى الإجازات العلمية، وفى تقريظ الكتب والرسائل. وبلغ من تعلقهم بالفن الشعرى أنهم نظموا به بعض العلوم.

***

قلنا إن الشعراء فى ذلك العصر كرهوا التكلف وآثروا أن يترك الإنسان نفسه على سجيتها . والآن نضرب بعض الأمثلة على ذلك قال الشهاب الخفاجى فى خلاصة الأثر من قصيدة طويلة:

قدحت رعود البرق زندا
أضر من أشجانا ووجدا
فى فحمة الظلماء إذ
مدت على الخضراء بردا
حتى تثاءب نوره
وتمطت الأغصان قدا
وأتى الشقيق بمجمر
للروض أوقد فيه ندا
وعلى الغدير مفاضة
سردت لها النسمات سردا
وحبابه من فوقه
قد بات يلعب فيه نردا
فسقى معاهد بالحمى
قد أنبتت حبا وودا
تذر الليالى فى ثرى
من عنبر للمسك أهدى

وقال الصبان يمدح شيخ السادات البكرية

بعبير سرك تعبق الأقطار
وبنور وجهك شرق الأسرار
وبيمن طلعتك السعيدة طالعا
يصفو الزمان وترحل الأكدار
وبجود راحتك الشريفة أخصبت
للعالمين منازل وديار
وإلى حمى حرم سما بك مجده
تسعى العفاة وتهرع الزوار
يا درة الدنيا وغرة وجهها
ومنار أهليها إذا ما احتاروا
يا قطب دائرة الوجود وعارفا

بشذا تقاه تهبط الأسرار
ياشمس أفلاك الكمال وسيدا
دانت له الأبرار والفجار
يهنيك ما أولاك ربك من علا
دهشت لبعض صغارها الأفكار
قد أفرغ المولى عليك مواهبا
لا عد يحصيها ولا معيار
وعلى بنى العصر اصطفاك لرتبة
تركت قلوب عداك فيها النار
السيد السند الإمام المجتبى
صدر الصدور المنتقى المختار
الجوهر الفرد الذى لم تشتمل
أبدا على أمثاله الأعصار
العروة الوثقى لمعتصم به
الآية الكبرى لمن يحتار
تاج الأماثل، عين أعيان الورى
غيث السماحة، سيبها المدرار
وابن الكرام الشم من آل الوفا
أبناء من سجدت له الأشجار
كناه مولاه أبا الأنوار إذ
من نوره تتولد الأنوار
ما جاء ليل الخطب إلا رده
من ذلك الوجه المضيء نهار
هو للأحبة رحمة وعلى العدى
أسد الإله وسيفه البتار
والناس بالرتب العلية فخرهم
ولها بأبناء الرسول فخار
منح من الوهاب عز مقامها
ومواهب ما إن لها إنكار
ماذا يقول المادحون وفضلهم
نطقت به الآيات والأخبار؟
الله فى القرآن أذهب عنهمو
رجسا وطهرهم فهم أطهار
ووداهم فرض وحبهمو به
تمحى الذنوب وتغفر الأوزار

وقال الشيخ عبد الشبراوى متشوقا إلى مصر فى بعض أسفاره:

أعد ذكر مصر إن قلبى مولع
بمصر ومن لى أن ترى مقلتى مصرا
وكرر على سمعى أحاديث نيلها
فقد ردت الأمواج سائلة نهرا
بلاد بها مد السماح جناحه
وأظهر فيها المجد آيته الكبرى
رويدا إذا حدثتني عن ربوعها
فتطويل أخبار الهوى لذة أخرى
إذا صاح شحرور على غصن بانة
تذكرت فيها اللحظ والصعدة السمرا
عسى نحوها يلوى الزمان مطيتي
وأشهد بعد الكسر من نيلها جبرا
لقد كان لى فيها معاهدة لذة
تقضت وأبقت بعدها أنفسا حسرى
أحن إلى تلك المعاهد كلما
يجدد لى مر النسيم بها ذكرى
أما والقدود المائسات بسفحها
وألحاظ غادات قد امتلأت سحرا
وما فى رباها من قوام مهفهف
علا وغلا من أن يباع وأن يشرى
لئن عاد لى ذاك السرور بأرضها
وقرت بمن أهواه مقلتى العبرى
لأعتنق اللهو فى عرصاتها
وأسجد فى محراب لذتها شكرا

..... إلخ.

ومن قول الخشاب فى يوسف بن على الكاتب،

وكـان يتـولى تحـرير المنشـورات للفـرنسـيين أثناء احتلالهم لمصر:

إنى رأيت أبا البـــرية آدمـــا
في النوم معـتـجـرا ببـرد مـعلم
فـدنوت منه مـصليـا ومـسلمـا
وسـألتـه في صـورة المستـفـهم
هل كـان يوسف من بنيك فـإننا
من ذاك في شك مـريب مـوهم؟
فـأجـاب وهو مـصعـد ومـصوب
عـينيه في كـهيئـة المستـعظم
حـــواء طالقـــة ثلاثا إن يكن
ممن إلى من البـــرية ينتــمى
... إلخ

ونستطيع أن نجمع مجلدات من هذا الشعر الذى يرسل فيه الشاعر نفسه على سجيتها . ومعظم نتاج العصر العثمانى فى مصر من هذا النوع . بل إننا نجد ما يفوق هذه الأمثلة قوة وروعة، ورقة وسلاسة وعذوبة.

* * *

ولكن الشعراء فى هذا العصر أنفقوا الوقت الطويل فى ضروب الصناعة اللفظية مما أعتبره البعض ضعفا لشاعريتهم

ومن هؤلاء عبد الرحمن الحميدى المتوفى سنة ١٠٠٥هـ وله ديوان مطبوع اسمه «الدر المنظم فى مدح الحبيب الأعظم» فهو أحيانا يضع نصب عينيه إيراد جميع الحروف الهجائية فى البيت الواحد. مثال ذلك قوله:

خذوا بدمى حسنا غزالا عشقتها
فصرت كطل ظل بالثج فى رحض

وأحيانا يلتزم الحروف التى لا تنقط ، كقوله:

أســرك دهر ســره كله هم
ومـــورد أكـــدار لوارده سم

وتارة يلتـزم بعـدد أبيـات القـصـيـدة بالحـروف الهجائية على الترتيب كقوله:

أبت هند وصليى فالكرى مذقست شطا
وحظى ذكا من لاعج مثخن ضغطا
بذلى قضت فالوجد زاك وعنه لا
محيص بلا غوث شفى ناظرا سخطا

فالبيت الأول يبدأ بحرف الألف، والثانى بحرف الباء، وهكذا إلى آخر القصيدة التى تنتهى بانتهاء الحروف الهجائية.

وله قصيدة سماها «شفاء العين بمدح العين» في المديح النبوى، عدتها تسعة وأربعون بيتا، كل بيت تنتهى بكلمة «العين» فكأنه جمع المعانى المختلفة لهذه الكلمة ، وأتى فى كل بيت بما يتناسب معه فى المعنى، شأنه فى ذلك شأن شعراء البديعيا الذين مدحوا الرسول عليه السلام بقصائد، وجعلوا فى كل بيت لونا من ألوان البديع، مع فارق وهو أن هذا المادح اكتفى بلفظ العين على اختلاف معانيها فى كل بيت من أبيات قصيدته التى جاء فيها:

ياماثلة القـد يا مكحلة العين
كم من حسد فيك قد أصبت من العين
قـد حـزت جـمـالا ورقـة ودلالا
إذ فقت هلالا أضا، وفقت سنا العين

فالعين فى البيت الأول هى العين الباصرة، وفى البيت الثانى بمعنى الشمس.

وفى سنة ١١٥٨ هـ قدم إلى مصر شاعر حجازى كسب شهرة ونفوذا فى عصره، وهو نور الدين على بن تاج الدين القلعى المتوفى سنة

١١٧٠هـ وكان مغرما بالصناعة اللفظية. ومنها نوع يسمى «وسع الاطلاع» فاجتمع به بعض الشعراء ومنهم عبد الله الإدكاوى الذى أخذ عنه هذا الفن ووسع الإطلاع أنواع هي:

١ ـ كل كلمة في البيت تبدأ بالحرف الذى تنتهى به الكلمة السابقة، ما عد القافية. مثال ذلك:

صب بوعـــدك كم مطلتـــه
هاجــــرته هلا أجـــرته؟!
ســـهـران نام مـــســـامـــرو
ه هجـــعـــا أفـــلا أنمتـــه؟!

فكلمة «صب» تنتهي بحرف الباء الي تبدأ به كلمة «بوعدك» وهكذا إلى آخر البيت الأول. وفي البيت الثانى نرى كلمة «سهران» تنتهى بحرف النون الذى تبدأ به كلمة «نام» وهكذا إلى آخر البيت.

٢ ـ نوع يسمى «العود وهو أن تنظم قصيدة فتقول:

جماله قد علا قدرا وجل علا
ها قد سباني فلولا عاد يانعمى

ثم تعود فتأخذ من هذا البيت كلمات مناسبة، وتنظم منها بيتا آخر يبدأ بلفظة «جماله» وينتهى بها فتقول:

(جماله قد سباني قد جل قدرا جماله)

مثال آخر:

دلاله ياولاة الحب زاد فلــو
قد عاد ياصحبى شفى سقمى

(دلاله زاد صحبي بالقرب زاد دلاله)

٣ ـ النوع الثالث: أن تلتزم بدء كلمات البيت بحرف واحد مثل:

يتـــمنى يراك يومـــا يهنى
يجـــتنى يانعـــا يمينا يســـاره

فكل كلمة في هذا البيت تبدأ بحرف الياء

٤ ـ أن تكون كل كلمة مكونة من حرف مهمل وحرف منقوط على الترتيب، مثل:

جـــمـــيل بديع جل ذاتا بهيـــة
به زدت حـــبـــا، فـــاتك بمجـــاله

٥ ـ نظم البيت مكونا من كلمات مهملة وأخرى منقوطة على الترتيب مثل:

جننت ولوعـا هواه شـغـفت كم
فـتنت عســاه يجتنى لكمـاله

٦ ـ نظم البيت مكونا من حروف مفرقة. مثل

أدم وده واردد رواه وروه
وأول ودم راع ودودا ووالـــــــه

٧ ـ أن ينظم قصيدة يبدأ كل بيت منها بحرف بحيث لو جمعت هذه الحروف على الترتيب لكونت اسم ممدوح مثال ذلك قوله:

١ ـ سيدى مذغبت عن صبك المغـ
رم ضـاقت عليـه أكناف مـصـر
٢ ـ يافـريد البـهـا وحـقك لا أصـ
ـبـــر عن أن أراك يومـــا بدهرى
٣ ـ داو مـضناك باللقـا وتكرم
ياغـزال النقـا بقـبـولي وجـبـرى
٤ ـ يابديع الجمال ياواحد الحسـ
ـن حنانا تشفى سقـامـا وضـرى
٥ ـ انت أنسى ولذتى وســرورى
ومـرادى وكنه سـرى وجـهـرى
٦ ـ بك هام الفـؤاد فـامن عليـه
منك بالوصل لا ترعـه بهـــجــر
٧ ـ راقنى ما أراه فـيك من الحسـ
ـن البـديع الذى تقـسم فكرى
٨ ـ إحـلالا بعدى وأنت بوجدى
لك أدرى من كل عـــبـــد وحـــر
٩ ـ هام لبى في وصف ما حزت يا أهـ
ـيف حـتى قل نظمى ونثـرى

١٠ ـ يوم عيد رؤياك بل ومحيا
ك هلالي ياذا الجمال وبدرى
١١ ـ ما لقلبي صبر سوى أن يلا
قيك ومن لى حتى اللقاء بصبر

فالأبيات الأربعة الأولى تبدأ على الترتيب بالحروف : س،ى،د، ى. ومن مجموعها يتكون لقب الممدوح «سيدى» وبقية الأبيات تبدأ بالحروف ا،ب،ر،ا،ه،ى،م. ويتكون منها اسم ممدوح وهو ابراهيم . ويلاحظ أن المعانى كلها غزلية وليست من المدح فى شيء.

٨ ـ أن ينظم قصيدة، ثم يدخل زيادة فى أول البيت أو فى أخره بحيث لا يتغير المعنى وإن تغيرت القافية فى حالة ما إذا كانت الزيادة فى آخر البيت.

مثال ذلك قوله:

يامن تحل بذكره
عقد النوائب والشدائد
يامن إليه المشتكى
وإليه أمر الخلق عائد

فيقول إذا جعل الزيادة فى الأول:

(ياذا العلا يارينا) يامن تحلـ
ل بذكره عقد النوائب والشدائد
(ياسيد ياخالقى) يامن إليه الـ
ـمشتكى وإليه أمر الخلق عائد

هذه هى ضروب الصنعة التى زاولها بعض الشعراء ومنهم الإدكاوى، والقلعى ، وعبد الرحمن الحميدى.

وقد أنكر بعض معاصرى الإدكاوى عليه هذا المذهب، وذكروه بأساليب القدماء التى لم تعرف التكلف، فرد عليهم قائلا:

كن للمعاصر خير ناصر
كم للأواخر من مفاخر
لا تحقرن جديدهم
كم فى جديدهمو جواهر
ودع التعصب للأوا
ئل يافتى أو للأواخر
من كان منهم مبدعا
فاعقد عليه عرى الخناصر

وهذه الأبيات لا أثر للتكلف فيها.

وأمثال الادكاوى فى هذا الشعر يقدمون انجازا هاما فى اللغة كأداة للشعر والنثر، فهم يحاولون كشف معانى الكلمات ومرادفاتها وتراتبها وصياغتها فى عصر كانت هناك لغة جديدة تسعى للظهور ويعلمون ذلك لطلاب الادب فتغتنى مفرداتهم وادواتهم اللغوية.

* * *

وقد انتشر فى هذا العصر تسجيل التواريخ فى القصائد بحروف الجمل.

وبيان ذلك أن الحروف الهجائية تتكون من : أبجد ، هوز، حطى ، كلمن، سعفص، قرشت، ثخذ، ضظغ.

أبجد : أ = ١، ب=٢ ، ج=٣ ، د =٤
هوز: هـ=٥، و = ٦ ، ز = ٧
حطى: ح= ٨، ط =٩ ، ى=١٠
كلمن: ك= ٢٠ ، ل=٣٠، م=٤٠، ن =٥٠
سعفص: س=٦٠ ، ع=٧٠، ف=٨٠، ص =٩٠
قرشت: ق=١٠٠ ، ر=٢٠٠، ش=٣٠٠ ، ت =٤٠٠
ثخذ = ث =٥٠٠، خ= ٦٦٠، ذ = ٧٠٠
ضظغ: ض=٨٠٠، ظ= ٩٠٠ ، غ=١٠٠٠

واستخدمت حروف الجمل أولا في عبارات نثرية يتألف من مجموع حروفها التاريخ المقصود. وأقدم ما وصل إلينا من هذا النوع قول أحدهم مؤرخا سبيلا أنشأه حروف هذه العبارة بحساب الجمل يساوى ٩٦٦ وهو تاريخ إنشاء السبيل المذكور.

وأقدم تاريخ شعرى قول أحدهم فى مقتل رجل اسمه محمود:

موت محمود حياة
فيه للعالم رحمه
قتله بالنار نور
وهو فى التاريخ ظلمه

فالحروف التى تتألف منها كلمة «ظلمه» بحساب الجمل تساوى ٩٧٥ وهو تاريخ قتل محمود، لأن ظ=٩٠٠ ، ل=٣٠، م=٤٠، ه=٥ .

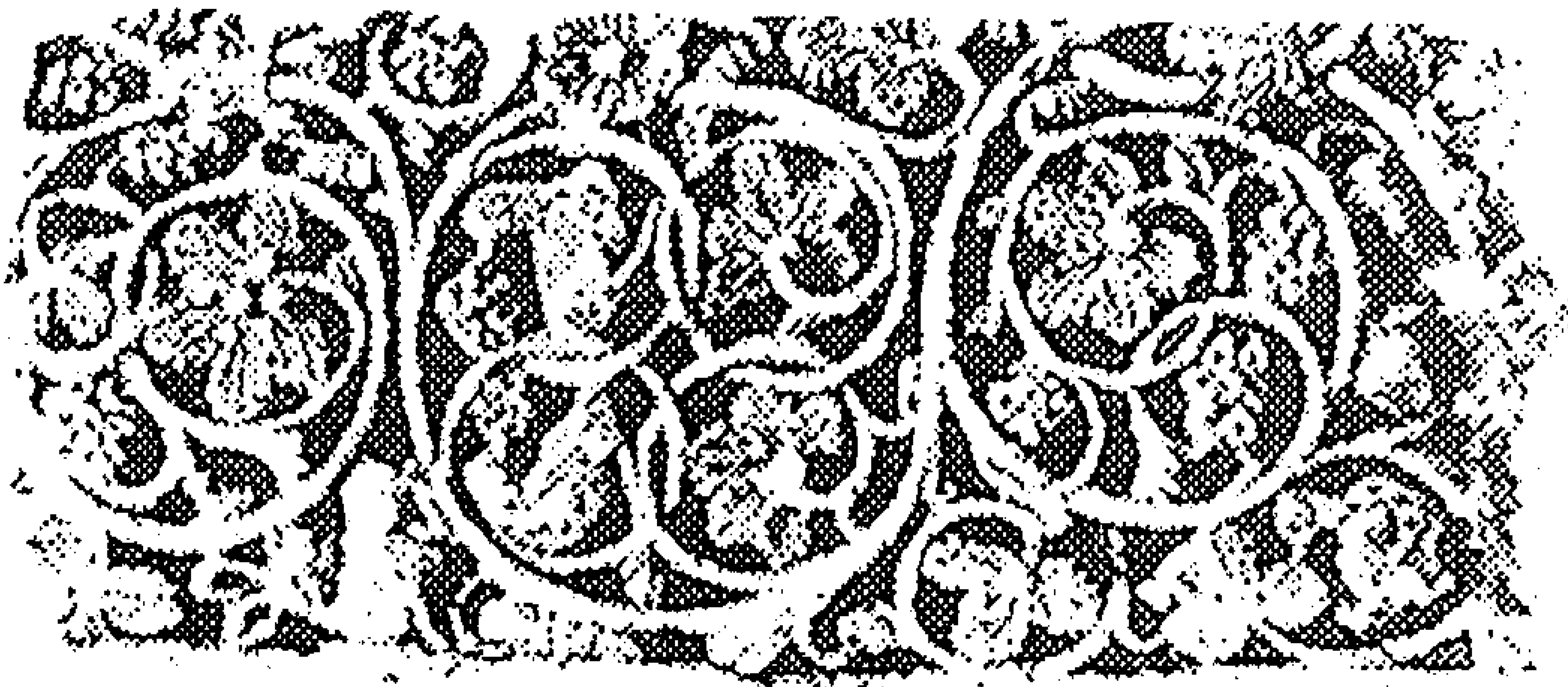
ومن هذا الوقت نجد من الشعراء من يؤرخون بعض قصائدهم.

وهناك شعراء كثيرون لم يستخدموا هذا الفن، أو استخدموه مرات قليلة. وأكثر ما يرد التاريخ الشعرى فى قصائد الرثاء، إذ كان من المستحسن عندهم أن يسجلواتاريخ وفاة الميت.

وكذلك مما ينظم للتهانى والأفراح. وقد ورد فى بعض شعر المديح. أما الغزل والتصوف والهجاء فلم يرد له فيه قط.

وكان يطلب من أحد الشعراء أن ينظم بيتين أو أكثر يختمهما بتاريخ بناء مسجد أو مدرسة أو قصر أو سبيل أو ضريح أو غير ذلك من المبانى. ثم كان ينقش ذلك على لوحة من الرخام تثبت فى المدخل وبعض الشعراء يسجل اسمه فى نهاية القصيدة، وهذا ما عرف من قبل العصر العثمانى. كما أن منهم من كان يختم بعض قصائده بالصلاة على النبى وهذا أيضا مما عرف من قبل.

وقد ظهر فى هذا العصر ما يقرب من مائة شاعر، وردت تراجمهم ومقتطفا من شعرهم فى تاريخ ابن إياس، والكواكب السائرة فى أعيان المائة العاشرة، والنور السافر فى أعيان القرن العاشر، وريحانة الألبا للشهاب الخفاجى، وخلاصة الأثر فى أعيان القرن الحادى عشر للمحبى، وتاريخ الجبرتى.



ظهور فكرة السادة البكرية فى مصر

لم يكن للبكريين فى مصر قبل العصر العثمانى شأن كبير. فقد ذكر صاحب «الكواكب السايرة فى أعيان المائة العاشرة» أن جلال الدين البكرى انكسر عليه مال للسلطان الغورى فهم أن يعاقبه. فاستجار بصديقه عبد القادر الدشطوطى الذى توسط له عند السلطان فسامحه فى المال. واعترافا بهذ الجميل وهب جلال الدين البكرى ابنه أبا الحسن للدشطوطى ليلازمه ويكون فى خدمته. ثم إن الدشطوطى جدد مسجد وهبه لجلال الدين، وهو المسجد الذى مازال قائما بشارع البكرية بناحية بركة الرطلى، والذى يحمل اسم جلال الدين .

وقال عبد الغنى النابلسى فى رحلته. «إن العسكر المصرى لما ثاروا على السلطان الغورى وأرادوا خلعه؛ أتوا إلى الشيخ جلال الدين وقالوا له : نحن نقيمك خليفة على المسلمين فى بلاد مصر، لأن الصديق جدك كان كذلك فإن السلطان الغورى قد تعدى علينا وظلم، وجاوز الحدود. فأجابهم بقوله أصبروا فإن سلطانكم قريب. ثم وقع ما وقع وجاءهم السلطان سليم خان من بنى عثمان».

ومن السهل علينا أن ننفى هذه القصة ، لأنها لم ترد فى كتب التاريخ الموثوق بها، فلم يذكرها ابن اياس. ومن ناحية أخرى لوجود الخليفة العباسى المعترف بخلافته. ومن ناحية ثالثة لأن المماليك كانوا يتنازعون من أجل الملك. وكان نزاعهم يقوم على المطامع الذاتية. فليس من المعقول أن يخرجوا ملك مصر من أبناء جلدتم ويعطوه طائعين مختارين لجلال الدين البكرى.

ثم ذكر عبد الغنى النابلسى قصة أخرى تتعلق بجلال الدين ، وهى:

«ويقال إنه ـ السلطان سليم ـ لما دخل مصر كان الشيخ جلال الدين آخذا بزمامه [زمام جواده]، والشيخ أبو السعود الجارحى على يمينه، والشيخ الدشطوطى على شماله. ويقال إن هؤلاء الأولياء الثلاثة هم الذين ذهبوا إلى الشام وجاءوا بالسلطان سليم وأدخلوه إلى مصر، وهم مشاة فى ركابه. وكان يقصر المنازل لأجلهم. وقالوا له : هكذا أمرنا رسول الله صلى الله عليه وسلم».

وهذه القصة ـ وإن تكن من غير شك ـ مختلقة ، إلا أنها تدل على أن جلال الدين كان ممالئا للسلطان سليم. وربما كان مدفوعا إلى ذلك بما حدث بينه وبين الغورى.

وقد ذكر ابن إياس فى كتابه «بدايع الزهور» حوادث سنة ٩١٧هـ أن الشاه اسماعيل الصفوى أرسل إلى السلطان سليم رسالة جاء فيها:

نحن إناس قد غدا شأننا
حب على بن أبى طالب
يعيبنا الناس على حبه
فلعنة الله على العايب

فأجابه سليم برسالة جاء فيها:

ما عيبكم هذا ولكنه
بغض الذى لقب بالصاحب
كذبتم عليه وعلى بنته
فلعنة الله على الكاذب

وكان ان اياس معاصر للحرب بين السلطان سليم وشاه إيران. وإذا كنا نرتاب فى صدور هذا الشعر من سليم ، فإننا لا نرتاب مطلقا فى وجود طائفة بكرية أراد السلطان العثمانى أن يكسبها إلى جانبه فى حربه ضد الشاه الشيعى، وفى حربه ضد سلطان مصر السنى قانصوه الغورى. ونلاحظ أن سليم لم يذكر فى شعره سوى بغض الشيعة لأبى بكر وكذبهم عليه وعلى بنته، مع إننا نعلم أن

الشيعة يبغضون كل من حال بين على والخلافة ويكفرونه.

وعلى كل حال فقد كانت سياسة الدولة العثمانية تعمل على ترويج الخصومة ضد الشيعة، لأن الدولة كانت فى حرب مع شيعة إيران وشيعة اليمن. فسخرت المؤلفين فى كل مكان للطعن فى تعاليم الشيعة وتفنيد آرائهم. ومن هؤلاء الكتاب الذين تطوعوا لخدمة الدولة: ابن حجر الهيثمى المتوفى سنة ٩٧٤هـ فقد ألف كتابا اسمه «الصواعق المحرقة فى الرد على أهل البدع والزندقة» جاء فى مقدمته «إنى سئلت فى تأليف كتاب يبين حقيقة خلافة الصديق وإمارة الخطاب. فأجبت إلى ذلك مسارعة فى خدمة ذلك الجناب. فجاء بحمد الله أنموذجا لطيفا» . وأهل الزندقة هم الشيعة فى نظر المؤلف. والباب الأول من هذا الكتاب فى بيان كيفية خلافة الصديق، والاستدلال على حقيقتها بالأدلة العقلية والنقلية. والرد على الشيعة وإبطالها . والباب الثالث فى بيان أفضلية أبى بكر الصديق على سائر هذه الأمة. وقد أفرغ المؤلف جهده فى إبطال حجج الشيعة فى خلافة على والوصية التى يزعمون أن النبى صلى الله عليه وسلم وصى بها له.

وعلاوة على ماتقدم فإنه ألف كتابا آخر فى مناقب معاوية. تطهير الجنان واللسان من التفوه بثلب معاوية بن أبى سفيان مطبوع بهامش الصواعق المحرقة . وهذا يعتبر ردا على الشيعة كذلك لأنهم يكفرون معاوية.

وقد ذكر عبد الغنى النابلسى فى كتابه «الحقيقة والمجاز» أن السلطان سليم شيد فى قناطر السباع قصرا كبيرا ووهبه للشيخ جلال الدين. ثم إن العثمانيين منحوا ، شيخ البكريين فى مصر امتيازات لم تكن له من قبل، منها الأوقاف الواسعة. ومنها أنهم جعلوه شيخا لمشايخ الطرق الصوفية ، يعين شيوخها، وينتظر على أوقافها. فاستطاع شيوخ البكريين أن يبنوا القصور الفخمة على شواطئ بركة الأزبكية، وبركة الرطلى. ويغرسوا بها الحدائق الغناء ذات النافورات الجملية ويزودوها بالرياش الفاخرة، ويقتنوا الخيول الأصيلة، والجوارى والعبيد وأن يتشبهوا بالملوك فى حياتهم..

وكانوا يستضيفون الأدباء والعلماء القادمين إلى القاهرة، فتمكنوا بوساطة هؤلاء من نشر نفوذهم الأدبى وتعاليمهم من اليمن إلى الحجاز، ومن العراق إلى الشام ومن مصر إلى شمال أفريقيا، بل وفى تركيا. وكانت تحمل إليهم هدايا الملوك والأمراء والأعيان. وكانت شفاعتهم لا ترد، وكلمتهم مسموعة عند أرباب الدولة. انظر مثلا إلى ما يقوله صاحب خلاصة الأثر فى ترجمة زين العابدين البكرى المتوفى سنة ١٠١٣ «وبلغ صاحب الترجمة فى آخر أمره من الجلالة ونفوذ الكلمة مبلغا ليس لأحد وراءه مطمع حتى خشية حكام مصر، وكانوا يدارونه ويتوقعون رضاه».

وانظر إلى ما يقوله محمد الأمين الشامى فى كتابه «نفخة الريحانة ورشحة طلاء الحانة».

«السادات البكرية سادات الوجود، وأولياء النعم الذين عرفوا بالكرم والجود. بيتهم كالبيت العتيق يزوره من لبى وأحرم، ومن نال لثم عتبة بابه فقد ظفر بالحجر المكرم. ثبتت أوتاده وأطنابه ، ووصلت بأسباب السماء أسبابه. لا زحاف فيه إلا فى بيوت حساده، ولا إبطاء إلا على قلوب أضداده. حرم آمن ليس للحوادث عليه هجوم، ولا لشياطين البغى فيه استراق، فلذا تستريح شهبه من الرجوم. فهم نور الكون قبل أن يخلق النيران، وقطب الدائرة قبل أن تؤمر الأفلاك بالدوران . خالصة لله من عباده أهل الصلاح وتراب نعالهم كحل عيونهم أهل الفلاح. مامنهم إلا فتى لثوب العز ساحب، وللوقار مع الصبا

مصاحب. فإذا استوى على كرسيه فملك عليك المهابة قبل الحاجب حاجب. بحار طمت وعلت القلل، متعهدة منخفض الوهاد فى صوب العهاد، فتوارت البحار خجلا منها. فى جيد الدهر من مدايحهم عقود وقلايد، ليس إلا كلماتها شذرات وقوافيها فرايد.

* * *

وتدور تعاليم البكريين حول شخصية أبى بكر الصديق. فنراهم يذهبون فيه مذهب الاسماعلية فى على ومعلوم أن الاسماعلية قالوا إن نور الله تنقل من الأصلاب إلى الأرحام حتى اجتمع فى عبد المطلب، ومنه إلى محمد فالأئمة من أبناء على. فقال البكرية إن الحقيقة المحمدية انتقلت إلى أبى بكر وذريته من بعده. فالصديق هو الإنسان الكامل. وعرفوا الإنسان الكامل بأنه الجامع لم تفرق من الكمالات فى سائر الأفراد الإنسانية ما عدا النبوة. فهم والحالة هذه متفقون مع الإسماعيلية فى نظريتهم فى الإمامة التى تقول بمثل هذا القول تماما. وذكروا فى آية «رب أوزعنى أن أشكر نعمتك التى أنعمت علىّ وعلى والدى وأن أعمل صالحا ترضاه، وأصلح لى فى ذريتى» أنها حكاية من القرآن على لسان أبى بكر فالصديق سأل الله فى هذه الآية صلاحا خاصا لأسرته، أى أن يعطيهم مقام الصديقية التى تلى مقام النبوة فى الرتبة. وأتى «بفى» الظرفية الشاملة لصلاحهم ظاهرا وباطنا، وهذا نفس ما ادعا الإسماعيلية والشيعة عامة فى هذه الآية من أنها نزلت فى على وأبنائه من بعد.

وقال البكريون إن الصديق الذى قال فى حقه «ولسوف يعطيك ربك فترضى» أكرم على ربه تبارك وتعالى من أن يهين ذريته بإدخالهم النار فى الآخرة. وقد قال الشيعة من قبل إن هذه الآية نزلت فى على وأبنائه من بعده.

* * *

والصديقية عند البكريين قاصرة على ذرية أبى بكر التى منحها الله له بصفة خاصة بناء على سؤال أبى بكر. ومن ذلك نراهم جعلوا الصديقية هذه فى مقام الإمامة عند الشيعة وهنا يظهر وجه الاختلاف بين البكرية والشيعة. فالشيعة يقولون إن ما خص به أهل البيت إنما كان باختيار الله وبأمر منه دون أن يسأله أحد فى ذلك.

وكما أن الشيعة قالوا بانتقال الإمامة فى ذرية على بحيث لا يخلو عصر من وجود إمام يكون حجة الله فى عصره على عباده، فكذلك قال البكرية بانتقال الصديقية فى ذرية أبى بكر بحيث لا يخلو عصر من وجود صديق بكرى. قال محمد البكرى المتوفى سنة ٩٩٤هـ.

فى كل عصر منهمو سيد
مؤيد بالحق ماحى الريب

وروى عن محمد البكرى أنه قال «يجلس عقبنا مع عيسى ابن مريم على سجادة واحدة».

ولم يقف البكريون عند نسبة الصديقية إلى أبى بكر، بل جعلوا له حقيقة معنوية تشبه الحقيقة المحمدية مثل حديث «بعثت أنا وأبو بكر كفرسى رهان فسابقنى فسبقته، ولو سبقنى لاتبعته» وهذا الحديث ورد فى كتب الشيعة مع إبدال كلمة «أبى بكر» بكلمة «على» فالله لم يبعث محمد وحده، بل بعث معه أبا بكر، ولم يكن أحدهما يمتاز عن الآخر، ثم أخذا يتسابقان نحو النبوة فسبق محمد. وهذا الحديث ذكر بغير اسناد. ولا وجود له فى الكتب المعتمدة وكذلك شأن جميع الأحاديث التى أوردها صاحب العمدة.

وذكروا تأييد لهذا الحديث أن أبا بكر كان

الثانى بعد الرسول فى الإسلام، وأول من آمن به، وثانيه فى الهجرة وثانيه فى الغار، وثانيه فى دخول المدينة، وثانيــه فى الإيمان بالاسـراء،و ثانيــه فى الميـلاد، لأن النبى ولد يوم الاثنين وأبا بكر ولد يوم الثـلاثاء والنبى ولد لاثنى عـشـر ربيع وأبو بكر ولد لثلاثة عشر. وثانيه فى القيام بأمر الدعوة الإسلامية ، والخليفة بعده. وثانيه فى القبر وكم للقرآن من أسرار هو فيها ثانى اثنين!؟ فصحبته للنبى أزلية.

وهناك حـديث مـعناه أن النبى لما كـان قـاب قوسين أو أدنى من العرش أخذته وحشة ، فسمع فى حضرة الله صوت أبى بكر فاطمأن قلبه واستأنس بصوت صاحبه. وقالوا إنه كان بين النبى وأبى بكر إشارات أزلية لا يعرفها غيرهما فكان النبى يقول «يا أبا بكر، أتدرى يوم لا يوم فـيـقـول أبو بكر. نعم» ومعناه : أتدرى لما كان كذا وكذا قبل خلق الأيام؟

وحديث «خلقت أنا وأبو بكر من طينة واحدة» وحـديث «كان جـبريل إذا قـدم أبو بكر على النبى صلى الله عليــه وسلم وهو يحـادثه يقـوم إجـلالا للصـديق دون غيـره. فـسـأله النبى صلى الله عليـه وسلم عن ذلك فـقـال جـبـريل : أبو بكر له على مشيـخة فى الأزل وما ذاك إلا أن الله تعالى لما أمر الملائكة بالسـجـود لآدم حـدثتنى نفسى بما طرد به إبليس، فحين قال الله تعالى اسـجـدوا ؛ رأيت قـبـة عظيـمة عليها مكتوب : أبو بكر ، أبو بكر، مرارا ، وهو يقـول : اسـجـد، فـسـجـدت من هيـبة أبى بكر، فكان ما كان».

ورووا أنه لما مات أبو بكر واستخلف عمر كان يتبع آثار أبى بكر ويتـشبـه بفعله. فأخذ يتردد على عـائشـة وأسـمـاء ويقـول لهـمـا : مـاذا كـان يفـعل الصديق إذا خلا ببيته ليلا؟ فيقال له : ما رأينا له كثير صلاة الليل ولا قيام. إنما كان إذا جنه الليل يقوم عند السحر ويقعد القرفصاء ويضع رأسه على ركبتيـه ثم يرفعهـا إلى السمـاء ويتنفس الصـعـداء ويقـول : آخ ، فيطلع الدخان من فيه. فيبكى عمر ، ويقـول : كل شىء يقـدر عليـه عـمـر إلا الدخـان. وأصل ذلك كما ذكروا أن شدة خوف أبى بكر من الله أوجـبت احـتـراق قلبـه، فكان جليـسـه يشم منه رائحة الكبد المشوى. وسببه كما زعموا أن الصديق لم يحتمل أسرار النبوة الملقاة إليه.

وقالوا فى حديث «أنا أعلمكم بالله وأخـوفكم منه» إن المعرفـة التـامـة تكشـف عن جـلال المعـرف وجـمـاله. وكـلاهـمـا أمـر عظيم جـدا تنقطع دونه الغايات. ولولا أن الله تعالى ثبت من أراد ثباته وقواه على ذلك مااستطاع أحد الوقوف ذرة على كليهما جلالا وجمالا. والغاية فى الطرفين قد نالها الصديق فقـد ورد فى الحديث «ماصب فى صـدرى شىء إلا صببتـه فى صـدر أبى بكر. ولو صبـه جـبريل عليـه السلام فى صدر أبى بكر ما أطاقه لعدم مجراه من المـمـاثل،و لكن لما صب فى صـدر النبى وهو من جنس البـشـرية فـجـرى فى قناة مماثلة للصـديق، فبواسطتها أطاق حمله ومع ذلك احترق قلبه».

ومن هنا نرى أن البكرية كفرقة صوفية امتازت عن غيرها من الفرق، وذلك بأن أضافت إلى مفهوم الحقيقة المحمدية الصوفى عنصرا جديدا، هو الحقيقة المعنوية لأبى بكر الصـديق، بحـيث تكون هذه الحقيقة الأخيرة ملازمة للحقيقة الأولى، ولا تنفك عنهـا منذ الأزل. وقد مر بنا قـولهم إن صحـبـة أبى بكر للنبى أزلية، أى أن الحـقيـقة البكريةوجدت مع الحقيقة المحمدية.

وإذا كان الصوفية يقولون إن الأولياء يتصلون بالحـقـيـقـة المحـمدية فـإن البكريين قـالوا إن الأوليـاء يتـصلون بالحـقيـقـة البكرية. وقد صور لنا محـمـد

البكرى المتوفى سنة ٩٩٤هـ الحقيقة البكرية فى شعر كثير نذكر منه:

هو الجمع فى عين الشهود بلا مرا
تجلى بأنواع من الفيض بالأمر
هو الملكوت الواسع المطلق الذى
تعالى عن الأوهام والذهن والفكر
هو الرحموت الجامع الكلى فى العلا
ومرشد أرباب الهدى سبل الذكر
هو العين من عين لعين تنقلت
وعين هداه قد أفاضت على البحر
هو المركز النورى فى كل حضرة
وجامع ملك الكون فى قبضة الأسر
هوالكل والكل العظيم جميعه
بباطنه كالدر فى مهمه قفر
هويته منه إليه مسيرها
تحدث عن أسراره كل ذى قدر
هو الجامع الأسرار من آدميه
ووارث خير الخل فى السر والجهر
ومشهد كل العالمين مقامه
ورافعهم فى الله فوق ذرى الفخر
وكل ولى بعد طه وعارف
فنقطة ماء من بحار أبى بكر
ومازال هذا المجد فيه حقيقة
إلى أن بدا المولى أبو الحسن البكرى

ومعنى هذه الأبيات أن أبا بكر اجتمع فيه الحق والخلق فتجلت فيه الذات الإلهية، وأصبح هو هذا العالم المترامى الأطراف الذى لا يستطيع الإنسان أن يحيط به أو يدرك كنهه. وهو الذى اجتمعت فيه الرحمة وأصبح هاديا ومرشدا للناس. وهو العين أى النور الذى تنقل فى الأصلاب من آدم وهو مركز النور الإلهى، وفى كل مجال يظهر فيه أثر للسر الإلهى. وفيه تركز هذا الوجود ، فهو الخل والحق والوجود، والصورة التى يتجلى فيها الحق يوم القيامة تبدأ منه وتنتهى إليه معربة عن أسراره. وهو الذى اجتمعت فيه الأسرار الإلهية من لدن آدم، والذى ورث خير الخلق، أى النبى محمد عليه الصلاة والسلام. فهو يمثل العوالم كلها، ويكسبها فخرا لا حدله. وكل ولى وعارف بعد النبى محمد لا يغدو أن يكون نقطة من بحار أبى بكر. ومازال هذا المجد ينتقل فى ذرية أبى بكر حتى ظهر فى شخص أبى الحسن البكرى.

وقالوا إن دوام ناموس آل الصديق وقيام عزتهم إلى انتهاء الدنيا ثابت بقوله تعالى «فى ذريتى» فإن عدتها بالجمل الكبير ألف وأربعمائة وعشرة، وهى مظنة تمام الدنيا. وعندهم أن من أحب آل الصديق نجا من كل سوء، ومن كل مكروه. وأن خلافتهم صدق وحق وقد نص عليها القرآن. قال محمد زين العابدين البكرى:

وحاشا الذى بالحب والود ينتمى
إلينا يرى سوأ وحافظه الولى
خلافتنا بالحق والصدق قد أتت
أدلتها عن نص ذكر مرتل

وقال محمد البكرى إنه ورث الخلافة عن النبى:

ورثت النبى فلى من رباه
مقيل الخلافة والمسرح

ومنكر آل الصديق كافر قال:

إن الذى ينكرنا
لقد أتى إحدى الكبر
وكل من يعرفنا
نال الأمانى وظفر

وقالوا إن الألف «فى ألم» كل أية وردت فيها (ألم) تشير إلى أبى بكر، واللام إلى الله، والميم إلى محمد . وفى ذلك يقول محمد البكرى:

لئن كان فخر الأكرمين صحائفنا
فإنا لآيات الكتاب فواتح

وأطالوا القول فى اية «ثانى اثنين إذ هما فى الغار إذ يقول لصاحبه لا تحزن إن الله معنا فأنزل الله سكينته عليه» وفى الحديث الوارد عن النبى على السلام حين مرض وهو «مروا أبا بكر فليصل بالناس».

وإلى جانب علو البكرية فى ابى بكر فقد طعنوا فى الشيعة ، واعتبروهم جميعا رافضة وقالوا إن الرافضى إذا أشرف على الموت يقلب الله صورة وجهه وجه خنزير ، فلا يموت إلا إذا صار وجهه كذلك، فإذا رآه أهله فرحوا واستبشروا لأنه مات على الرفض. أما إذا لم يحدث ذلك فإنهم يحزنون ويقولون إنه مات سنيا.

وأول شخصية بكرية ظهرت فى العصر العثمانى وتركت آثارا أدبية هى شخصية أبى الحسن البكرى المتوفى ٩٥٢هـ وسبق أن ذكرنا أن أبا الحسن لازم الدشطوطى . وقد حدث أن زار مصر أحد كبار متصوفة الشام فى ذلك الوقت وهو «رضى الدين الغزى» فأمر الدشطوطى أبا الحسن أن يأخذ عنه التصوف. ولم يلبث أبو الحسن أن استوعب تعاليم الصوفية وبخاصة ابن عربى وابن الفارض. ثم ذهب لأداء فريضة الحج واتصل بكثير من علماء الأقطار الإسلامية. ولما رجع من الحجاز زاول التدريس بمسجد والده جلال الدين، وبالجامع الأزهر. ومؤلفاته التى وصلت إلينا يغلب عليها الجمع، إذ هى أحاديث نبوية فى موضوعات شتى. مثال ذلك «غاية الطلب فى فضل العرب» و «تحفة العجلان فى فضائل عثمان» و «االانتباه إلى فضائل لا إله إلا الله»، وغيرها. وكل مؤلف من هذا يحتوى على أربعين حديثا بإسنادها. وقد ترجم له الشعرانى فى ذيل طبقاته فقال «الصوفى المحدث، نادرة الزمان، الشيخ أبو الحسن البكرى ـ رضى الله عنه ـ أخذ العلم عن جماعة من مشايخ الإسلام والتصوف كالشيخ رضى الله الغزى. وتبحر فى علوم الشريعة من فقه وتفسير وحديث وغير ذلك. وكان له النظم الشائق فى علوم التوحيد. وأطلعنى مرة على تائية عملها نحوخمسة آلاف بيت أوائل دخوله فى طريق القوم، ثم إنه غسلها وقال إن أهل زماننا لا يتحملون سماعها لقلة صدقهم فى طلب الطريق».

وقال محمد اليمنى فى كتابه «السنا الباهر» ما نصه «وقال جماعة إنه ـ يعنى أبا الحسن البكرى ـ بلغ رتبة الاجتهاد، وصنف التصانيف الكثيرة المحررة الشهيرة . منها ثلاثة شروح على المنهاج، وثلاثة شروح على الإرشاد ، وشرح العباب، وشرح الروض، ومختصر الإيضاح وشرحه. وعدة متون فى الفقه ، وعدة رسائل فى التصوف، وغير ذلك،وكل كتبه محررة،و مسائلها مقررة. وانتشرت تصانيفه فى سائر الأقطار، وانتفع بها الكبار والصغار . وأخذ عنه خلائق لا يحصون ، وتخرج به العلماء العارفون. وله نظم نضد فيه عقود الجواهر، يقصر عنه كل أديب وشاعر. وله موشحات توحيدية لم ينسج على منوالها أحد من البرية.»

لكن ديوان شعره لم يصل إلينا. وقد أورد له صاحب الكواكب السائرة قصيدة طويلة فى التصوف والحب الإلهى، والوعظ والإرشاد والمناجاة، نذكر منها:

أنتم معانى الكائنات فأينما
أنتم حللتم حلت البركات

لله مـا أحلى قـديم حـديثكم
ذاك الذى هو للقلوب حـيـاة
تحيـا قلوب العـارفين بذكـركم
والجـاهلون قلوبهم أمـوات
عنى الزمـان بمدحكم مـتـعللا
فـرحـا فكل جـهـاته نعـمـات

ومنها:

وبدا سنا مـصـبـاحكم فـقلوبنا
كـزجـاجـة وصـدورنا المشكاة
وقـع النـداء لـنـا ألـسـت بـربـكـم؟
قلنـا : بلى وأجـابت الذرات

ولكن المذهب الصوفى لأبى الحسن لا يظهر فيها. ولايستنتج من قوله:

.... فـأينمـا
أنتم حللتم حلت البـركـات

أنه يدين بمذهب الحلول، لأن أتبـاع هذا المذهب يقولون بحلول الله فى جـمـيع المخلوقات الطاهرة والشريرة . والمخلوقات الشريرة لا يمكن أن تكون محلا للبركة الإلهية التى يذكرها الشاعر.

وقد نوه البكريون بشأن أبى الحسن كثيرا فى كـتبـهم ورسـائلهم، ورووا له الكرامات والخوارق. واعـتـبـروه مـؤسس مـجـدهم الأدبى والصـوفى والاجتمـاعى. فـانظر إلى ابنه مـحـمـد البكرى حين يقول:

وكل ولى بعـد طه وعـارف
فنقطة مـاء من بحـار أبى بكر
ومـا زال هذا المجـد فـيـه حـقـيـقـة
إلى أن بدا المولى أبو الحسن البكرى
فـحـاز جـمـيع الإرث وازداد أمـره
به منه مـا يـبديه عن شـأنه ذكـرى
فـمن ذاك أن العين حـقـا تقـابلت
بعين تجلى الحق فى أحـمـد السـر
فـودت تجليـهـابهـا فـتـعـينت
بطلعتها فى الذات من دون ماستر
فأصبح مـخطوب الجمال ورونق الـ
ـكمال وحامى الحق بالبيض والسمر
وعـالم هذا العـالم الأكـبـر الذى
توسع حـقـا فى مـراتبـه الغـر
وهيكل أسـرار التـجلى وقطبـهـا
ومـشـرق بدر السـر فى ليلة القـدر
ولا عـجب أن يطلع البـدر فى الدجى
بأية وقـت شـاءه ملك الأمـر
ووارث تكليم الكليم وحـائز الـ
ـكلام بما يـبديه فى الكلم العـشر
فـروض ربى روض تربتـه التى
يفوق شذاها المسك فى طيب النشر
ولـوح بـه رقـم العلـوم بأسـرهـا
وسـر نظام الكون فى البـر والبـحـر

فلم يذكر الشاعر أحدا من أجداده بل قصر كـلامه على والده. وقال إنه كالبدر الذى طلع فى الظلام، ولا عـجب فى أن يطلع البـدرفى أى وقت مـتى أراد الله ذلك. ويريد بالدجى خـمـول الذكـر الذى لازم أسـرت مـدة من الزمن، ولم يتـبـدد إلا بظهور أبى الحسن الذى حاز إرث الصديق وأضحى موضعـا لتجلى الأسرار الإلهية، متعمـقـا فى علوم الحقـيـقـة التى تلقاها عن الله مباشـرة كـمـا تلقى موسى الوصايا.

ولما مات أبو الحسن خلفه فى مشيخة السجادة ابنه مـحـمـد البكرى الكبـيـر المشـهـور بأبيض الوجـه،المكنى بأبى بكر، وأبى المكارم، وقـد ترجم لنفسه فذكـر أنه ولد عـام ٩٣٠هـ ثم تحدث عن نشأته وحياته الدراسية واشتغاله بالتدريس والتأليف، وماله من نظم ونثر. وردت هذه الترجمة فى كتاب «عمدة التحقيق فى بشائر آل الصديق» تأليف أحد

دعاة البكريين فى القرن الحادى عشر، وهو ابراهيم العبيدى المالكى الذى شغل وظيفة الإفتاء فى البحيرة. وقد رآه عبد الغنى النابلسى حينما زار مصر سنة ١١٠٥ هـ وذكره فى رحلته.

قال محمد البكرى إنه ختم القرآن فى أواخر السابعة من عمره، وصلى به إماما (إمامة الصبى جائزة عن الشافعية والمالكية) فى تراويح رمضان فى مقام السادة المالكية عند الكعبة وهو فى الثامنة. ثم حفظ ألفية بن مالك والتنبيه لأبى اسحاق الشيرازى فى فقه الشافعى قبل تمام العاشرة. وكان مواظبا على حضور دروس والده، فأخذ عنه التفسير والفقه والحديث. ولم يذكر أنه تتلمذ لأحد سوى والده.

ثم شرع فى التأليف وهو فى السادسة عشر. فشرح كتاب الاختصار فى فقه الشافعى، وقطعا من مؤلفات فقهية، ورسائل كاملة فى التصوف وزاول التدريس فى مسجد جده المشهور بالجامع الأبيض. ثم خلف والده فى التدريس بالجامع الأزهر.

ورث محمد البكرى عن والده ثروة طائلة مكنته من أن يعيش كما قال الشعرانى عيشة الملوك فى مسكنه ومأكله، وملبسه ومركبه، وجواريه وعبيده. وكان الناس ينكرون على البكريين الجمع بين الغنى وحياة التصوف التى ينبغى فى نظرهم أن يكون طابعها التقشف والفقر. ولكن البكريين ومنهم محمد البكرى كانوا لا يرون تناقض بين الغنى والتصوف ويحتجون بقولهم أن أبا بكر كان له ثلاثماية وستون كرسيا، على كل كرسى حلة بألف دينار، وأن عبد الرحمن بن عوف كان من أغنياء الصحابة. ونحن نعرف من التاريخ أن أبا بكر عاش فى الإسلام فقيرا ومات فقيرا فإن صحت دعواهم فى عبد الرحمن بن عوف فإنها لا تصح فى أبى بكر. واحتجوا كذلك بقوله تعالى «قل من حرم زينة الله التى أخرج لعباده والطيبات من الرزق» ـ الأعراف آية ٣٢. وقوله صالى الله عليه وسلم «كل طيبا، والبس طيبا ، واعمل صالحا».

تمتع محمد البكرى فى حياته بنفوذ أدبى واسع، وتبادل الرسائل مع الملوك والأمراء والوزراء والأعيان فى كثير من أنحاء العالم الإسلامى. وكانت تصل إليه الهدايا النفيسة، وكان مقبول الوساطة. وقد ذكره الشعرانى فى ذيل طبقاته وأثنى عليه كثيرا. كما ذكره عبد الرؤوف المناوى فى طبقاته ـ كتاب «الكواكب الدرية ويعرف بطبقات المناوى. ـ الطبقة العاشرة ـ فقال ـ .(..... رزق من القبول والحظ التام عند الخاص والعام مالا تضبطه الأقلام. وكان فصيح اللسان، ذكى العصر والزمان. يلقى دروسا فى التفسير محررة موشحة بمناقشات كبار المفسرين كالزمخشرى وأضرابه ويأتى فى تقريره بما يدهش الناظر ويحير الخاطر. واختص فى زمنه بإلقاء دروس التصوف الحافلة البديعة. ولم أر أحد من علماء عصره مثله فى صفاته وخلو مجلسه من اللغط واللغو والغيبة. فكان مجلسه لا يذكر فيه شىء من ذلك البتة.، بل كله فوائد علمية. إما تفسير بعض آيات قرآنية أو أحاديث نبوية. وسمعته يقول: هذا القص الواقع فى وعاظ زماننا يستحقون عليه القص. وكان الباشا وقاضى العسكر فمن دونهما من الأمراد والكبراء يأتون إليه ويخصونه من بين أقرانه بالزيارة مرارا وكرارا كثيرة».

وإذا كان بعض معاصريه أنكر ولايته لأنه لم ير له كرامة فإن البكريين اعتقدوا فيه الولاية، ورووا له الكرامات الكثيرة. وقالوا إذا كانت لك حاجة إلى الله وأنت فى أى مكان من الأرض فتوجه نحو قبره وقل «ياشيخ محمد، ياابن أبى الحسن، يا أبيض الوجه، يابكرى ، توسلت بك إلى الله تعالى فى قضاء حاجتى» فإنها تقضى، وهى مجربة فيما زعموا.

ويعتبر محمد البكرى أعظم شخصية بكرية ظهرت فى مصر خلال العصر العثمانى. فهو الذى وضع الحزب البكرى المشهور الذى انتشر بين أتباع الطريقة البكرية مدة طويلة. وهو أول من اتخذ شعره وسيلة للدعاية للتعاليم البكرية. وقد ترك ديوانا ضخما.

ولمحمد البكرى ، عدا هذا الديوان الضخم، مجموعة رسائل عنوانها «دستور الغرائب ومعدن الرغائب» وله كذلك بعض الرسائل فى التصوف. وسنقصر الكلام هنا على شعره.

شعر محمد البكرى ، عد القليل منه ؛ في التصوف. ولكي نقف على حقيقة مذهبه الصوفي سنضع أمامنا بعض ما يكشف لنا عن آرائه الصوفية فمن ذلك قوله:

كم أناس توغلوا فى الدعـــاوى
زعـــمـــوا أنهم من الأبرار
بل من العـــارفين بالله لكن
قـــســـمـــا إنهم من الكفـــار
أطلقـــوا وحـدة الوجـود وقـــالوا
كل شىء هو الإله البـــارى
يا لقـــومى أمـــا لطه نصـــيـــر
غـــاب من لم يكن من الأنصـــار؟
أى شـــخص يقـــول آمنت باللـ
ـــه ويرضى مـــقـــالة الفـــجـــار؟
وتراهم تمشـــدقـــوا بأكـــاذيـ
ـــب افـــتـــروها بالنثـــر والأشـــعـــار
أطرقـــوا الرأس حـــيلة لحطام
وســـعـــوا فـــيـــه حـــيلة الأفكار
قـــائل منهـــمـــو أنا الحق والـ
ـــكل أنا وحـــــــدة بلا إنكـار
وغـــــدوا فى أثواب زور ولبس
وشـــنـــار وذلـــة وعـــــــــــوار

فى هذه الأبيات تعريض شديد بالاتحاديين (مذهب الاتحاد ينص على أن الخلق متحد مع الحق) والحلوليين (مذهب الحلول ينص على أن الله حال فى المخلوقات) : والقائلين بوحدة الوجود. واتهام لهم بالكذب والتزييف، والغش والخداع، فضلا عن الكفر والفجور. وقد كرر هذا فى مواضع كثيرة من شعره. فمن ذلك قوله:

مـــا حلت، بل جلت ومـــا اتحـدت
بمشـــرق ، لا ولا المعنى بمنقـــسم

وقوله :

حلول مـــحـــال واتحـــاد مـــخـــالف
لوحـــدته فـــالوصـف فـــيـــه تلونا

وقوله :

حـــيـــرة عـــمت الوجـــود فـــأعـــمت
عن سناها قـــوم وصـــحـــبـــا وآلا
فاستمع لى واستنصت الكون وافقه
مـــا إليك انتـــهـى وخل الخـــيـــالا
ليس فى مظهـــر يحل حـــبـــيـــبى
هو أعلى قـــدرا وأبهى كـــمـــالا
لا ولا باتحـــــاده قـــــال قـــــوم
عـــرفـــوه حـــاشـــا لذا أن يقـــالا

فإذا كان محمد البكرى كما ترى ينكر مذهب الاتحاد والحلول ووحدة الوجود ويكفر أصحاب هذه المذاهب، فبأى رأى كان يدين؟ الواضح من شعره أنه كان يقول بوحدة الشهود، أى أنه يذهب مذهب ابن الفارض مع فارق عظيم، وهو أن محمد البكرى يقول بالحقيقة البكرية التى تنتقل فى ذرية الصديق، والتى امتازت بها هذه العائلة عن غيرها من الناس. ولو أنه قال بمذهب الاتحاد أو الحلول أو حدة الوجود لفقد هو وأفراد بيته الميزة الوحيدة التى يتمتع بها، وذلك لأن المذاهب السابقة تسوى بين

الناس وتجعلهم كلهم متصلين بالذات الإلهية، فلا ميزة لأحد على أحد. وهو يريد أن يكون لبيته مكانة خاصة وميزة لا يشاركه فيها غيره، ألا وهي وراثته للحقيقة المحمدية والحقيقة البكرية. وإذا كان محمد البكرى قد كفر القائلين بالحلول والاتحاد ووحدة الوجود، فإن الإسلام الصحيح يبرأ من التعاليم البكرية والقائلين بها، والمروجين لها.

ذكرنا أن محمد البكرى كان يدين بمذهب وحدة الشهود. والمؤمنون بهذا المذهب يقولون إن الله يتجلى لكل من يخلص له فى عبادته ويفنى فى حبه. قال محمد البكرى:

ولاحت لنا فاستغرقت كل واحد
وصارت له فينا عن الأين طاويه
مقدرة سر الوجود بوحدة الشـ
ـهود فلا تلقى هنالك ثانيه

والمعنى أن الذات الإلهية تجلت وتكشفت وجذبت نحوها هؤلاء المتصوفة فغابوا عن الزمان والمكان، ولم يشعروا بوجودهم من فرط النشوة.

ويعبر محمد البكرى عن مذهب وحدة الشهود مستدلا بقصة موسى عليه السلام حينما رأى النار وتوجه إليها فتجلى له الله سبحانه وتعالى وكلمه. قال:

جمعتنى منك حتى كنت منك بما
قدست فيه لموسى ذلك النادى
جعلت بالشجر المخضر نارك فاعـ
ـتزت بنورك جميعا سرحة الوادى
فظنها المطلب المقصود فابتدر الـ
ـمشهود حتى تبدى أنك البادى
ما أنت نار ولا نور تقسمه الـ
ـأحلام هيهات أنت الواحد الهادى
فامنن بكشف حجاب أنت ناسجه
عليك منك وقرب كل قصاد

فى هذه الأبيات إشارة إلى قوله تعالى على لسان موسى «امكثوا إنى آنست نارا لعلى آتيكم منها بقبس أو أجد على النار هدى» ـ طه آية ١٠ـ ويقول المتصوفة إن الله تجلى لموسى فى صورة النار لأنها عين مطلوبة من جهة ومن جهة أخرى فإنها رمز القهر والمحبة، لأنها تفنى كل ما اتصل بها. أى كل من تحقق من وحدته الذاتية وهذا الفناء هو الذى الذى يعبر عنه المتصوفة بالجمع. والنار كذلك رمز المحبة لأنها مصدر النور المحبوب لذاته.

وينكر محمد البكرى لبس الصوف والمرقعات. لأنها لا تتفق مع ما كان عليه من غنى قال:

وما مذهب للفيلسوف وفرقة
بلبسته للصوف مذهب شرعتى

ومن مصطلحات الصوفية الواردة فى شعره:

١ ـ الجمع والفرق : الجمع الحالةالتى يشعر الصوفى فيها بوحدة الحق والخلق، ويفنى عن نفسه وعن كل ما سوى الله. فهى حالة غيبية روحية وعكسها حالة «الفرق» التى يكون فيها فى حالة صحو، أى حينما يشتغل بأمور الدنيا. قال:

وأبعد الجمع عنهم فى شئو نهمو
ما يحجب العين من غبن ومن كدر
فالحق بالحق مرآة لشاهدهم
وليس ثم سوى المعشوق للفطر

٢ ـ البسط والقبض: البسط هو النشوة التى يشعر بها الصوفى فى حالة فنائه بالذات الإلهية. وعكسه القبض، وهو الضيق والتبرم الذى يقع فى حالة الصحو. قال:

وأطلقهم بسطا بكل لطيفة

وقيدهم قبضا بدائرة الفنا

٣ ـ الطى والنشر ، وهما كالجمع والفرق. فالطى : انطواء الخلق فى الحق فى حالة الفناء، أو الغيبة الروحية. وعكسه النشر. قال:

نشر وطى حكمة قدسيه
سعدى ومى ظلة رسميه

٤ ـ الوتر والشفع :الوتر هو الذات الإلهية. والشفع هو العالم ويقول المتصوفة إن الذات الإلهية إذا نظر إليها مجردة عن جميع العلاقات والنسب لم يكن لها دلالة ولا إشارة إلا على نفسها. أما العالم الذى هو كثرة من صور الوجود فله إشارتان : إشارة إلى نفسه، وإشارة إلى الذات المندرجة فى كل صور من صوره. والحقيقة أن الوتر هو الشفع ولكنهما متغايران فى الذهن، كما أن الواحد العددى هو عين الأعداد كلها ولكنه مغاير لها ذهنا. وهذا الرأى الرياضى قديم ذهب إليه اليونان، فقالوا إن الواحد أصل العدد، وكل ما يأتى بعده فهو مندرج فيه. فالإثنان عبارة عن واحد زائد واحد. والثلاثة عبارة عن واحد ، زائد واحد، زائد واحد. وكذلك سائر الأعداد. وقد أخذ إخوان الصفا عن اليونان هذه الفكرة فقالوا إن الواحد أصل العدد ومنشؤه ، وأوله وآخره. قال محمد البكرى:

ومنه شفعه الأزهر
بدا فى الخلق بالوتر

وقال:

واستغرق الشفع بالوتر المحيط ولا
تترك لنفسك سهما غير مرمى

٥ ـ اللاهوت والناسوت : يقول المتصوفة إن لكل موجود ناحيتين: ناحية الباطن أو الحق ويسمونه باللاهوت. وناحية الظاهر أو الخلق ويسمونها بالناسوت. قال محمد البكرى:

فلم أدر ما الناسوت أين ولا الذى
تعين باللاهوت عن وصف نسبة

٦ ـ الفيض : تجلى الذات الإلهية . قال:

هو الجمع فى عين الشهود بلامرا
تجلى بأنواع من الفيض بالأمر

وتكون بمعنى خروج شىء من شىء، مثال ذلك قوله:

وعطر الأرج القدسى حلتنا
وفاض من معصرات الغيب وادينا

٧ ـ التعينات : وهى مجالى الذات الإلهية. فكل ما يتجلى فيه الله يسمى التعين. قال:

وفى العروش وألواح النقوش كما
شاء التعين فى مثل وفى مثل

٨ ـ البرزخ : حالة ما بين الفناء والصحو. قال:

فأشباحهم فى برزخ من شهوده
وأرواحهم فى غيبة القرب والغنى

٩ ـ الحيرة : الحالة التى يرى الصوفى فيها الحق فى كل شىء. ويرى الواحد كثيرا، والكثير واحد، والأول آخرا، والآخر أولا، إلى غير ذلك من الأمور المتناقضة التى توقع النفس فى الحيرة وتجعلها هائمة على وجهها، دائبة الحركة فى دائرة الوجود، قال:

هديت بالغرة من ضل فى
طرتك الدهما وحيرتنى

١٠ ـ القدوس والسبوح: هما من أسماء الله. ومعناهما المنزه، وإن كانوا يقولون إن القدوس أخص في معنى التنزيه من السبوح وأبلغ، إذ التقديس تنزيه الله عن كل صفات الممكنات ولوازمها حتى كمالاتها، وعن كل ما يتوهم ويتعقل في حقه تعالى من الأحكام الموجبة للتحديث والتقييد. وبعبارة أخرى التقديس هو نهاية التجريد، ولا تقول به إلا النفوس المجردة التي لا صلة لها بالأمو ر المادية. قال محمد البكري:

إلى القدوس الذاتي والمعهد الروحي
إلى ملكوت منه يظهر سبوحي

وقال:

وقد دخلوا لكن بيوت وجودهم
وأدخلني القدوس أي جناب

١١ ـ السر المحيط والسر البسيط. يطلق الأول على الذات الإلهية، والثاني على الإنسان قال:

وبعزة السر المحيط مركب السـ
ـر البسيط بطينة وتراب

١٢ ـ النفخ، وهو خروج شيء من شيء، أو فيض شيء من شيء.قال:

ولقوله ونفخت فيه آية
تعطي القلوب من المنى ما تطلب

١٣ ـ الأحدية والصمدية: الأحدية اسم للذات المجردة عن جميع الأسماء والصفات. والصمدية نسبة إلى الصمد، من أسماء الله تعالى . قال:

في روضة أحدية صمدية
أنا لي بها مني المغنى المطرب

١٤ ـ الهوية : الصورة التي يتجلى فيها الحق يوم القيامة. قال:

ياهويات صفات ظهرت
في ذوات بالتجلي قهرت

١٥ ـ قرآن وفرقان: استخدم المتصوفة كلمة «قرآن» بمعنى الدعوة إلى تنزيه الله. فمن دعا إلى تنزيه الله فهو قرآني. وقد ردد محمد البكري هذه الكلمة في شعره فقال:

قرآن عرفاني الأعلى يكلمكم
فاسمعوا وانصتوا يا جملة الأمم

وكذلك استخدموا كلمة «فرقان» ومعناها لا يختلف عن «قرآن» قال محمد البكري:

فيعيني منه لائحة
ظهرت جمعا بفرقان

١٦ ـ النكاح: يرى المتصوفة أن أعظم اتصال جسماني بين الرجل والمرأة هو النكاح، إذ فيه يتوجه الرجل لإيجاد ولد يكون على صورته ويخلفه من بعده. لذلك شبهوا توجه الله إلى خلق آدم ونفخه فيه من روحه ليكون على صورته ويخلفه ويرى فيه نفسه؛ شبهوا هذا بالنكاح قال محمد البكري:

وعزة قد أنكحتها بكثير
وقيس لليلى صار في شرعتي بعلا
فولد ذاك البعل منها مشاهدا
يعددها شكلا ويجمعها شملا

١٧ ـ التابوت: وهو في اصطلاح الصوفية

الجسم الإنساني . وقد ورد ذكر التابوت في قوله تعالى «وقال لهم نبيهم إن آية ملكه أن يأتيكم التابوت فيه سكينة من ربكم وبقية مما ترك آل موسى وآل هرون تحمله الملائكة» البقرة آية ٢٤٩ والمراد بالسكينة عند المتصوفة : الحضور الإلهي، أو الله نفسه.

وفي هذا المعنى يقول محمد البكري:

وقابلك التابوت فيه بقية

يضم بها التابوت من سره شملا

١٨ ـ العارف: هو الولي أو الإنسان الكامل الذي تحققت فيه كل صفات الوجود، فكان مظهرا تاما وكونا جامعا لها وقلب العارف من رحمة الله، وهو أوسع منهما لأنه وسع الحق جل جلاله. ومن خصائصه أنه يشاهد الحق في كل مجلى، ويراه في كل شيء، ويعبده في كل صورة من صور المعتقدات. وقد وصف محمد البكري نفسه بأنه عارف الوقت، ومخصوص الزمان. قال:

الفتى البكري مقدام الوغى

عارف الوقت ومخصوص الزمان

١٩ ـ الحكمة: والمراد بها عند الصوفية التعاليم الباطنية التي اختص بها النبي محمد عليه السلام وورثها من بعده البكرية. وأطلقوا على هذه التعاليم اسم العلم الباطن. وهو عندهم علم الطريق الصوفي، وما ينكشف للصوفية من حقائق الأشياء، ومعاني الغيب. قال:

ينزل الحكمة في روضها

غيثا تعالى الله من ودقه

ومن خصائص الحكمة أنها تنزل على القلوب ، لا على العقول.

تجلى المطلق الأعلى

فجلى نوره الأدوار

٢١ ـ ذات الذوات . ومعناها الحقيقة المحمدية. قال:

هو السر في ذات الذوات تقابلت

شواهده في فيء نفس وطينة

٢٢ ـ الولي: الولاية عند المتصوفة أساس المراتب الروحية كلها. فكل رسول ولي، وكذلك كل نبي. وأخص صفات الولي المعرفة ، أي العلم الباطن. والنبوة والرسالة تنقطعان لأنهما مقيدتان بالزمان والمكان. أما الولاية فلا تنقطع. وقد وردت كلمة «ولي» في مواضع مختلفة من شعر محمد البكري. قال:

فعساه يذكرنا وذلك سؤالنا

فهو الولي ابن الولي ابن الولي

٢٣ ـ الحضرة: المجلى الذي يظهر فيه أثر إلهي من نوع خاص. أو المجال الذي يظهر فيه فعل إلهي خاص. قال:

وانجلت آزال حضرته

من شئون البدء في الأبد

وقال:

حدثنا الواحد عن واحد

عن حضرة المشهود والشاهد

وقال:

هي الروح والروح أمر خفي

دق إلا عن حضرة الرحمن

فحضرة الرحمن هي مجموعة المجالي التي

يظهر فيها أثر الرحمة الإلهية.

٢٤ ـ التخلل: هو سريان الحق فى صورة الموجودات جميعها. قال:

تخلل روحى حبه فهو شاهدى
ومشهود روحى فى جميع المشاهد

ويفسر الصوفية كلمة «خليلا» فى قوله تعالى «واتخذ الله ابراهيم خليلا» ـ النساء آية ١٢٥ ـ بالتخلل وهو السريان.

٢٥ ـ أسماء الذات: قال المتصوفة إن الكون هو الأسماء التى أطلقها الله على نفسه. وغاية الخلق عنده أن يرى الله نفسه فى صورة تتجلى فيها صفاته وأسماؤه. أو بعبارة أخرى يرى نفسه فى مرآة العالم. وإلى هذا يشير محمد البكرى فى قوله:

أسماء الذات تجلت فى
ستر الأوصاف وذا الأرب

هذه أهم المصطلحات الصوفية التى أوردها محمد البكرى فى شعره. وقد أخذها كلها من كتب ابن عربى وبخاصة فصوص الحكم الذى يشير إليه بقوله:

نقشت فى فصوصنا حكم الـ
وصف فرحنا نحير فى الحكماء

وقد سبق أن ذكرنا أن البكريين أضافوا إلى جانب الحقيقة المحمدية بمعناها الصوفى؛ حقيقة أخرى هى الحقيقة البكرية. قال محمد البكرى:

وأعلنت نورى فى مشاهد حضرة الـ
ـجمال على أعلام أعلام ملتى

وقدست هاتيك المنازل عن سوى
تنزل عرفاتى ببطحاء مكة

ومنى بصديق صديق مظهر الـ
وجود ومرآتى وعين سريرتى

وما ثم إلا أن أمرى أره
وتحقيقه فى نظرة أى نظرة

ولولاى ما ولى ولى ولاية
وقد وليت هذا اللوا أوليتى

فقل لأهل الحق قالة صادق
تألى عليها بالعهود الوثيقة

عليكم بباب الله باب محمد
فلوذوا به قبل انخرام المنية

وفوزوا بتقبيل الثرى فى رحابه
ولا تنثنوا عنه بصارف شهوة

فهو فى هذه الأبيات يشير إلى وراثته للحقيقة البكرية، فأمره أمرها. ولولاه ماظهر الأولياء. ثم ناشد أتباعه ومريديه أن يلجأوا إليه ويلتفوا حوله، ويلوذوا ببابه الذى هو باب الله حتى يفوزوا برضى الله. وقد عنى نفسه فى قوله «عليكم بباب الله باب محمد» إذ أن اسمه محمد. فمن لاذ ببابه وقبل ثراه فقد ظفر بالحسنى وزيادة ، وأصبح مقربا من الله. وقال:

أما بالصدق والتصديق
موالى حضرة الصديق

مجالى طلعة التحقيق .
وأهل الفيض والذكر

وفى آل أبى بكر يقول:

لهم نفحات هب نشر نسيمها
فمن طيبها كل المعاهد عطروا

لهم ألسن عن ربهم بشئونه

تحـدث عنه منه فـيـه وتخـبـر
لهم عزمات لو أشاروا ببعضها
ليـذبل أو رضـوى لهـدوا وفطروا
لهم رحمـات لو يقابل فيضها
ذنوب البرايا أصبحت وهى تغفر
لهم نظرات صاحبتها عناية
بها الفقر يفنى مثلما الجبر يكسر
مفاتيح أسرار القلوب وحضرة الـ
غيوب ومن أسرارهم ليس تحصر
خـلائف أقطاب ملوك أئمـة
ميامين من جدواهمو فاض كوثر
بنو الصدق والصديق أفضل سيد
مـآثره بعـد النبيين تذكـر
محـبـهـمـو فى ذمة الله آمن
بعزمهـمـو يرعى ويحمى وينصر

هذه بعض خصائص العائلة البكرية . فهم أهل التقوى والورع، وأهل العلم الباطن. وهم أولو العزم والطول، وأهل الرحمة الذين أودع الله فيهم أسراره. من أحبهم فقد نجا من الهلاك، وأمن على نفسه من شرور الدنيا وعذاب الآخرة.

وأبو بكر الصديق أفضل الوارثين للنبى صلى الله عليه وسلم . قال:

عليك صـلاة الله ثم سـلامـه
يدومان ما قلب لنحوك منبعث
وآل وأصحاب ولا سيما الذى
هو الصادق الصديق أفضل من ورث

ويصف محمد البكرى نفسه بأنه يضىء العالم بخلافته، ويغيث الملهوف، ويحمى الضعيف، ويكشف الخطوب، ويفرج الكروب. وباسمه يزول البؤس والضر. قال:

وإنى لقدس العالم الأحدى من
إضاءة بدرى بالخلافة لألاءوإنى إذا
المضطر نادى أغـشـتـه
وتكشف عنه بالعناية حوباء
وأنى أحمى من أشاء بإذنك الـ
ـعلى وتأتيه بمنك سراء
وأنى كشاف الخطوب وفارج الـ
ـكروب وباسمى زال بؤس وضراء
وأنى سبط المصطفى أحمد الذى
شريعته يمن ويسر وسمحاء
وأنى من أبناء صـديقـه الذى
بأسـراره سادت أصول وأبناء
ففخرا لأتباعى وخدام حضرتى
وبالله أوليهم جميع الذى شاءوا

نجد مثل هذا منبثافى ديوانه. فهو لم يترك الناس ليعتقدوا فيه ما شاءوا ، وينسبوا إليه ما يحلو لهم من الكرامات والخوارق، بل أخذ يدعوا لنفسه، وينوه بفضائله وخصائصه، وما حبى به من القدرة الفائقة على إغاثة الملهوف وحماية الضعيف. ودعا أتباعه لأن يفخروا به ويتمسكوا بأهدابه. وقد وضع لأتباعه ومريديه أناشيد خاصة يتغنون بها فى حلقات الأذكار. وفيها تقديس عظيم لآل الصديق. فمن ذلك قوله:

يا نفـحـة نبـوية يا نفـحـةبكرية
يابهـجـة أحـدية ياعـزة صـمـدية
ياحـضـرة قـدسية فيـها الأمانى للأريب
الغوث بالفرج القريب
يا آل صديق الحبيب
اصدق وصدق ما مريد واترك مماراة العميد

واسلك على النهج السديد واتبع لنا الرأى الحميد
فأنا المخصص بالمزيد
وأنا النجيب ابن النجيب
الغوث بالفرج القريب
ياآل صديق الحبيب

هكذا اتخذ محمد البكرى شعره وسيلة للدعاية له ولبيت الصديق. وكان هو كرئيس حزب دينى كبير يرغب فى طبع أتباعه بطابع خاص حتى يمتازوا عن غيرهم. وهذا الطابع هو ترتيبهم على حب آل الصديق وتقديسهم، والولاء لهم فى السر والعلن، وإخلاص الاعتقاد فيهم. ولا يتيسر ذلك إلا إذا شغلهم بمثل تلك الأناشيد ، يضعها فى أسلوب سهل عذب ، له رنة موسيقية حلوة. وكان أتباعه يحفظون هذه الأناشيد ويتغنون بها، وينقلونها من مكان إلى مكان فذاعت وانتشرت على كل لسان. وهو يذكر بعد النفحة النبوية النفحة البكرية. وهذا طبيعى لأنه يريد أن يصرف الناس عن حب آل على المعادين للسلطنة العثمانية ويجعلهم لا يؤمنون إلا بأبى بكر وآله الموالين للسلطنة العثمانية. فالحقيقة البكرية التى هى هدفه الأول والأخير، والتى اجتهد فى الدعاية لها وحمل الناس على الإيمان بها؛ ظاهرة ظهورا واضحا فى هذا الشعر وتلك الأناشيد.

وكما أن محمد البكرى تأثر بكتب ابن عربى وخاصة فصوص الحكم، فإنه تأثر كذلك بابن الفارض. فنظم فى الحب الإلهى والخمرة الإلهية شعرا كثيرا نسج فيه على منوال ابن الفارض؛ وأضاف إلى جانب الخمرة الإلهية خمرة أخرى هى الخمرة البكرية . قال:

وإذا أديرت خمرة بكرية
أذن وقل لا عاش من لا يستقى

وإلى جانب الحب الإلهى حب آل الصديق

ونجد فى هذا الشعر غزلا بالأماكن الحجازية وتشوقا إليها مثل : سلع، ورامة، والوعساء، وحاجر وغيرها. وهو لا يقصد بها ظاهرها، وإنما يكنى بها عن الحقيقة المحمدية. كما يذكر الكثيب ويكنى به عن المقامات المحمدية التى تشبه رمال الكثيب فى عدم القدرة على حصرها. ومثال ذلك قوله:

ذكر العذيب ورامة فتشوقا
يبكى حذارا أن يقال تعوقا
لا والذى خلق النوى وقضى به
لست المخلف عن أثيلات النقا

والنقا : كناية عن المقام المحمدى الذى انتقاه الله واختاره.

ونجد كذلك غزلا ببعض النساء كسعاد وزينب ومى والرباب وغيرهن.

وهو حين يذكر هذه الأسماء يكنى بها عن الحضرة الوجودية المحتجبة بصور الأكوان العدمية. مثال ذلك قوله:

أدعو سعادا ثم أدعو زينبا
ها قد عشقت فقيدى أو أطلقى

ويذكر الحمى ويكنى به عن الروح الأعظم أو الذات الإلهية . قال:

جدد بذكر الحمى عهدى وأشواقى
واهتف بمن حبهم عهدى و ميثاقى

والربوع كناية عن مقامات العارفين ومنازلهم، وما يجدون فيها من الحقائق والعلوم. قال:

درت بين الربوع أسأل عنهم
أين حلوا وجدتهم فى فؤادى

ويذكر حادى الأظعان، فيريد بالحادى : الله، والأظعان : الناس

قال:

ويا حادى الأظعان روح بذكرهم

فؤادى وقل عن ظبى رامة منشدى

والأقمار كناية عن العارفين بالله . قال:

ما رأينا الأقمار تهتز بالتيـ

ـه دلالا وتنثنى كالغصون

ويكنى بالخمر عن شراب المحبة الإلهية . قال:

فهاتها خمرة لو أنها ذكرت

عند اللسيع لأغنته عن الراقى

وقد سبق ابن الفارض إلى هذا المعنى فقال:

ولو أن ركبا يمموا ترب أرضها

وفى الركب ملسوع لما ضره السم

ويكنى بالحان عن حضرات الذات العلية . قال:

فسر معى نحو حانات تزف بها

عروسها سير مشغوف ومشتاق

وقد أتى فى شعره بكثير من معانى ابن الفارض. مثال ذلك قوله:

أنا يعقوب هواها فارحموا

من تفانى فى الجمال اليوسفى

وهو شبيه بقول ابن الفارض

لو أسمعوا يعقوب ذكر ملاحة

في وجهه نسى الجمال اليوسفى

وقوله:

أو باسمها دعى الأموات لا بتدروا

من فورهم يحسبون الحشر للباقى

مأخوذ من قول ابن الفارض:

ولو نضحوا منها ثرى قبر ميت

لعادت إليه الروح وانتعش الجسم

وقوله:

أو أنها جليت والليل معتكر

لأشرق الليل منها أى إشراق

مأخوذ من قول ابن الفارض:

ولو خضبت من كأسها كف لامس

لما ضل فى ليل وفى يده النجم

وكذلك تحدث عن الوتر والعود، والسماع والغناء، والشطح والرقص وغير ذلك مما عرف به الصوفية ، فمن هذا قوله:

لم تسمع الأذن أنباء من الوتر

وإنما الوتر أهدى طيب الخبر

والعود إن رن أن الصب فابتدرت

دموعه فحكت صوبا من المطر

ما ذاك من طرب باللهو بل طرب

بحكمة أشهدتها العين بالأثر

ونجد أمثال هذا كثيرا فى شعره.

* * *

وقد سبق أن ذكرنا أنه أضاف إلى جانب الحب الإلهى حب آل الصديق، والتفانى فى الإقبال عليهم والإخلاص لهم. وكان يعتبر نفسه صديق زمانه، الوارث للحقيقة البكرية. وشعره فى هذا يشبه شعره فى الحب. الإلهى أنظر إلى قوله:

لا تشتغل عن شهود

إياك إياك واحذر

فكل شىء مليح

منه جمالى أكبر

البدر أشرق منى

وحاجب الشمس أسفر

وناسم من حديثي
كل الأماجد أسكر
والله والله لولا
جمال ذاتي يستر
لأحرقت نيراني
أهل الوجود المعمر
ولم يكن قط عبد
لحسن وجهي أبصر
هل ظن غير مولي
من الأئمة يذكر؟
فمن يؤمل جودي
بغاية السؤل يظفر
ومن يخالف أمري
في حضرة المقت يقبر
أحمي الذمار وإني
ليث الزمان الغضنفر
سبط الحبيب ونجل الصـ
ـديق أكرم معشر
قد فاز قومي وصحبي
بذاك حالي بشر

فهو يدعو الناس إلى ترك كل ما يشغلهم عن شهوده، ويحذرهم من الانصراف عنه، ويقول إن جماله يفوق كل جمال، وأن البدر والشمس طلعا منه. وحديثه مسكر، ولولا جمال ذاته لأحرقت نيرانه الدنيا وما فيها. والأئمة كلهم لا يذكرون إلى جانبه، ولا ينبغي لأحد أن يذكرهم. ومن أمل جوده ظفر بمطلوبه. ومن خالفه ولم يؤمن به أصابه غضب الله، وحقت عليه اللعنة. وهو حامي الناس من البلاء. وقومه وأصحابه ومحبوه هم الفائزون. وقال:

ألذ من رشف زلال الضرب
ومن مدام توجت بالحبب
وضرب قينات بأعوادها
تهيم القلب بحسن الطرب
ومن سرير الملك رقيته
يبلغ العبد رفيع الرتب
ألذ من ذاك ومن ذا وذا
حب بني الصديق فخر العرب
جحاجح المجد وملاكه
مظاهر السر محل العجب
في كل عصر منهمو سيد
مؤيد بالحق ماحي الريب
ما أمه في الكرب من أمه
إلا وزالت عنه كل الكرب
فاقصد حماهم خاضعا سائلا
رضاهم فهو أجل القرب
وإن يضق أمر فقل سادتي
هذا بني الصديق وقت الحسب

لا نجد شاعرا من ذرية أبي بكر ـ قبل محمد البكري ـ نظم مثل هذا الشعر، ولا اتخذ شعره وسيلة للدعاية إلى حب آل أبي بكر والإيمان بالحقيقة البكرية.

وقد اتخذ من نسبه المتصل بأبي بكر الصديق من ناحية أبيه، والمتصل بالحسن بن علي من ناحية جده لأمه مجالا عظيما للفخر. فنظم في هذا الصدد قصائد كثيرة تعيد إلى الأذهان شعر الشريف الرضي في الفخر. ولا غرابة في ذلك فقد توفر له العنصر الذي توفر للرضي. فمن ذلك قوله:

أنا ابن أبي بكر المجتبى
وسبط كرام بهم أمدح

بنى حسن سبط طه البشير
ومن نوره الزاهر الأوضح
به شرف البيت الأول والركن الـ
ـحطيم وزمزم والأبطح
إذا وزن الناس طرا به
فكفة ميزانه أرجح
فتحت كنوز الهدى للعفا
ة فأعطيهمو خير ما يمنح
ولست براض وحاشاى أن
يخيب مريدى فلا ينجح
أسر إذا أمنى سائل
فإنى بإسعافه أفرح
ولى همة فوق فرق الأثير
ونفس لما فوقه تطمح
بحد لسانى ذبحت العدا
ة فالله سيف به أذبح
ويذكرنى الحلم خلقى الكريم
فأعفو ومثلى من يسمح
ورثت النبى فلى من رباه
مقيل الخلافة والمسرح
وقمت بأعتاب عرفانه
مقيما هناك فلا أبرح

فهو هنا يفخر بنسبته إلى أبى بكر وإلى النبى صلى الله عليه وسلم. ويقول إنه يهدى الناس إلى الحق، وأن قاصده لا يخيب. فهو كريم يفرح بقدوم السائلين عليه. وبعد أن قدم الفخر بحسبه ونسبه وكرمه؛ أخذ يفخر بفصاحته وقوة بيانه التى أهلك بها أعداءه. ثم فخر بحلمه وعفوه.

وانتهى من ذلك إلى أهم شيء عنده وهو وراثته للخلافة النبوية. والبكريون يعتقدون أن النبى حينما عهد إلى أبى بكر بالصلاة بالناس إنما عهد إليه بالخلافة. وعلى ذلك فمحمد البكرى هو الوارث الوحيد للخلافة النبوية فى عصره. فهو فى فخره بحسبه ونسبه ، وكرمه، وحلمه، وعفوه، وصفحه، وفصاحة لسانه وقوة بيانه ووراثته للنبى عليه السلام يشبه تماما الشريف الرضى من حيث المعانى والأساليب.

ومما روى عنه قوله: «جدتى لوالدتى من بنى مخزوم ، فولدنى فى قرش ثلاث بيوت : بنو تميم، وبنو مخروم، وبنو هاشم» وقد ردد فى شعره فقال:

أنا ذو المجد أثيل
وابن فياض الهبات
من بنى تيم قريش
صفوة العرب السراة
وذؤابات بن ها
شم االغر الحماة
وزعامات بنى مخزو
م الصيد الكفاة
نحن بالصديق فزنا
بالأمانى العاليات
فلمن يهوى هوانا
كل أنواع الهبات

وكما أن الشريف الرضى يقرن الفخر بالحماسة، فكذلك فعل محمد البكرى فى أسلوب قوى رائع لا يكاد يختلف عن أسلوب الرضى من حيث جودة الصياغة وفخامة الألفاظ، فضلا عن الصور والمعانى. ومثال ذلك قوله:

وسرت وثغر النصر يبسم سابحا
لها ما به وسع النفانف طافح
كأن مجر الجيش بالقوم زاخر

خضم وفلك الخيل فيه سوابح
كأن مثار النقع أهدى لنا شذا
من المسك تذريه علينا اللواقح
كأن مدار الحرب حان وخيلنا
نشاوى تجيع أرسلته الجوانح
كأن أعادينا ولا بلغوا المنى
أكف لأسياف المنايا تصافح
ونحن ملوك الحرب والصيد صيدنا
وليس لنا إلا الأسود جوارح
وفتياننا شم العرانين عزة
وكيف وإنا في السراة جحاجح
ومقعدنا فوق الثريا جلالة
وأبصارنا من فوق ذاك طوامح
ومجد معالينا تعالى مقامه
فإن سيم مدحا لم تنله القرائح
فإن كان فخر الأكرمين صحائفا
فإنا لآيات الكتاب فواتح

وإذا كان محمد البكرى صادقا فى فخره بحسبه ونسبه، فإن لم يصدق فى هذا الشعر الحماسى الذى يصور نفسه فيه فى صورة البطل المقدام الذى تهاب لقاءه الشجعان. وذلك لأن واقع حياته لا يدل على ذلك، فلم يكن من رجال الحرب ولم يذكر عنه أنه قاد جيشا أو اشترك فى معركة. وإنما كان يحيا حياة دعة وسلام، ويعيش فى ترف ونعيم، مشتغلا بعلوم الدين والتصوف ونظم القصائد. ومثل هذا يقال فى الحماسة عند الشريف الرضى.

وقد صبغ فخره بصبغة تصوفية . مثال ذلك قوله:

فمن أى أفق تشرقين بهذه الـ
ـمعارف إشراقا على غيرة سما
فقالت بأفق العبد صديق وقته
ومن ملأ الأدوار جودا وأنعما
إمام بنى الصديق فى الوقت مطلقا
ومن أتقن الأسرار علما وأحكما
ومن جاء فى العصر الأخير لتنتهى
به رتب التدوير كيسا وتختما

فهو منبع الأسرار الإلهية ومشرق المعارف الربانية. وهو صديق وقته وإمام عصره. والأدوار جمع دور، أى الوقت الذى يقوم فيه الإمام، وهو صاحب الدور. ويقول محمد البكرى إن الأدوار انتهت به وختمت بظهوره.

* * *

ويدخل فى باب التصوف ما نظمه الشاعر فى الوعظ والإرشاد وآداب المريد كما يراها ، مثال ذلك قوله:

مدار أحوالنا فى كل مرتبة
حفظ الحدود وترك الحظ والأرب
وأن يكون الذى يهوى مشاهدنا
مجانبا لسبيل اللهو واللعب
وأن يقوم إذا ما الليل تم له
نصف لمولاه بالإخلاص فى الطلب
يئن شوقا إلى المحبوب تحسبه
ثكلى آثار شجاها نوح منتحب
مفرغ القل من غير الحبيب له
فى بابه ذل مسكين ومكتئب
والصوم يكثر منه حيث قدره
رب العباد ليلقى غاية الأرب
والصدق يجعله زادا لرحلته

والذكر أعظم ما يختار من سبب
يطهر السر يجلو القلب يمنحه
من المعارف سرا باهر العجب
وينزل الفيض من غيث الغيوب بما
يختاره الله من كشف بلا ريب
والله نسأله عونا لطالبنا
على أوامره فى سائر الرتب

هذه هى الآداب التى وضعها محمد البكرى لأتباعه ومريديه . المحافظة على أحكام الدين وفرائضه، وترك اللهو واللعب، والإعراض عن الشهوات. ثم القيام فى منتصف الليل للعبادة والذكر والتواجد، والاتجاه إلى الله بكل ما يملك الإنسان من جوارح مع إظهار الذل والمسكنة، ثم الإكثار من الصوم الذى يطهر النفس، والتزام الصدق. وبهذه الأمور تستقيم حال المريد . وقد صاغ كل هذا فى شعر سلس عذب.

ويدخل فى باب التصوف كذلك ما نظمه فى التوسل والاستغاثة بالله وبالرسول ، وما نظمه فى المديح النبوى. فمن قوله متوسلا ومستغيثا:

إلهى إلهى أغث سائلا
فقيرا ذليلا كثير التعب
إلهى ضاقت عليه الأمور
ففرج بجودك كل الكرب
إلهى هذا مقام الحقير
وعندك ما يبتغى من طلب
إلهى حاشا ترد الكسير
وفيما لديك تناهى الرغب

فهذه أدعية وضعها للأتباع والمريدين لينشدوها فى أوقات تعبدهم. فهى أدعية شعرية تؤدى وظائف الأدعية النثرية التى كان يضعها أقطاب المتصوفة.

ونظم بعض القصائد التى تؤدى وظائف الأحزاب والأوراد. من ذلك قوله:

أعوذ بالله الصمد
من كل هم ونكد
أعوذ بالله الأحد
من كل ضيق وشرد
.... إلخ

وله مدائح نبوية قصيرة لم يتعرض فيها لذكر شىء من المعجزات ، وإنما هى تصوير للحقيقة المحمدية التى أودع الله فيها أسراره. ثم يتخلص من ذلك إلى ذكر ذنوبه الكثيرة، ويظهر الندم والتوبة، ويعرب عن أمله فى شفاعة الرسول. ويختمها بالتوسل والدعاء.

وله جملة قصائد فى مدح أحمد البدوى تظهر فيها آراء الصوفية فى الأولياء فمن ذلك قوله:

لله جل جلاله بالحق أشهد
أن الإله جماله للقوم أشهد
وأنالهم رتب السيادة والعلا
لا سيما بدويهم ذو المجد أحمد
سر الحقيقة والخليقة والذى
مصباحه من نور خالقه توقد
من ذاته القدس العلى ومن له الـ
ـكشف الجلى ومن له التصريف يسند
هذا الكمى فلا يطاق نزاله
يوم الوغى، هذا المثقف والمهند

فالبدوى كما صوره البكرى تمتع بوحدة الشهود، وفنى مع الذات الإلهية فنال أسنى المراتب. وهو سر الله، أودع فيه العلم الباطن، وأجرى على

يديه الكرامات وخوارق العادات، والبدوى بطل مقدام وشجاع تضرب به الأمثال. ثم استطرد فذكر بعض الكرامات التى تنسب للبدوى.

وكان محمد البكرى شافعى المذهب. وله بضعة مقطوعات فى مدح الإمام الشافعى وتحبيذ زيارة ضريحه على سبيل التبرك. ولكن شعره فى الشافعى لا يكاد يذكر إلى جانب ما نظمه فى أحمد البدوى. ولعل السر فى ذلك أن الشافعى لم ترو له كرامات، ولم تنسب إليه الخوارق التى رويت لأحمد البدوى ونسبت إليه. انظر إلى قوله فى مدح الإمام الشافعى:

هو البحر لكن فاض كوثر بره
على البر حتى ما هناك مقايس
هو البدر بل شمس الظهيرة أشرقت
فلم يبق ما بين البرايا حنادس
أبى الله إلا أن يسود ويعتلى
فليس له فى المنقبات مجانس

فهذا من المدح الذى يقال فى أى إنسان. وأين هذا من قوله فى البدوى:

سر الحقيقة والخليقة والذى
مصباحه من نور خالقه توقد

لم يحاول البكرى فى مقطوعاته التى نظمها فى الشافعى أن ينوه بمكانة هذا الإمام كواضع لأحد المذاهب الأربعة، وكمشرع له قيمته وخطره، لأن ذلك يغضب السلطنة العثمانية صاحبة المذهب الحنفى.

* * *

وكان له بعض حساد يطعنون فيه وينالون منه، وينكرون عليه عيشة الترف التى كان يعيشها. وقد شكا من هؤلاء الحساد وتوعدهم بالويل والثبور وعظائم الأمور. فمن ذلك قوله:

يا نفوسا تود يوما ترانى
نازحا عن منزلى ومكانى
مدرجا بعد عزتى وبهائى
وجميع البرود فى أكفانى
إن تموتوا غيظا فموتوا سريعا
حسبى الله فيكمو وكفانى
احسدوا ما استطعتم رشقتكم
نبال الوبال قوس الزمان
هذه لحيتى وضعت عليها
يد موف لها بحق الضمان
عن قريب يدعى بياغارة اللـ
ـه فتغدوا بهلككم شجعانى

ففى هذه الأبيات صور محمد البكرى ما انطوت عليه نفوس حاسديه من حقد ونقمة بلغت بهم أن تمنوا له الموت. ثم قال لهم : افعلوا ما شئتم ، واحسدوا كيفما أردتم فلن يفيدكم هذا، بل ستموتون بغيظكم. ثم أمسك لحيته مهددا متوعدا بحرب يشنها عليهم يكون فيها هلاكهم.

* * *

وله شعر قليل عرض بعلماء عصره، فمن ذلك قوله:

أغفل الناس علوما قدست
أحكمت عزتها أيدى الحكم
يازمانا ضيعوه باطلا
فى رسوم ما بها الحق رسم
خلطوا الحق بهزل منهمو
فلهذا ما ستقاموا فى أمم

يطلبــون العلم للدنيــا فــهل
بعد هذا الوصف فى الأوصاف ذم؟
شــغلهم قــالوا وقلنا ولهم
صبـوة فى «صح» أم فيـه «سلم»

ففى هذه الأبيات ينعى على معاصريه اشتغالهم بالعلوم الدنيوية وإنفاقهم أعمارهم فى استظهار مختلف الآراء فى النحو والفقه وغيرهما. ويعيب عليهم أنهم يطلبون العلم لينتفعوا به فى الدنيا، وينصحهم بترك هذه العلوم التى لا فائدة فيها والإقبال على علوم المتصوفة لأنها هى التى تقربهم من الذات الإلهية.

ولمحمد البكرى مقطوعات قليلة فى أغراض مختلفة ، بعضها فى الألغاز، وبعضها فى الإخوانيات، وبعضها فى وصف الرياض.

* * *

وأما أثر البيئة المصرية فى شعره فيتجلى فى استخدامه لبعض الكلمات والعبارات التى تجرى على ألسنة العامة فى مصر . مثال ذلك قوله:

دنا بحــبك مــتــيم
مــا على من حــد

فكلمة «دنا» مصرية . وكذلك عبارة «ماعلى حد» مصرية وقوله:

مــاالسـبب مــا السـبب
حتى تجنيت وأسيت

فعبارة «ما السبب ما السبب؟» مصرية . ولفظة «أسيت» مما يدور على ألسنة المصريين وتكثر مثل هذه الألفاظ فى موشحاته.

الآن قد فرغنا من دراستنا لمحمد البكرى . وبهذا ننتقل بالمدرسة البكرية إلى القرن الحادى عشر.

توفى محمد البكرى سنة ٩٩٤ وترك أبناءهم:

١ ـ أبو السرور المتوفى سنة ١٠٠٧هـ.
٢ ـ زين العابدين المتوفى سنة ١٠١٣هـ.
٣ ـ أبو المواهب المتوفى سنة ١٠٣٧هـ.

فأبو السرور توفى سنة ١٠٠٧هـ وفيه يقول صاحب خلاصة الأثر «وكان له الذوق الصحيح فى معارف الصوفية والبلاغة الكاملة فى التقرير وكان له اتساع فى الدنيا ومخالطة الحكام، ومداخلة فى أمور كثيرة. ودرس بالخشابية . وكان ينظم الشعر، وشعره لطيف» ولكننا لم نعثر على شيىء مما نظم.

ومن الشعراء البكريين زين العابدين المتوفى سنة ١٠١٣هـ وفيه يقول صاحب خلاصة الأثر «قام مقام أبيه من بعده ، ودرس وأفتى . كان فى مصر مالك أزمة الوجاهة، وسالك رتبة اليراعة والبراعة. وكان أخوه أبو السرور المقدم ذكره من العلماء إلا أنه لم يبلغ درجة زين العابدين فى التصوف والتكلم بلسان المعرفة. وكان عالما بارعا فى العربية والتفسير وعلوم البلاغة. وله شعر لطيف سائغ».

«وبلغ صاحب الترجمة فى آخر أمره من الجلالة ولفوذ الكلمة مبلغا ليس لأحد وراء مطمع حتى خشيه حكام مصر وكانوا يدارونه ويتوقعون رضاه. فلما كان ثالث شهر ربيع الأل سنة ١٠١٣ طلع إلى ابراهيم باشا بعد العصر على عادته. فأحضر السماط ثم القهوة. فلما أكلوا وشربوا خر زين العابدين مغشيا عليه، وحمل إلى بيته فمات. هذا هو المستفيض على ألسنة المؤرخين. وروى بعضهم أن موته كان خنقا أو غيره. وأنه طرح قرب باب قلعة الجبل. واشتهر ذلك فى دمشق فبنى عبد الحق بن محمد الحجازى الدمشقى قوله فى رثائه عليه. وأبياته هى هذه:

لم يهـدمـوا أركـان مـصـر وإنما
هدمـوا بقـتلك قـبـة الإسـلام
وتـناوشـــتك يد الكلاب وطالما
خـضـعت لعزك صولة الضرغام
فـسـقى ثراك سـحـابة قـدسـيـة
تهـمى عليك برحـمـة وسـلام

وزين العـــابدين هو من أوائل البكرية الذين وضعوا شعرا فى القهوة بعد أن كانت محرمة وسمحوا بها فى سهرات العظام وكبار القوم بقصورهم وليس فى المقاهى التى كانت ملعبا للنزاعات والتوجهات المملوكية والسادة الوفائية ، فمن شعره فى ذلك:

إن تشـرب القـوة فى حـانهـا
فـاللطف قـد حف بندمـانهـا
حـان حكى الجنة فى بسطهـا
برقـة العـيش وإخـوانهـا
بمائهـا نغـسل أكـدارنا
ونحـرق الهم بنيـرانهـا
لاهـم يبـــقى ولاغـم إذ
قـابلك السـاقى بفنجـانهـا
يقـول من أبصـر كـانونهـا
أف على الخـمـر وأدنانهـا
شـراب أهل الله فـيـهـا الشـفـا
جـواب من يسـأل عن شـأنهـا

كان المتصوفة فى ذلك الوقت ينظمون الشعر فى الدعاية لشرابب القهوة معارضة لبعض الفقهاء الذين قالوا بتحريمها. وكان البكريون يقدمون فى سهراتهم هذا الشراب لضيوفهم. فأخذ الشعراء والأدباء يتنافسون فى نظم أمثال هذه المقطوعة ويتسابقون فى ابتكار المعانى اللطيفة والصور الجميلة ويبدو أن الصوفية وجدوا فى القهوة شرابا ماديا محسوسا يقابل الخمرة الإلهية التى هى من الأمور المعنوية ولا شك فى أن إفراطهم فى الحديث عن الخمرة الإلهية والساقى والحان قد ترك عندهم فراغا نفسيا هائلا، فرأوا أن يسدوا هذا الفراغ بالإقبال على شرب القهوة فى الطقوس التى تتخذ لشرب الخمر، وقلدوا شعراء الخمر فى وصفهم لها وتغنيهم بماحسنها ومزاياها، وما تتركه فى نفوس شاربيها من إبعاد الهموم والأحزان. كما ذكروا الحان والساقى والندمان، واستعاضوا عن الكأس بالفنجان. أضف إلى ما تقدم إطلاقهم كلمة «القهوة» على هذا الشراب وهى من أسماء الخمر، فكانوا يقولون «قهوة البن» ومعناها خمرة البن. ويتخذونها أحيانا من قشر البن، وأحيانا من لبه وبمرور الزمن أصبحت كلمة «قهوة» تدل على هذا الشراب المكون من الماء المغلى والبن، ونسى المعنى الأصلى للكلمة. ولم يفت زين العابدين أن يحدثنا عن الكانون الذى تصنع عليه القهوة، فيقول إها وهى فوق الكانون تنبعث منها رائحة طيبة تجعل الخمرة بجانبها شيئا محتقرا تعافه النفس.

* * *

وأبو المواهب البكرى المتوفى سنة ١٠٣٧هـ، ذكره صاحب خلاصة الأثر فقال : «كان فى بداية أمره مائلا إلى الخلاعة، وكانت مجالسه مشحونة بأنواع الطرب من المسمعين وصنوف الملاهى» إلا أنه اضطر إلى ترك هذا بعد وفاة أخويه وتصدره لمشيخة السجادة البكرية. وكان بينه وبين نور الدين الحلبى؛ الأديب المؤرخ صاحب السيرة الحلبية؛ مودة أكيدة ، وهو الذى شجعه على تأليف هذه السيرة

«إنسان العيون فى سيرة الأمين المأمون» وقد أشار إلى ذلك فى المقدمة فقال «... ولا زلت فى ذلك أقدم رجلا وأؤخر أخرى ، لكونى لست من أهل هذا الشأن، ولا ممن يسابق فى ميدانه على خيل الرهان، حتى أشار على بذلك وبسلوك تلك المسالك من إشارته واجبة الاتباع، ومخالفة أمره لا تستطاع ، ذو البديهة المطاوعة، والفضائل البارعة ، والفواضل الكثيرة النافعة. من إذا سئل عن أى معضلة أشكلت على ذوى المعرفة والوقوف؛ لا تراه يتوقف ولا يخرج عن صواب ولا يتعسف . وهو الأستاذ الأعظم مولانا أبو عبد الله وأبو المواهب محمد، فخر الإسلام البكرى الصديقى».

ولأبى المواهب ديوان اسمه «ترجمان العوارف» ومعظم شعره فى التصوف والحب الإلهى، والدعاية للتعاليم البكرية. وله مقطوعات فى وصف القهوة والتغزل فيها، وفى الدعوة إلى تعاطى التبغ. فمن ذلك قوله:

ياليوم بولاق وأنسى به
حكاك من شوال يوم الهلال
ياعارضا أوجب للنيل ما
سلسله وهو طليق الجمال
وقهوة تنضح مسكا ولا
بدع ففى الفنجان شكل الغزال
حبابها من فوقها مانع
نفاره فهو شباك اللآلى
تديرها هيفاء ممشوقة
خود تثنت فى برود الدلال
كاد حجى من أقبلت نحوه
يذهب من رنات تلك الحجال
تقول للشمس قد أقبلت
تلثمى ما أنت إلا خيالى

قال الشهاب الخفاجى «وبيت الغزال من السحر الحلال، وهو بيت القصيد» وكان الفنجان يحمل صورة غزال.

تقدم أن أبا المواهب كان فى شبابه يميل إلى اللهو والخلاعة . يخرج مع أصدقائه من الأدباء والشعراء إلى الحدائق والمزارع للتمتع بالهواء الطلق والمناظر الطبيعية الجميلة. وكان حى بولاق فى ذلك الوقت كما كان منذ عصر المماليك من الأمكنة التى تقصد للتريض واللهو. ففى الأبيات السالفة يذكر أبو المواهب يوما من تلك الأيام الطيبة التى قضاها على شاطئ النيل بناحية بولاق. وإذا كان الشعراء فيما مضى ذكروا الخمر فى هذه المناسبات ـ أعنى مناسبات اللهو والرياضة ـ فإن بعض شعراء هذا العصر ذكروا القهوة ووصفوها وهى فى الفناجين تنبعث منها رائحة جميلة يعلوها حباب لطيف . ثم أخذ أبو المواهب يتغزل فى الساقية التى قدمت له ولأصحابه شراب القهوة.

وكان للبكريين حدائق ومزارع يخرجون كثيرا للتريض فيها ولذلك غلب فى بيئتهم هذا النوع من الشعر الذى يصفون فيه أوقات اللهو والسرور، حيث الرياض النضرة ذات الأشجار الباسقة، والجداول الرائقة، والفواكه المختلفة. ولأبى المواهب رسالة بعث بها إلى أحد أصدقائه من الأدباء يدعوه للرياضة معه جاء فيها «إن مدينة بولاق هى مجتمع البحور، ومدار فلك السرور بفلك البحور. طفحت بالنيل لا جزر عن جزره المديد، واستلت سيف النهر لقطع حروف الجروف من أقصى الصعيد» وقد أفسد أسلوبها بما استخدم فيها من ضروب الصناعة اللفظية.

ومن قوله وربما كان فى مدح والده:

أيهـا البكرى يا من فـضله
فـاق كل الناس عـجـمـا وعـرب
لى جـد ياسـيـدى يامـصطفى
يا إمـامـا قـد حـوى كل الرتب
لا رعى الرحـمن من عـاداكـو
فـهـو فى هم وغم ونصب
وعليه الخـزى فى طول الحـيـا
ثم عند الموت يلقى للتـعب
باء بالرفض إليكم مـبـغض
وعليـه من إلهنا الغـضب

فى هذه الأبيات نجد التعاليم البكرية واضحة كل الوضوح. فشيخ السجادة البكرية هو الإمام المصطفى الذى اختاره الله وخصه بكل منقبة وفضيلة. ومن عاداه فهو رافضى استحق غضب الله فى الدنيا والآخرة ولقى الذل والتعب فى حياته وبعد مماته.

ومن قوله ولعلها فى مدح والده أيضا:

ألا أيهـا البكرى إنك مـفـرد
وفـوقك أعـلام المسرة تفـرد
وذكـرك بالمعـروف شـاع بلاخنا
ومـدحك فى الأعناق در منضـد
وكل امرئ عـاداك أو قصد الأذى
عليه من الرحـمن خـزى مـؤبد
ومن صدنى عن مدح ذاتك سيدى
فـذاك أبو جـهل وأنت مـحـمـد

فانظر إلى البيت الأخير وما فيه من قوة. فالمنكر لمدح والده كافر يشبه أبا جهل فى كفره وجحوده. وقد شبه والده بالنبى محمد صلى الله عليه وسلم. وله فى مدح والده أيضا:

لدار مـحـمـد البكرى زوروا
وخلوا عنكمـو ذكـر السـواء
مـحـمـد عـقـد عين الدين حـقـا
فـمن عـاداه فى شكل الهـواء

وقال:

عـصـابة الصـديق قـالوا
مـحـمـد لا يضـاهى
له الخـلافـة حـقـا
رب العـبـاد قـضـاها

وقال:

عـابد الرحـمن أضـحى
قطب مـصـر بحـقـيق
حـاز فـخـرا وعلوا
وهو فـرع لعـتـيق

فمن هذه الأمثلة وغيرها نعلم أن أبا المواهب اتخذ من شعره وسيلة لدعاية الناس إلى الالتفاف حول البيت البكرى، والتفانى فى حب أفراده، والإخلاص لهم، والابتعاد عمن سواهم. والتحذير من معاداة هذا البيت لما فى ذلك من الكفر الذى يؤدى بصاحبه إلى النار.

ومن قوله:

عـبـد الإله البكرى
مـواهبى الأزمـان
سـبط النبى الهـادى
المصطفى العـدنان
صلى عليـه ربى
والآل والإخـوان
مع السـلام الزائد
لـه مـن الـديـان

وله غير هذا كثير نجده منبثا فى ديوانه.

* * *

ومن الشعراء البكريين الذين ظهروا فى القرن الحادى عشر: أحمد بن عبد الرحمن الوارثى المصرى الصديقى الإمام الكبير المفسر المحدث المتوفى سنة ١٠٤٥هـ ذكر فى الخلاصة «وكان من الأدب فى سنامه وكاهله، تحوم الآراء حول موارده فترتوى من مناهله. وله نظم ونثر كما انتظمت الأزهار بعد ما انتثرت عليها درارى الأمطار» فمن نظمه قوله يمدح أحد وزراء مصر:

يا أيها المولى الوزير ومن له
من حللن من الزمان وثاقى
من شاكر عنى يديك فإننى
من عظم ما أوليت ضاق نطاقى
من تخف على يديك وإنما
ثقلت مواهبها على الأعناق

وقال:

وكم لله من نعم
يعم الكون ما طرها
تذكرنا أوائلها
بما تولى أواخرها

ولكن ديوان شعره لم يصل إلينا، ولا نعرف من نظمه سوى مقطعات قليلة وردت فى خلاصة الأثر.

وأحمد البكرى المتوفى ١٠٤٨هـ ذكر فى الخلاصة وهو ابن زين العابدين «كانت له اليد الطولى فى تفسير القرآن، وإليه النهاية فى علوم الطريق ومزيد الإتقان، مع كرم يخجل المزن الهاطل، وشيم يتحلى بها جيد الزمان العاطل. وجاه عريض وتمكين، ومكان عند الناس مكين. يتسلمون أركانه كما تستلم أركان البيت العتيق. ومن مؤلفاته كتاب جعله على أسلوب «لوعة الشاكى ودمعة الباكى» سماه «روضة المشتاق وبهجة العشاق» وله شعر يدل على علو محله، وقصده الشعراء من كل ناحية ومدحوه».

ومن هؤلاء الشعراء فتح الله النحاس المتوفى سنة ١٠٥٢ هـ حيث يقول:

يابنى الصديق لى
فى حبكم شأن عجيب
كل يوم منه فى لحمى
وفى عظمى دبيب
حبكم آل أبى بكـ
ـر به تمحى الذنوب
حبكم دينى ومن
يبغضكمو طاغ مريب
غضب الله عليه
فهو بالحق كذوب
لكمو الرفعة والسـ
ـطوة والحال المهيب
ذكركم عند ملوك الأر
ض تعويذ وطيب
كل عصر حضرة القد
س لها منكم خطيب
ابن زين العابد
ين السيد البر الوهوب
ابن من يصدع بالـ
ـحق ويعفو ويثيب
ابن من كان به الغو
ث مع الغيث يصوب
شاهد الحضرة واخـ
ـتص وناجته الغيوب
واستمر الفيض للـ
ـأستاذ والفتح القريب
بلبل الحق لسان الـ
ـغيب هطال سكوب

والتعاليم البكرية واضحة فى هذه القصيدة كل الوضوح. فالشاعر يقول إنه يحب آل أبى بكر حبا امتزج بلحمه ودمه. ويرى أن حبهم سبب لغفران الذنوب، ودينه الذى يدين به. ومبغضهم كافر حق عليه غضب الله. ويقول إن الملوك يتعوذون بذكرهم، أى تخذون ذكرهم تعاويذ وتمائم يتقون بها الشرور والمصائب. وإن الله يصطفى منهم فى كل عصر إماما بحيث لا يخلو عصر من وجود صديق بكرى. ثم أشاد بمناقب أحمد البكرى صديق زمانه الذى ورث الصديقية عن أبائه.

وقال:

وأنت ابن صديق خير النبيين
خير الأواخر خير الأوال
ألست ابن من فضله قد أتى
على ألسن الوحى من ذى الجلال؟
أيخفى سناك وأنت الشها
ب على الرافضية أهل الضلال؟
فمن ذا يساميك أو من يدا
نيك أو من يقاومك يوم النضال؟
لك الحال والقال فى نحر شانيك
من ذا مواض ومن ذا عوال
فياويل أعداك إن جلت أو قلـ
ـت الله أكبر يوم النزال

فالنحاس يقول إن أحمد البكرى منحدر من ذرية أبى بكر صديق النبى محمد صلى الله عليه وسلم، أفضل الأولين والآخرين. وأن القرآن قد شهد بفضل أبى بكر. ثم عجب من الرافضة أهل الضلال الذين ينكرون مكانة البكريين ويعادون السلطنة العثمانية. ويجب أن نلاحظ أن الشاعر لم يذكر «الرافضة أهل الضلال» عبثا، وإنما جاء تعرضه بهذه الطائفة لوجود قوم يتعصبون لآل على ويرون أنهم أحق بالتقديم من البكريين، وينكرون التعاليم البكرية. والأبيات التالية تعريض شديد بهؤلاء الخصوم، وإشادة بمناقب الممدوح وقوة بأسه وعظيم فتكه بأعدائه. وقال:

أبى الله إلا أن يكون لك البقا
وشانيك إلا أن يكون له الرغم
وعلمك إلا أن يكون مجسدا
فأنت لسان العلم ما نطق العلم
وما الويل كل الويل إلا لحاسد
عرانين مجد كلها فى العلا شم
ذوى صاحب الغار الذى أنت منهمو
ذوى الصدق إن قالوا، ذوى العزم إن هموا
عصابة ترب المصطفى أنجم الهدى
عليكم سلام الله ما نجم النجم
دعوا خصمكم يكفيه فى يوم بعثه
فإن إله العالمين له خصم

فى هذه الأبيات تعريض بخصوم الممدوح الذين كفروا بالله بسبب عدم إيمانهم بالتعاليم البكرية التى تجعل حب آل أبى بكر أساسا لصحة إسلام المسلم. وحسب هؤلاء المنكرين أن الله سيكون خصما لهم يوم القيامة، وأن مصيرهم سيكون ى نار جهنم. وأشاد بفضائل البكريين نجوم الهدى وأئمة الدين.

* * *

أما ديوان أحمد البكرى فلم يصل إلينا، وإنما وصلت إلينا بعض مقطوعات من شعره، نذكر منها على سبيل المثال قوله يمدح السلطان مرادا

آل عثمان لهم

دولة إلى المعـــــاد
عــــمــــز الله بهم
كل أقطار البــــلاد
وحـــبـــاهم سطوة
دائمـــا بين العـبـــاد
ومـــحـــا الله بهم
كـل أربـاب الـعـنـاد
كم أزالوا ضـيـغـمـا
عن سبيل الحق حـاد
وأبادوا عــسكر الرف
ـض عن حسن اعتقاد
خـلـف عـن سـلـف
سلكوا طرق الرشـاد
مــا تولى مـاجـد
منهــمـو إلا وسـاد

نظم أحمد البكرى هذه القصيدة عقب انتصار السلطان مراد على دولة إيران الشيعية. وكان من الطبيعى أن يطرب الشاعر البكرى لهذا الانتصار الذى قضى على الرافضة . ونوه بعقيدة أهل السنة التى يدين بها العثمانيون.

وربمـا كـانت هنـاك دوافع نفسـيـة هيـأت الشاعر لنظـم هـذه القصيدة وغيرها مما عسى أن يكون قد نظمـه فى هـذا المقام. فـقـد مر بنا فى مـدائح النحـاس له تعـريض بخـصـومـه من الرافضـة أهـل الضـلال. فأراد الشاعـر أن يـروى غليله من هـؤلاء الخصوم ، فمدح السلطان مرادا، وأظهـر الشمـاتة بهـزيمة الرافـضـة. ولن يستطيع خـصـومـه بالطبـع أن يـردوا عليـه فى تلك المناسبة.

ومن شعره:

أحن إذا جن الظلام تشـــوقـــا
إلى زمن بالـقـــرب زاد تألقـــا
وأقطع ليلى ســاهرا مــتــفكرا
لعل زمـان الأنس يسعف باللقـا

وقد أولع بنظم الألغاز، وكـان له فـيـهـا البـاع الطويل، فمن ذلك قوله:

غــــــزالة فى بـردها رافـلـة
تقـتـنص الأسـد من القــافلة
فى حــرم الأمن وقــد خلتـهـا
قــائمــة بالفــرض وبالنافلة
قلت لهـــا رقى فــقــالت لمن
كــأنهـــا عن مطلبى غــافلة
ثم انثنت تلغــز لى باســمــهـا
لغـــزا به أفكارنا كـــافلة
مــاسم خـمـاسى وتصـحـيـفـه
شــبـــه بدور لم تكن آفلة
فى سنة المختـــار خـيــر الورى
بيـــانه وهى لـه شـــاملة
فى سنة نبــه مــســتــيــقظا
وإن تشـــا فى سنة كــاملة

ومحـمـد زين العـابدين البكرى المتوفى سنة ١٠٨٧هـ وفيه يقول صاحب خلاصة الأثر «كان فصيح العبارة، طلق اللسان، كثير الفوائد ، جم النوادر وكـانت الولاية ظاهرة عليه مع الدين المتين، والعقل الكامل، والتظاهر بالنعمة فى الملبس والمأكل والخدمة . وكـان من أحسن الناس خلقا وخلقا، مبجلا عند الكبراء والوزراء، ذاجاه عريض، معتقدا عند عامة الناس وخاصتهم ، مسموع الكلمة ، مقبول الشفاعة، يرجع إليه فى مشكلات الأمور.

اشتغل بطلب العلوم وأتقنها، وبرع في كثير من الفنون سيما علم التفسير والحديث. وكان له في علوم القوم وأصول التصوف قدم راسخ. وأقبل على التدريس إلى أن صار رئيس البيت البكرى. فكان يدرس على عادة أسلافه في الجامع الأزهر في الليالي المشهورة كليلة المولد والمعراج والنصف من شعبان. ثم لما كبر ترك ذلك كله واستقل بالإفادة في بيتهم المعمور».

وقد نزل في ضيافته كثيرون من الأدباء والعلماء الوافدين على مصر، نذكر منهم المحبى والد صاحب خلاصة الأثر، وقد ألف كتابا عن رحلته إلى مصر وكان المحبى متعصبا للبكريين فكتب عن محمد زين العابدين فصلا جاء فيه «فرع غصن الدوحة البكرية ، وفنن الشجرة الطاهرة الصديقية التي لم تزل من البركة والسمو في النماء، أصلها ثابت وفرعها في السماء. رونق الليالي والأيام، وتاج رأس العلماء الأعلام. بهجة الجميع ورواء حسنها البديع. من أضحت له في العلوم الحقيقية الرتبة الشامخة، وفي المعارف الإلهية القدم الراسخة. ولو لم يكن له من عموم الشرف إلا خصوص هذه النسبة لكفاه ذلك في الفخر وعلو الرتبة.

وناهيك فخرا بأنه من ذرية من اختاره الرسول للصحبة والمصاهرة، واصطفاه للخلافة على ملته وشريعته الطاهرة. فيحق لأهل السنة والجماعة أن يطوفوا ويسعوا إلى هذا البيت في كل وقت وساعة»

كما ذكره ابراهيم بن عبد الرحمن الخيارى المدنى في رحلته إلى مصر بمثل ما تقدم.

وقد ترك محمد زين العابدين ديوانا اشتمل ـ كما يقول صاحب خلاصة الأثر على نفائس القصائد والموشحات، والمقاطيع والألغاز. ولكن ديوانه لم يصل إلينا ، بل وصلت إلينا مجموعة من شعره في كتاب ألفه أحد أتباعه؛ المسمى بدر الدين؛ وهو كتاب «المجاز في رحلة محمد زين العابدين إلى الحجاز» فمن هذه المجموعة قصائد في التصوف والحب الإلهي . ومنها قصائد في الدعاية لآل أبي بكر . مثال ذلك قوله:

ونحن حماة الحى والحال شاهد
بمشهدنا الأعلى عن الحق بالحق
إذا جردت أسيافنا بمجالها
يشب لظاها في دجى النقع كالبرق
وأسهمنا قتالة فهى لا تذر
عدوا يعادينا بجهل ولا تبقى
عتيق العتيق الجد أفضل صاحب
خليفة طه المصطفى أشرف الخلق
فسلم لنا تسلم ولاتك منكرا
فيوقعك الإنكار في المحو والحرق
وإن غرك الشيطان يوما فلا تقف
بموقفنا نرميك في أضيق الطرق
نصحتك فاسمع إن أردت نصيحة
ودع عنك طيش النفس والكبر بالحمق
وخالف هوى النفس الذميمة واتبع
هوانا ولا تخش هوانا مع الصدق
وكن عبد الحق مخلصا في ودادنا
تنال الذى تهوى وتظفر بالعتق

فالأبيات الأولى في الحماسة وتهديد الخصم بالقتل والإفناء. ثم تحدث في بقية القصيدة عن جده عتيق، وما خصت به ذريته، ووجوب الانقياد لآل الصديق، والإيمان بالتعاليم البكرية التي تدعو إلى حب البكريين، والالتفاف حولهم، وعدم التصدى لهم بالخصومة التي تؤدى بصاحبها إلى نار جهنم .

وهكذا اتخذ شعره وسيلة للدعاية للبيت البكرى كما فعل غيره من الدعاة والصديقيين. وله قصائد فى الشكوى من أهل العناد والضلال مثال ذلك قوله:

ضلت عقول أهل العناد
عن سبل أهل مودتك
سلكوا طريقا فى الفساد
تبعدهمو عن حضرتك
ركبوا جواد غرورهم
وتطاولوا بفجورهم
وتعصبوا فى زورهم
وبغوا على أهل الرشاد
الصادقين بخدمتك
كل يقول أنا أنا
بالجاه قد نلت المنى
وأظنهم نالوا العنا
بالزيغ عن طرق الفساد
ووقوعهم فى شدتك
فأميرهم ومشيرهم
وكبيرهم وصغيرهم
وجليلهم وحقيرهم
ظل وللظل النفاد
ولك البقاء بقدرتك

..... إلخ

وقد بقيت المدرسة البكرية حاملة لواء للبكريين على النمط المتقدم حتى العصر الحديث. فهذا محمد البكرى الذى عين شيخا للسجادة البكرية عام ١٢٧٧هـ كان قبلة أنظار الأدباء والشعراء. وقد مدحه شهاب الدين المصرى بقصيدة جاء فيها:

وإذا خفت صولة الدهر فاقصد
آل صديق أحمد المختار
هم مقر الأمان مجلى الأمانى
مظهر الخير موضع الأسرار
حيهم منزل الرضا وحماهم
حيث تمحى كبائر الأوزار
هم نجوم الهدى ولا سيما من
لاح فيهم كالبدر بين الدرارى
وهو شيخ الشيوخ مولى الموالى
صفوة الصفو خيرة الأخيار

وفى سنة ١٨٩٢ م تولى مشيخة السجادة السيد توفيق البكرى. وقد أقيمت بهذه المناسبة حفلة رسمية فى قصر عابدين حضرها جم غفير من علماء الأزهر ورجال الطرق الصوفية. وبعد أن شرب الحاضرون القهوة نهض الخديو عباس وقلد الشيخ تاج الشرف. ثم نزل السيد توفيق ومعه مشايخ الطرق الصوفية وكبار العلماء وسار فى موكب صخم حتى وصل إلى قصره بالخرنفش. و هنك أقبل عليه الشعراء مهنئين مادحين. ومن هؤلاء الشيخ حمزة فتح الله الذى يقول من قصيدة طويلة:

إنا نهنى المكرمات وأهلها
بحليفها من بعد حسن عزاء
توفيقها البكرى فرع أرومة الصد
يق زهرة دوحة الزهراء
العالم النحرير والعلم
أحيا رسوم المجد والعلياء

وفى أول مارس سنة ١٩٠٣ صدر أمر خديوى بتعيينه نقيبا للأشراف، فمدحه بعض الشعراء، منهم أحمد نسيم الذى يقول:

بشراك توفيق أنب اليوم راعيها

فهل نهنيك نظما أم نهنيها؟

خذ النقابة والعلياء تحملها

إلى رحابك والرحمن يحميها

غابت زمانا وبانت بعد أن حجبت

كأنها الشمس تمثيلا وتشبيها

فانهض بها ياابن آل البيت ماطلعت

شمس الضحى نهضة لله تبغيها

حتى يقول أبو بكر لصاحبه

بشراك عباس أعطى القوس باريها

.... إلخ

نبذة عن شعر آل البيت والسادة الوفائية العلوية

مع اشتداد قوة النفوذ المملوكي في مصر في ظل الاحتلال العثماني قام جماعة من الشعراء بدعم هذ النفوذ وأخذ شعرهم شكل مدح آل البيت ، ودعم الطرق الصوفية والاحتفاء بالأولياء (من آل البيت) مما جعل هذه الطرق تكتسب ملمحا شعبيا مناهضا للسلطة العثمانية السنية ووفقت بذلك في وضع منافس للنزعة البكرية (السادة البكرية). وأول شاعر نصادفه من مادحوا آل البيت هو بهاء الدين العاملي الذي وفد إلى مصر سنة ٩٩٢ وأقام بها مدة من الزمن، وألف بها كتابه «الكشكول» وفيه قصيدة من نظمه تحت عنوان «وسيلة الفوز والأمان في مدح صاحب الزمان» وهي:

خليفة رب العالمين فظله

على ساكن الغبراء من كل ديار

هو العروة الوثقى الذى من بذيله

تمسك لا يخشى عظائم أوزار

إمام هدى لاذ الزمان بظله

وألقى عليه الدهر مقود خوار

علوم الورى في جنب أبحر علمه

كغرفة كف أو كغمسة منقار

إمام الورى طود النهى منبع الهدى

وصاحب سر الله في هذه الدار

به العالم السفلي يسمو ويعتلي

على العالم العلوى من دون إنكار

ومنه العقول العشر تبغي كمالها

وليس عليها في التعلم من عار

أيا حجة الله الذى ليس جاريا

بغير الذى ترضاه سابق أقدار

ويا من مقاليد الزمان بكفه

ناهيك من مجد به خصه البارى

أغث حوزة الإيمان واعمر ربوعه

فلم يبق منها غير دارس آثار

وأنقذ كتاب الله من يد عصبة

عصوا و تمادوا في عتو وإصرار

يحيدون عن آياته لرواية

رواها أبو شعيون عن كعب الأحبار

وفى الدين قد قاسوا وعاثوا وخبطوا

بآرائه تخبيط عشواء معثار

وأنعش قلوبا في انتظارك قرحت

وأضجرها الأعداء أية إضجار

وخلص عباد الله من كل غاشم

وطهر بلاد الله من كل كفار

وعجل فداك العالمون بأسرهم

وبادر على اسم الله من غير إنظار

تجد من جنود الله خير كتائب

وأكرم أعوان وأشرف أنصار

بهم من بنى همدان أخلص فتية
يخوضون أغمار الوغى غير فكار
بكل شديد البأس عبل شمردل
إلى الحتف مقدام على الهول مصبار
تحاذره الأبطال فى كل موقف
وترهبه الفرسان فى كل مضمار
أيا صفوة الرحمن دونك مدحة
كدر عقود فى ترائب أبكار

وقد أثبتنا هذه القصيدة كلها نظرا لأهميتها. فهى تسجل الآراء الشيعية التى حاول العاملى نشرها فى مصر فى ذلك الوقت. فصاحب الزمان هو خليفة الله الذى مد ظله على العالم. وهو العروة الوثقى، ومن تمسك به نجا. وهو الإمام الهادى الذى حاز جميع المعارف والعلوم. وهو منبع الهدى، وصاحب الأسرار الإلهية فى الدنيا. ومنه تستمد العقول العشر كمالها وهو حجة الله الذى تجرى الأقدار بإرادته، ويمضى الزمان بمشيئته. ثم أخذ الشاعر يخاطب صاحب الزمان طالبا منه أن ينقذ الإيمان ويعيد إليه رونقه وبهاءه وجدته، لأن ربوعه قد تهدمت وزالت، ولم يبق منها سوى أطلال بالية. والقرآن أصبح فى يد قوم عتاة عصاة، أهملوا ما جاء فيه واتبعوا ما روى عن كعب الاحبار وغيره. ثم إنهم اتخذوا القياس فى أحكام الدين، واجتهدوا بآرائهم، وضلوا سواء السبيل.

وبعد أن وصف الشاعر ما وصل إليه العالم من فساد وانحلال، التمس من صاحب الزمان أن يظهر فإن القلوب متعطشة لرؤيته. وأن ينقذ العالم من الظلم والطغيان، ويطهر البلاد من الكفار يقصد بذلك من هم ليسوا بأحباب آل بيت رسول الله.. وسيجد فى انتظاره جيشا من جنود الله من بنى همدان المعروفين بالإخلاص له، والمشهورين بالشجاعة والإقدام. وخصص بنى همدان لأن المتعارف عند فريق من الشيعة ومنهم الإثنا عشرية أن الإمام المنتظر سيظهر فى بنى همدان. ومن العجيب أن رجال الد ين فى مصر لم ينكروا على بهاء الد ين هذه الآراء مع ما فيها من تعريض بأهل السنة، وما جروا عليه فى الأحكام من القياس والاجتهاد ومع قوله إن كتاب الله أصبح فى يد عصبة من الكفار.

وله قصيدة أخرى ردد فيها المعانى السابقة نذكر منها:

صاحب العصر الإمام المنتظر
من بما يأباه لا يجرى القدر
حجة الله على كل البشر
خير أهل الأرض فى كل الخصال
من إليه الكون قد ألقى القياد
مجريا أحكامه فيما أراد
إن تزل عن طوعه السبع الشداد
خر منها كل سامى السمت عال
شمس أوج المجد مصباح الظلام
صفوة الرحمن من بين الأنام
الإمام ابن الإمام ابن الإمام
قطب أفلاك المعالى والكمال
يا أمين الله يا شمس الهدى
يا إمام الخلق يا بحر الندى
عجلن عجل فقد طال المدى
واضمحل الدين واستولى الضلال

ثم إنه خصص فى كتابه «الكشكول» فصلا طويلا عن السيدة فاطمة، ذكر فيه كثيرا من مناقبها

وفضائلها. وأورد أخبارا متفرقة عن الحسين ابن على وبعض كبار آل البيت.

ويجب أن نذكر أن عواطف المصريين كانت ولا تزال مع أهل البيت بسبب ارتباط ذلك بالمعتقدات المصرية حول استشهاد وزير .

* * *

وفى هذا العصر جددت أضرحة آل البيت فى مصر، وانهمك الناس فى إقامة الموالد لأصحاب هذه الأضرحة. وأخذ الشعراء ينظمون القصائد فى مدح آل البيت، وبخاصة الحسين. مثال ذلك قول عبد الله الشبراوى المتوفى سنة ١١٧٢هـ:

آل طـه ومـن يـقـل آل طـه
مـسـتـجـيـرا بجـاهكم لا يرد
حـبكم مـذهبى وعـقـد يقـينى
ليس لى مـذهب سـواه وعـقـد
بيـتـكم مـهـبـط الوحـ
ـى ومنكم نور النبـوة يبـدو
ولكم فى العـلا مـقـام رفـيع
مـالكم فـيـه آل ياسين ند
يابن بنت الرسـول من ذا يضـا
هيك افتـخارا وأنت للفخر عـقد
كل من رام حـصـر فـضلك غـرُّ
فـضل آل النبى ليس يعـد

فـخـصـائص الشـعـر العلوى ظاهرة فى هذه الأبيات . فالشاعر يذكر آل طه، ويقول إن حبهم دينه الذى يدين به، وقـد العـقـد إيمانه على هذا الحب. وبيتهم نزلت فيه الرسالة والوحى. ويذكر نور النبوة وآل ياسين،و ابن بنت رسول الله. وكل هذا من مميزات الشعر العلوى.

وله من قصيدة أخرى:

لست أخـشى ريب الزمـان وأنتم
عـمدتى فى الخطوب يا آل أحـمـد
من يضـاهى فـخـاركم آل طه
وعليكم سـرادق العـز ممتـد
كل فـضل لغـيـركم فـإليكم
يابنى الطهـر بالأصـالة يسند
أى بيت كـبـيـتكم آل طه
طهـر الله سـاكنيـه ومـجـد
ولكم فى الكتـاب ذكـر جـميل
يهـتـدى منه كل قـارى ويسـعـد
وعليكم أثنى الكتـاب وهل بعـ
ـد ثناء الكتـاب مـجـد وسـؤدد

فى هذه الأبيات إشارة إلى قوله تعالى «إنما يريد الله ليذهب عنكم الرجس أهل البيت ويطهـركم تطهيرا» ـ الأحزاب أية ٣٣ ـ والشيعة يذكرون أن النبى صلى الله عليـه وسلم دعـا عليـا والحسن والحسين وفاطم، وألقى عليهم عباءته وكان هو معهم تحت العباءة، وحينئذ نزلت الآية المتقدمة.

وقال :

لئن كان رفضا حبكم يا آل أحمد
فقد لذ لى فى حبكم ذلك الرفض
عـرضت عليكم آل ياسين قـصتى
ويحسن من مثلى على مثلكم عرض
وعـاداتكم إكـرام من زار حـيكم
وحاشا لتلك العادة الخلف والنقض
على حبكم أفنيت عمرى وهل لمن
بحـبكو بعـد من الله أو بغض

وها أنا يا آل النبى وحق من
تذل لعلياه السموات والأرض
محب أتاكم آل طه يزوركم
وقد صح فى التاريخ حبكمو فرض

والبيت الأول مأخوذ من البيت المشهور المنسوب للإمام الشافعى وهو:

إن كان رفضا حب آل محمد
فليشهد الثقلان أنى رافضى

ولن نجد عند الشبراوى فى مدائحه لآل البيت أكثر من المعانى المتقدمة. فلنتركه لننظر فى شعر الإدكاوى المتوفى سنة ١١٨٢ هـ قال يمدح فاطمة الزهراء :

أما هى من طه المكرم بضعة
على حبها من مات كانت له البشرى
أما هى من قد حرم الله جسمها
على النار تحقيقا وأحبابها جهرا
أما هى من قد أحصنت فرجها فلا
تدانى لها نار وأولادها طرا
وخير نساء العالمين بلا مرا
ومن شك فى هذا عليه بالاستقرا
وكان رسول الله يقبضه الذى
يكون لها قبضا ويبسط بالأخرى
وقال لها صلى عليه إلهه
لأجل رضاك الله يرضى فيا بشرى
وفى الحشر يأتى المصطفى وهو را
كب البراق وتأتى خلفه بنته الغرا
على الناقة القصوى فتدخل تلوه
إلى جنة المأوى التى حسنت ذكرا
وفى خبر يغدو المنادى مناديا
لدى ذلك الجمع الذى عز أن يدرى
ألا نكسوا روسا وغضوا نواظرا
لئلا يروا شخصا لمن ظهرت مرا
وفى مدحها جاءت أحاديث جمة
تفوت على من رام تعدادها حصرا
وخصت من المولى بأشيا تميزت
بها نساء العالمين حلت نشرا
فلا حيض يأتيها ولا فى نفاسها
يرى دمها من أجل ذا لقبت زهرا
ولا جوع تشكو قط من أجل دعوة
دعاها لها طه ولو مكثت شهرا
وسر أبيها قد غدت كنية لها
فياحسنها من كنية قد زكت نشرا
وكان لها دوما يقوم إذا أتت
إليه ويحبوها بمجلسه جبرا
وما بين عينيها يقبل مثلما
يمصى لسانا قد حلا وزكا طهرا
وقد ضمها تحت الكسا وعليها
ونجليهما ضما به زادهم فخرا
وقال إله العرش إنى أحبهم
فطهرهم من كل ما يوجب الإصرا
وأحبب إلهى كل من قد أحبهم
ونوله ما يرجوه وارفع له ذكرا
لقد ولدتها من تسامت خديجة
حليلة خير المرسلين علا قدرا
فقد كرمت أما كما شرفت أبا
وقد أنجبت شبلين سادا الملا الزهرا
هما كوكبا فضل وبدرا سيادة
وريحانة المختار من فاز بالإسرا
شهيدان مسعودان بران سيدا
شباب جنان من عبيد ومن أحرا

مـصـابهـمـا لم ينسـه خـاطرى ومـا
أتاه العـدا من سـوء بغى غـدا أمـرا
مـصابهـمـا أبكا العيـون وأوقع النـ
ـفـوس بكرب مثلمـا للحـشـا فـرا
ألا لعن الرحـمن من قـد سـعى بما
أباح دمـــاء بالنفـــائس لا تشــرى
همـو آل بيت الطهر طه الذين قـد
نفى الرجس عنهم ربنا فإقرا الذكـرا
وفى سورة الشورى العجائب فاتلها
تنل مـا تشـا بل تغنم الفـوز والأجـرا
بهـا وبنجليـهـا الكريمين والرضـا
على والمخـتـار ذى الآية الكبـرى
توسلت يارب العبـاد بهم عـسى
أنال بحـبـيـهم مـرادى والنصـرا

فإذا تأملنا فى هذه القصيدة وجدنا الإدكاوى قد حشد فيها كثيرا من الأحاديث التى رويت فى السيدة فاطمة. وبالرجوع إلى صحيحى البخارى ومسلم وجدت حديثين هما «فاطمة سيدة نساء المؤمنين، أو سيدة نساء هذه الأمة» فى رواية مسلم. وفى رواية البخارى «فاطمة سيدة نساء أهل الجنة» وحديث «إنما فاطمة بضعة منى يؤذينى ما آذاها» فى رواية مسلم.

وعند البخارى «فاطمة بضعة منى فمن أغضبها أغضبنى» وفى رواية عنده «ويؤذينى ما آذاها».

وقول الإدكاوى «وسر أبيها كان يودعه لها» فيه إشارة إلى حديث ورد فى البخارى ومسلم ومعناه أن النبى صلى الله عليه وسلم دعا فاطمة وأخبرها أن سينتقل إلى الرفيق الأعلى فبكت. ثم أخبرها أنها ستكون أول من يلحق به فضحكت . وقد كتمت هذا الخبر فلم تبح به إلا بعد وفاة الرسول.

أما الأخبار التى أوردها الشاعر عن فاطمة وهى أنها لا تحيض، ولا يخرج منها دم عقب الولادة. وأن النبى دعا لها بدعاء يقيها شر الجوع، وأنها تركب ناقة يوم القيامة وتدخل بها إلى الجنة على أثر الرسول، وأن مناديا ينادى الناس ليغضوا أبصارهم حتى تمر بناقتها، إلى غير ذلك ، فإن هذه الأخبار لم ترد فى الكتب الصحيحة، ومع ذلك فالمسلمون أجمعون يشتركون فى حب فاطمة، ويرتاحون إلى كل ما يقال ويروى من أخبارها. ولا عجب فى ذلك فهى بنت رسول الله صلى الله عليه وسلم.

وفى قول الإدكاوى «وفى سورة الشورى العجائب فاتلها» إشارة إلى قوله تعالى «قل لا أسألكم عليه أجرا إلا المودة فى القربى» فإن الشيعة فسروا القربى بأنها آل على، وبذلك وجهوا الآية توجيها يخدم أغراضهم، فى حين أن خصومهم قالوا إن قرابة النبى لا تقتصر على آل على، بل تشمل كل من يمت إلى النبى بصلة القرابة من ناحية الآباء والأمهات، والمصاهرة والنسب. ومن هنا نرى أن شعراء العلويين فى مصر اتفقوا مع الشيعة فى تفسير هذه الآية.

وفى قوله «وقد ضمها تحت الكسا وعليها» إشارة إلى القصة التى رويت حول نزول آية التطهير من الرجس. وقد رجعت إلى الطبرى وهو المشهور بالتفسير بالأثر فوجدت كل ما أورده من أقوال فى هذا الصدد يتفق ما معا ذهب إليه الشيعة ، اللهم إلا رواية واحدة تنص على أن الآية نزلت فى نساء النبى. وخصوم الشيعة يأخذون بهذه الرواية. وأما شعراء العلويين فى مصر فإنهم وقفوا إلى جانب الشيعة، ولم تخل قصيدة من قصائدهم من الإشارة إليها.

وقد بكى الإدكاوى على ما أصاب الحسن

والحسين، و نوه بشأنهما ، ولعن معاوية وابنه يزيد الذين قتلا هذين الشهيدين. والشيعة يذكرون أن معاوية دس السم للحسن، وقد تابعهم الإدكاوى وغيره من الشعراء العلويين بمصر فى هذا الزعم. أما غير الشيعة فإنهم برأوا معاوية من هذه التهمة، ونظروا إليه على أنه كان أحد الصحابة. وعندى أن الذى يولى ابنه يزيد إمارة المؤمنين مع علمه بفسقه وفجوره لا يبعد عليه أن يسم الحسن.

وختم الإدكاوى قصيدته بالتضرع إلى الله أن يميته على حب آل البيت لأن حبهم من الإيمان، ولا يدخل الجنة إلا من مات على حبهم. كما أن بغضهم كفر يؤدى إلى النار. وقد اشترك جميع الشعراء العلويين فى هذا القول، كما اشتركوا فى التوسل إلى الله بآل البيت، والاستغاثة بهم فى الشدائد والملمات.

* * *

وقد التف شعراء العلويين حول شيوخ السادات الوفائية ، ومدحوهم بقصائد تعيد إلى الأذهان ما كان يقال فى الخلفاء الفاطميين.

ومؤسس بيت السادات الوفائية فى مصر كما يذكر الزبيدى فى رسالته «رفع نقاب الخفا عمن انتمى إلى وفاء الوفا ». هو : محمد النجم الذى يدعى أنه ينحدر من ذرية الإمام على . وقد جاء إلى مصر من شمال أفريقية فى أول القرن الثامن الهجرى ونزل بالاسكندرية وأقام بها مدة من الزمن. ثم انتقل إلى القاهرة وسكن بجزيرة الروضة. وقد قيل فى سبب تلقيبه بوفا أن النيل توقف فى إحدى السنين ، فتوجه العلماء والصلحاء إلى المقياس ودعوا الله لترتفع مياه النيل كالمعتاد، ولكن الله لم يجب دعاءهم . وبقى النيل على حالته من النقص.

وقد أخبر السلطان بوجود «محمد النجم» وصلاحه وتقواه. فأرسل إليه أن يتوجه إلى المقياس ويدعو الله، ففعل. فلم يلبث أن ارتفع الماء وظهر الوفاء، وصار الناس يقولون «وفا، وفا» وخوطب حينئذ بذلك وصار علما عليه.

وليس من المهم أن نقف عند هذه القصة لنحكم عليها من الناحية التاريخية ولكن المفيد هنا أن نلحظ ارتباط وفاء النيل بآل البيت.

واشتهرت ذريته باسم «السادات» وقد توفى محمد وفا سنة ٧٦٥هـ.

ثم انتقلت عائلة السادات من الروضة وسكنت مصر القديمة. وفى القرن الحادى عشر كان لها مساكن بناحيتى الخرنفش وبركة الفيل. وقد ذكرهم عبد الغنى النابلسى الذى جاء إلى مصر سنة ١١٠٥هـ فى كتابه الحقيقة والمجاز فقال «... ثم ركبنا وتوجهنا مع الإخوان إلى جهة بيت السادة الوفائية المشهورين بالمعارف الإلهية والحقائق الربانية. أهل النظم والنثر من التصانيف الفاخرة، والدواوين الزاهرة. وكان منهم البدر الكامل، والسر الشامل الشيخ يوسف ابن متعة البصر والسمع، ونور الفرق والجمع، الشيخ أبى التخصيص الوفائى، رفع لهم الله فى الآفاق رايات المجد، ولازال ذكرهم بالكمالات الإنسانية بين مراتب الغور ونجد».

«فدخلنا إلى دارهم المعمور التى هى بأنواع الهيبة والاحتشام مغمورة فتلقانا الشيخ يوسف المذكور بكمال البشاشة والسرور. وجلسنا عنده حصة من الزمان حتى جىء لنا بماء الورد والبخور، وحصل كمال اللطف والإذعان».

وذكرهم الشهاب الخفاجى المتوفى سنة ١٠٦٩هـ فقال «ومن البيوت العامرة بمصر بيت

السادة الوفائية. سادات السادات، لهم أنفس قدسية قد أفيضت عليها العلوم اللدنية. ما منهم إلا صاحب ديوان نافذ فى سبيل البلاغة بسلطان».

ومن أعلام هذا البيت : عبد الخالق بن وفا. وقد ذكره الجبرتى فى احداث سنة ١١٦١هـ [انظر الجزء الاول من الجبرتى ترجمة رقم ١٩٠].
فقال «قطب زمانه، وفريد أوانه. كان على قد أسلافه وفيه فضيلة وميل للشعر . وامتدحه الشعراء وأجازهم الجوائز السنية. وكان يحب سماع الآلات».

ومما قيل فى مدحه:

دعك عنك حاتم طى وابن زائدة
واترك حديث بنى العباس والخلفا
وانظر بعينيك هل أبصرت من رجل
فى الجود يشبه عبد الخالق بن وفا

توفى سنة ١١٦١هـ وتولى بعده فى خلافتهم : محمد أبو الإشراق بن وفا.

واشتهر منهم أحمد بن إسماعيل أبو الامداد، سبط بنى الوفا. وترجم له الجبرتى (انظر ترجمته رقم ٣١١ فى هذا الجزء) بقوله «الجناب الأمجد، والملاذ الأوحد. علم المجد وناشره، وجالب متاع الفضل وتاجره، تولى نقابة الأشراف سنة ١١٦٨هـ توفى سنة ١١٨٢هـ. وسار فيهم سيرة مرضية .
وقد مدحه عبد الله الإدكاوى بقوله :

قالوا نقابة بمصر أودى كفؤها
وتسربلت بحدادها واستخفت
فأجبت كلا، بل لها الكفء الذى
رتب العلا بفخاره قد حفت
لما دعاها أذعنت واستبشرت
وأتته طائعة ولم تتلفت
وتبرجت فلذاك قلنا أرخوا
أدبا لأحمدها النقابة زفت

ثم تولى مشيخة السجادة الوفائية سنة ١١٧٦ فمدحه الإدكاوى بقوله:

قيل لى هل مدحت آل على
من بهم يكتسى الأديب الشرافه
آل بيت الوفاء من خصصوا بالـ
ـمجد والفخر والتقى والإنافه
قلت ما قدر مدحتى لكرام
بهم تأمن الأنام المخافه
غير أنى لفرعهم أحمد المجـ
ـد سأجلو بمنطقى أوصافه
هو بيت الأفضال شمس المعالى
أوحد الفضل جامع الطافه
منه أضحى دست الخلافة من صد
ر خليا وما دروا إسعافه
قال أعلى الجدود فى الحال هاتوا
نجلنا أحمد الزكى العرافه
قدموه فقلت فى الحال أرخ
جده قد أولاه ركن الخلافه

ولعل أشهر أفراد هذا البيت هو: شمس الد ين محمد أبو الأنوار. وقد ترجم له الجبرتى ترجمة مطولة نلخصها فيما يلى:

«نادرة عصره، ووحيد دهره؛ الشيخ شمس الدين محمد أبو الأنوار، ابن عبد الرحمن المعروف بابن عارفين؛ سبط بنى الوفاء، وخليفة السادات الحنفاء، وشيخ سجادتها، ومحط رحال سيادتها. وشهرته غنية عن مزيد الإفصاح ، ومناقبه أظهر من البيان والإيضاح».

«تولى خلافة بيتهم سنة ١١٨٢».

«ودرس على شيوخ عصره . وكان له اشتغال فى بعض الأحيان بالمطالعة والمذاكرة فى المسائل الدينية والأدبية. ومعاشرة الفضلاء ومجالستهم، والمناقشة معهم فى النكات واقتناء الكتب من كل فن. كل ذلك مع الجد والتحصيل للأسباب الدنيوية، وما يتوصل به إلى كثرة الإيراد بحسن تداخل ، وجميل طريقة مبعدة عما يخل بالمقدار، بحيث يقضى مرامه من العظيم وجميل الفضل له. ويراسل ويكاتب ويشاحح على أدنى شيء ، ويحاسب ولا يدفع لأرباب الأقلام عوائدهم المقررة فى الدفاتر، بل يرون أن أخذها منه من الكبائر. وكذلك دواوين المكوس المبنى على الإجحاف. فكل ما نسب له فيها هو معافى. وكلما طال الأمل زاد المدد، وخصوصا إذا تقلبت الدول وارتفعت السفل كان الأسبق القديم فى أعينهم هو الجليل العظيم. وهم لديه صغار، لا ينظر إليهم بعين الاحتقار. ولما انقرضت بقايا الشيوخ الذين كان يهابهم ويخضع لهم ويتأدب معهم، وكانوا على طرائق الأقدمين فى العفة والانجماع عن كل عمل يخل بتعظيم العلم وأهله، والتباعد عن بنى الدنيا إلا بقدر الضرورة. وخلف بعدهم من هم على خلاف ذلك، وهم أعاظم مدرسى الوقت فأحدقوا به، وأكثروا من التردداد عليه وعلى موائده، وبالغوا فى تعظيمه وتقبيل يده، ومدحوه بالقصائد البليغة طمعا فى صلاته وجوائزه القليلة، وحصول الشهرة لهم، وزوال الخمول، والتعارف بمن يتردد إلى داره من الأمراء والأكابر. وزاد هو أيضا وجها ووجاهة بمجالستهم ، ولا يريهم فضلا بسعيهم إليه، ويزداد كبرا وتيها. وبلغ به أنه لا يقوم لأكثرهم إذا دخل عليه. ومنهم من يدخل بغاية الأدب فيلم ثيابه ويقول عند مشاهدته «يا مولاى ياواحد» فيجيبه هو بقوله «يا مولاى يا دائم، يا على يا حكيم» . فإذا حصل بالقرب منه بنحو ذراعين حبا على ركبتيه ، ومد يمينه لتقبيل يده أو طرف ثوبه. وأما الأدون فلا يقبل إلا طرف ثوبه. وكذلك أتباعه وخدمة الخواص. وإذا كان من أهل الذمة أو كبار المباشرين وقبلوا يده وخاطبهم فى أشغاله وهم قيام وانصرفوا؛ طلب الطست والإبريق وغسل يده بالصابون لإزالة أثر أفواههم. ولا يجيب فى رد التحية إلا بقوله «خير، خير» .

«ولا يقطع غالب أوقاته مع مجالسيه وخاصة مسامريه إلا بانتقاد أهل مصره، وغيبة غالب أهل عصره. وتنبسط نفسه إلى ذلك، وإليه يصغى».

«وفى سنة ١١٩٠ ورد إلى مصر عبد الرازق أفندى رئيس الكتاب ومن أكابر أهل الدولة. فمنحته الدولة بواسطته مائة كيس لإصلاح زاوية أسلافه. وكان معينه فى ذلك الوقت أيضا الشيخ محمد مرتضى الزبيدى».

«ثم أرسل وزيره وكتخداه الشيخ ابراهيم السندوبى إلى دار السلطنة بمكاتبات يلتمس فيها رفع ما على قرية زفتى وغيرها مما فى حوزته من الالتزام من الضرائب التى تدفع إلى الديوان كل سنة. وكان ابراهيم المذكور غاية فى الدهاء والحيل الساسانية، والتضعنات الشيطانية، والتخليطات الوهمية، وتقلبات الملامتية. فتم مرامه بما ابتدعه من الخرفة والإيهامات الملفقة. ولم يدفع ما جرت به العادة من العوائد ، بل اجتلبت خلاف ذلك فوائد».

«ولما حضر حسن باشا الجزايرلى سنة ١٢٠٠هـ وخرج الأمراء المصريون إلى الجهة القبلية، واستباح أموالهم ، وقبض على نسائهم وأولادهم وأمر بإنزالهم سوق المزاد وبيعهم، زاعما

أنهم أرقاء لبيت المال وفعل ذلك فاجتمع الأشياخ وذهبوا إليه فكان المخاطب له المترجم قائلا له:

أنت أتيت إلى هذه البلدة وأرسلك السلطان لإقامة العدل، ورفع الظلم كما تقول ، أم لبيع الأحرار وأمهات الأولاد وهتك الحريم؟ فقال : هؤلاء أرقاء لبيت المال . فقال له : هذا لا يجوز ، ولم يقل به أحد. فاغتاظ غيظا شديدا».

«وكان ابراهيم بك الكبير قد أودع عند المترجم وديعة. وكذلك مراد بك أودع عند محمد البكرى وديعة. وعلم حسن باشا فأرسل عسكرا إلى السيد البكرى فلم تسعه المخالفة وسلم ما عنده. وأرسل كذلك يطلب من المترجم وديعة ابراهيم بك فامتنع من دفعها قائلا «إن صاحبها لم يمت، وقد كتبت على نفسى وثيقة، فلا أسلم ذلك ما دام صاحبها على قيد الحياة».

فاشتد غيظ الباشا منه، وقصد البطش به، فحماه الله منه ببركة انتصاره للحق فكان يقول - يعنى حسن باشا - : لم أر فى جميع الممالك التى ولجتها من اجترأ على مخالفتى مثل هذا الرجل، فإنه أحرق قلبى».

«ولما رحل حسن باشا الجزايرلى وعاد الأمر إلى المماليك زادت عندهم مكانته. وآل إليه نظر المشهد الحسينى، ومشهدا السيدة نفيسة والسيدة زينب وباقى الأضرحة الكثيرة الإيراد. وأخذ يتشدد مع القائمين على هذه الأضرحة فى تحصيل أموالها، ويسبهم ويهينهم ، ويضربهم بالجريد المحمى على أرجلهم».

«وكانت مساكنه مطلة على بركة الفيل. وبها قاعة كبرى تسمى «أم الأفراح» مزخرفة بالنقوش الذهب والقيشانى الصينى بجميع حيطانها، والرخام الملون. وبها الفسقية والسبيل والقمريات الملونة. فكشف حائطها وأدخل فسحتها فى رحبة الحوش، وعمل بها فسقية بالرخام ، وسماها الأنوارية، نسبة إلى كنيته وأمامها فسحة عظيمة. وأنشأ بجوار بيته مسجدا ليصلى فيه وذلك لبعد المساجد الجامعة عن داره. وتعاظمه عن السعى الكثير والاختلاط بالعامة. وأنشأ بستانا كبيرا، وغرس به الأشجار والرياحين والثمار. وأفنى غالب عمره فى تحصيل الدنيا، وتنظيم المعاش والرفاهية، واقتناء كل مرغوب للنفس، وشراء الجوارى والمماليك والعبيد والحبوش والخصيان ، والتأنق فى المآكل والمشارب والملابس. واستخراج الأدهان والعطريات ، والمركبات المفرحة والمنعشة للقوة».

«وتعاظم فى نفسه، وتعالى على أبناء جنسه حتى إنه ترفع عن لبس التاج والحضور بالأزهر ليلة المعراج وكذا الحضور فى مجلس وردهم الذى هو محل عزهم. وصار يلبس قاووقا بعمامة خضراء تشبها بأكابر الأمراء، وبعدا عن التشبه بالمعممين والفقهاء والمقرئين».

«ولما طالت أيامه، وماتت أقرانه، والذين كان يستحى منهم ويهابهم وتقلبت عليه الأحوال، والدرجت أكابر الأمراء، وتأمر أتباعهم ومماليكهم الذين كانوا يقومون على أقدامهم بين يدى مخاديمهم، وأسيادهم جلوس بالأدب مع المترجم،

فلا جرم ان كانت هيبته فى قلوبهم أعظم من أسلافهم ، واستصغاره هو لهم كذلك. فكان يصدعهم بالكلام، وينفذ أمره فيهم، ويذكر الأمير الكبير بقوله «ولدنا الأمير فلان»، وحوائجه عندهم

مقضية، وكلامه مسموع، وشفاعته مقبولة، وأوامره نافذة فيهم وفى حواشيهم وحريماتهم».

«واتفق أن بعض أعاظم المباشرين من الأقباط توقف معه فى أمر، فأحضره ولعنه وكشف رأسه وضربه على دماغه بزخمة من الجلد. ولم يراع حرمة أميره وهو إذ ذاك أمير البلد. ولما شكا إلى مخدومه ما فعل به، قال للحاضرين: «وماذا تريدون أن أصنع بشيخ عظيم ضرب نصرانيا ؟! فرحم الله عظامهم»

«واتفق أن جماعة من أولاد البلد ووجهائها اجتمعوا ليلة بمنزل بعض أصاحبهم، وتبسطوا فأخذ بعضهم يسخر ويقلد بعض أصحاب المظاهر، فوشى للمترجم ونقل له أنهم أدرجوه فى سخريتهم فأحضرهم واحدا بعد واحد وعزرهم بالضرب والإهانة».

«فكان من حين إلى حين يقع فى بيته الضرب والإهانة لأفراد من الناس وكذلك فلاحو الحصص التى حازها والتزم بها، فإنه زاد فى خراجهم عن شركائه، وفرض عليهم زيادات كان يحبسهم عليها شهورا؛ ويضربهم بالكرابيج وبالجملة فقد قلب الموضوع، وغير الرسم المطبوع، بعد أن كان منزلهم محل سلوك ورشاد، وولاية واعتقاد، صار كبيت حاكم الشرطة يخافه من غلط أدنى غلطة، ويتحاماه الناس من جميع الأجناس. وجلساؤه ومرافقوه لايعارضونه فى شىء بل يوافقونه. ولا يتكلمون مع إلا بميزان وملاحظة الأركان. ويتأدبون معه فى رد الجواب. وحذف كاف الخطاب، ونقل الضمائر عن وضعها فى غالب الألفاظ، بل حتى فى الآثار المروية، والأحاديث النبوية. وغير ذلك من المبالغات وتحسين العبارات والوصف بالمناقب الجليلة و الأوصاف الجميلة، حتى إن السيد حسين المنزلاوى الخطيب كان ينشىء خطبا يخطب بها يوم الجمعة التى يكون المترجم حاضرا فيها بالمشهد الحسينى، وبزاويتهم أيام المولد، ويدرج فيها الإطراء العظيم فى المترجم، والتوسل به فى كشف المهمات وتفريج الكروب، وغفران الذنوب، حتى إنى سمعت قائلا يقول بعد الصلاة:

«لم يبق على الخطيب إلا أن يقول اركعوا واسجدوا واعبدوا شيخ السادات !!»

* * *

ولما دخل الفرنسيون مصر كانت للمترجم بعض المواقف المشرفة التى تحمل بسببها كثيرا من الأذى. فقد حدث أن قبض بونابرته على ابن القاضى التركى وحبسه فى القلعة. فتشفع المشايخ عند بونابرته ليطلق سراحه.

وكان السادات حاضرا فضم صوته إلى صوت العلماء وأضاف قائلا:

«إنكم تقولون دائما إن الفرنساوية أحباب العثمانية. وهذا ابن القاضى من طرف العثمانلى. فهذا الفعل مما يسىء الظن بالفرنساوية، ويكذب قولهم وخصوصا عند العامة» فغضب بونابرته من كلام السادات واستدعاه إلى مجلسه وعاتبه ولامه. وحجزه مدة من الليل، وأخيرا أطلق سراحه وأمره بالانصراف إلى منزله.

ولما نشبت المعارك بين الفرنسيين والجيش العثمانى، ودخل العثمانيون القاهرة وشرعوا فى الاعتداء على أموال الناس وأرواحهم؛ كتب السادات إلى عثمان كتخدا الدولة الرسالة الآتية:

حسبنا الله ونعم الوكيل، نعم المولى ونعم

النصير. وما هي من الظالمين ببعيد.

ظننت أنك عـــدتي أسطو بهـــا

ويدي إذا اشـتـد الزمـان وساعـدي

فـــر مـــيت بغـــيـــر مـــا أملتـــه

والمرء يشـــــرق بالزلال البــــارد

أما بعد، فقد نقضت عهدي ، وتركت مودة آل جدي. وأطعت الظلمة السفلة ، وامتثلت أمر المارقين الثقلة، فأعنتهم على البغي والجور، وسارعت في تنجيز مرامهم الفاسد على الفور؛ من إلزامكم الكبير والصغير ، والغني والفقير إطعام عسكركم الذي أوقع بالمؤمنين الذل والمضـــرات، وبلغ في النهب والفساد غاية الغايات. فكان جهادهم في أماكن الموبقات والملاهي حتى نزل بالمسلمين أعظم المصائب والدواهي. فاستحكم الدمار والخراب، ومنعت الأقوات وانقطعت الأسباب. فلذلك كان عسكركم مخذولا ، وبهم عم الحريق كل بيت كان بالخير مشمولا».

«كيف لا، وأكابرهم أضمرت السوء للمرتزقة في تضييق معايشهم وأخذ مرتباتهم، وإتلاف ما بأيديهم من أرزاقهم وتعلقاتهم. وقد أخفتم البلد بعد أمنها، وأشعلتم نار الفتنة بعد طفئها . ثم فررتم فرار الفيران من السنور، وتركتم الضعفاء متوقعين أشنع الأمور. فواغوثاه ! واغوثاه ، أغثنا ياغياث المستغيثين، واحكم بعدلك يا أحكم الحاكمين، وانصرنا وانتصر لنا ، فإننا عبيدك الضعفاء المظلومون ، يا أرحم الراحمين».

هذه الرسالة كتبت عقب انهزام المصريين في الوقائع التي جرت بينهم وبين الفرنسيين في مدينة القاهرة ، والتي خرب بسببها معظم أحياء المدينة. وقد أرغم الأهالي شيخ السادات على أن ينفق على جانب كبير من المجاهدين . فلما انتصر الفرنسيون فرضوا غرامات على سكان القاهرة، وفرضوا على شيخ السادات ٥٣٥ ألف فرنك.

فذهب إلى داره وصحبه بعض الجنود الفرنسيين لحراسته حتى لا يهرب، ثم اعتقلوه في القلعة وكان في نيتهم قتله، فشفع فيه عثمان بك البرديسي . واعتقلوا فراشه ومقدمه. وحبسوه في حجرة مظلمة فكان ينام على التراب، ويتوسد حجرا. وضربوه ضربا مبرحا يومين متتابعين. ثم أنزلوه إلى داره في حراسة شديدة . كان لديه عشرة آلاف ريال فدفعها للفرنسيين . ثم باع بعض أمتعته ولكن هذا لم يف بالمطلوب. فرجعوا به إلى معتقل القلعة ماشيا وصاروا يضربونه خمسة عشر عصا في الصباح، ومثلها في الليل. وطلبوا زوجته وابنه فلم يجدوهما. فأحضروا محمد السندوبي تابعه وعذبوه حتى عاين الموت، فعرفه بمكانها، فجاءوا بها وحبسوها معه، وكانوا يضربونه في وجودها وهي تبكي وتصيح. ثم تشفع المشايخ في نقلها من عنده، فنقلوها وبقي الشيخ على حاله. وأخذوا مقدمه وفراشه وحبسوهما ، وتغيب أكثر أتباعه واختفوا.

ولما قتل كليبر وخلفه مينو سنة ١٢١٥ هـ أفرج عن شيخ السادات فرجع إلى بيته بعد أن دفع ما سبق أن تقرر عليه، واستولى الفرنسيون على ضياعه وأوقافه التي كان متنظرا عليها، وحرموه من مرتباته، وأمروه بعدم الاجتماع بالناس. وألا يخرج من بيته دون إذن منهم، كما أمروه بالاقتصاد في أموره ومعاشه، وأن يقلل من أتباعه.

***

وكان السادات الوفائية يتشبهون بالملوك فيخلعون على أتباعهم الكنى والألقاب مثل أبي

الفوز، وأبى التدانى ، وأبى الإقبال، وأبى العزم وكانت لهم مواسم خاصة يحتفلون بها وهي:

(١) الميعاد (٢) مولد المحرم (٣) مولد الحسين (٤) ٢٧ رمضان، وفيه يمنح شيخ السادات أتباعه ومريديه الكنى.

والطريقة الوفائية التى تنسب إلى مؤسس هذا البيت هى شعبة من الطريقة الشاذلية ولهذه الطريقة حزب مشهور هو حزب الفتح، يقرأ فى بيت الشيخ كل أسبع ولها خرقة صوفية خاصة. ولشيخ السجادة تاج خاص يلبسه فى المواسم والأعياد.

أما الزوايا التى تتبعه فهى:

١ - زاوية الرباط وهى بناحية الخرنفش. وكانت العادة قديماً أن من يتولى مشيخة السجادة الوفائية يتوجه إليها ويمضى بعض الوقت فى قاعة خاصة تسمى «قاعة التجلى» حيث تحل فيه الأسرار الإلهية. كما يزعمون ؛ ثم يخرج فى موكب حافل إلى مسجد الحسين.

٢ - الزواية الكبرى وهى شرقى الإمام الشافعى ، وقد هدمت فى عهد الوالى العثمانى عزت محمد باشا سنة ١١٩١ وبنى فى موضعها مسجد ضخم فخم بأمر السلطان عبد الحميد الأول نكاية فى السادة الوفائية.

وقد سبق أن ذكرنا أن الناس كانوا إذا دخلوا على مشيخ السادات قالوا «يا مولاى ، ياواحد» فيرد عليهم بقوله «يامولاى يا دائم ، ياعلى يا حكيم» والآن نريد أن نعرف السر فى اختيار هذه العبارات دون سواها ، وقد وفر علينا مشقة البحث أحد شعراء السادات الوفائية حيث قال:

جعلت مدحك يا مولاى أورادا
ياواحد العصر يا من بالتقى سادا
قل يا على تجده ناصرا أبدا
يا دائم السر آباء واجدادا
وان يقل قائل ما أصل خيرتها
من دون الأسماء للأستاذ أورادا
فكل لفظ أتى قطب الوفاء به
يدريه محترزا من كان نقادا
إذ كل من ذكر اسما في تضرعه
لله يطلب معنى مابه نادى
فاختار أسماء مولى ما بها طلب
لأنه فاق أنجابا وزهادا
لا خوف نار ولا فى جنة طمعا
بل يرتجى قربه لم يبغ إبعادا
أعلى المقامات فى التعبيد عندهمو
يافوز من كان للرحمن عبادا
وشيخنا القطب فوز الأولياء له
أعلى المراتب تسليكا وارشادا
ورب عبد غدا رقا لطائفة
فقال بل واحد ما رمت الحادا
لا جزء فىّ لغير الله يملكه
وفيه رد على من رام تعدادا
وأنه كرر المولى لذاته
بكونه لمقام العبد قد عادا
فيه دليل على إثبات رتبته
قطبا إلى أن وفى للحور ميعادا
أو واحدا كان لكن لا دوام له
فقال بل دائم جودا وإمدادا
ودائم لا زوال وهو قابله
فقال لا، بل وعلى السوى بادا

ومن تكن هذه الأوصاف فيه فقل

هو الحكيم وقد وفيت إيرادا

أمر الحكيم مطاع لا خلاف له

سلم تجد منه إيجادا وإنجادا

وكل شيء ففيه حكمة بلغت

فضلا وعدلا وإعداما وإيجادا

فالشاعر يقول إن الناس إذا ذكروا الله ذكروه بأسماء وصفات تعبر عما تنطوى عليه نفوسهم من رغبة أو رهبة. أما شيخ السادات فإنه اختار اسما لا يدل على رغبة فى شيء من الأشياء لأنه زاهد إلى أبعد حدود الزهد، ولا يدل على خوف من النار أو طمع فى الجنة. وكل ما يجول بخاطره هو أن يتقرب إلى الله، وهذه أعلى مقامات العبادة .

هذه هى الأفكار التى من أجلها اتخذ شيخ السادات شعاره السالف الذكر فى تحية الناس له، وفى رده عليهم.

وقد ردد شعراء السادات هذه العبارات فى شعرهم . مثال ذلك قول أحدهم:

قمت فى حضرته مبتهلا

فعسى أبلغ من قصدى المراما

قلت يامولاى ياواحد فى

وصفه يادائم الفضل دواما

يا على الشأن عن درك السوى

ياحكيما أحكم الأمر احتكاما

* * *

وقد مر بنا أن شعراء مصر اجتمعوا حول شيخ السادات محمد أبى الأنوار ومدحوه بقصائد كثيرة. وقد جمع الحسن البدرى العوضى جانبا كبيرا من هذه القصائد فى كتاب اسمه «اللوائح الأنوارية» والآن نريد أن نلقى نظرة طويلة على هذه المجموعة من الشعر لنرى ما فيها من الأفكار التى يمكن أن تضاف إلى خصائص شعراء آل البيت.

فهذا شاعر يقول من قصيدة فى مدح أبى الأنوار:

الجوهر الفرد الذى بوجوده

أنس الزمان وبهجة الأقطار

محيى رباع الفضل بعد تهدم

مروى رياض المجد بعد بوار

قطب الوجود إمام كل موحد

سعد السعود نتيجة الأعصار

ملك تدين له الملوك وسيد

ورث العلا عن سادة أطهار

الله توجه بتاج جلالة

وكساه حلة هيبة ووقار

فانزل بواديه المقدس إنه

مجلى السرور ومنبع الأسرار

فالشاعر يقول إن شيخ السادات هو الجوهر الفرد.

وانه أحيا رباع الفضل بعدما درست معالمها، وعفت آثارها. وهو الذى أعاد للمجد رونقه وبهاءه.

وهو قطب الوجود ، وإمام كل موحد. فشيخ السادات الذى هو رئيس البيت العلوى فى مصر، هو إمام المسلمين وهو الذى يجب أن يسمع له المسلمون ويطيعوا.

وانك لتجد هذه الفكرة ـ أى فكرة الإمامة ـ أو على وجه أدق إمامة شيخ السادات واردة فى كل ما مدح به من الشعر. مثال ذلك قول أحدهم:

وعش زينة للدهر إنك روحـــه
فنما دمت لا يفنى الزمان ولايمحى
وإنك للدين القـويم ابتـهـاجـه
وإنك منهاج الحنيفية السمحا
وإنك للإســلام أعظم ناصـر
فواليتـه ودا وأوليتـه نصـحـا
وإنك كـهف المسلمين وركنهم
وملجـأهم في كل نائبة قـبـحـا
جعلت بهذا العصر للخلق رحمة
أزلت لهم عن كل مشكلة جنحا

فشيخ السادات هو روح الدهر، وقرة عين الدين الذي أدخل عليه البهجة والسرور . وهو منهاج الحنيفية ، وحارس الإسلام والمسلمين. وقد جعله الله رحمة للعالمين.

وقال آخر:

وعلى بنى العصر اصطفاك لرتبة
تركت قلوب عداك فيـها النار
السيد السند الهمـام المجتبى
صدر الصدور المنتقى المختار
الجوهر الفرد الذى لم تشتمل
أبدا على أمثاله الأعصار
العروة الوثقى لمعتصم به
الآية الكبرى لمن يختار
كناه مولاه أبا الأنوار إذ
من نوره تتولد الأنوار
ولاه مولاه خلافة آله
فنما به شرف لها وفخار
بعلاه آمنا فمن يؤمن ينل
عدنا ونار لظى لها الكفار

ياصفوة الرحمن من أقرانه
يامن له نعم على غزار

فالله اختار السادات لرتبة الإمامة. فهو الإمام المصطفي الذى اجتباه ربه وهو الحقيقة المحمدية، لا نظير له ولا شبيه. وهو العروة الوثقى والآية الكبرى، والسراج المنير الذى يهدى الناس بضيائه. وهو مشرق الأنوار، من آمن به فقد فاز بجنات عدن، ومن كفر فجهنم مقره ومثواه.

وقال آخر:

أنعم بها من روضة مأنوسة
محفوفة بطوالع الأنوار
أحيا مآثرها الإمام المرتضى
صدر الصدور ومطمع الأنظار

وقال الخشاب:

لو يستطيع لجوده أغنى الورى
والعالم العلوى من آلائه
خلف النبى محمد ووصيه
نور السراة الغر من أبنائه
لو كان فى عهد النبى وجوده
أمسى مع السبطين تحت عبائه
شهم عليه الله فى تنزيله
أثنى فأعيا اللسن حسن ثنائه

فالخشاب يقول فى البيت الأخير إن الله مدح شيخ السادات فى القرآن الكريم.

فالقرآن الكريم مدح أهل البيت حين وصفهم بالطهر والبراءة من الرجس، ويقول إن أبا الأنوار كان موجودا فى عصر النبى عليه السلام لأدخله

مع الحسن والحسين تحت عباته. وقد سبقت الإشارة إلى قصة العباءة.

وانظر إلى قول محمد بن شبانة:

لنبي الوفا في الكون أعلى رتبة
بعد النبي وصحبه الأبرار
ورثوا السيادة عن علي جدهم
باب المدينة قاتل الكفار
هذا هو السبب الذى يعلو على
كيوان والبدر المنير السارى
كالشمس في أفق السماء ونورها
نفع الأنام وبهجة الأعصار
من مثلهم والعلم ميراث لهم
كالجد حيدرة الرضا الكرار
فهو الخيار بنو الخيار وجدهم
فخر العلاء وأصل كل فخار
من جاءهم يرجو الأمان بجاههم
سلمت عقيدته من الأوزار

ففي هذه الأبيات نجد محمد بن شبانه يردد الأفكار التى مرت بنا من القول بوراثة آل السادات للإمام على، والإشارة إلى حديث «أنا مدينة العلم وعلى بابها» وغير ذلك من المميزات التى انفردوا بها، وأن من أحبهم سلمت عقيدته وصح إيمانه.

* * *

وشيخ السادات هو المهدى المنتظر الذى يملأ الأرض عدلا بعد أن ملئت جورا. قال أحد الشعراء:

إذا لم يك المهدى تيقنوا
ببطلان ماقد يزعمون فلا مهدى

فإن لم يكن أبو الأنوار هو المهدى الذى ينتظره الناس فلا مهدى إذن على الإطلاق.

وانظر إلى قول عبد الرحمن الصفاقسى:

وقد بلغت آمالكم سورة الضحى
وأوصافكم فى سورة الفيل تذكر
إذا جاء نصر الله تبت يد العدى
وقابلها الخذلان من حيث تنصر
وتبقى لهذا الدين كهفا وملجأ
وردا به الإسلام يعلو ويظهر
وتبتهج الأيام بالعدل والهدى
وتصبح أهل الفضل بالفضل تفخر
ويصبح داعى النصر فى كل موطن
ينادى على الكفار الله أكبر
هنالك يعلو ديننا بمحمد
على دين ابراهيم بالنسخ يظهر
سلالة خير الخلق من آل هاشم
ومن هو للسر الوفائى مظهر
فقم يا أبا الأنوار لله حسبة
فإنك فى كل الأمور المظفر
وكن واثقا بالله معتصما به
على ثقة بالفوز والله ينصر
فإنك داعى الحق والحق دامغ
لباطلهم وهو الزهوق المتبر
وإنك مهدى الزمان فلا تدع
بمصرك شيئا ماله الشرع ينكر
فلا زلت بالمعروف والخير آمرا
وتنهى عن الفعل القبيح وتزجر

ففى هذه القصيدة نرى فكرة مهدوية محمد أبى الأنوار واضحة وضوحا تاما. وقد أشار الشاعر إلى ماورد فى سورة الضحى من خطاب الله للنبى عليه السلام بأنه ما ودعه وما قلاه. وأنه سيعطيه

عطاء يرضى معه. وقال إن موقف أبى الأنوار يشبه موقف النبى فى هذه السورة، أى أن الله سيعطيه ما يرضيه كل الرضا، فى حين أن خصومه ومنكرى مهديته سيهلكهم الله كما أهلك أصحاب الفيل، وسينصره نصرا عزيزا مؤزرا، فيعلو به الدين ويملأ الدنيا عدلا وهداية. ثم التفت الشاعر إلى شيخ السادات وأخذ يحرضه على القيام للجهاد فى سبيل اله ، فهو داعى الحق، ومهدى الزمان، الآمر بالمعروف الناهى عن الفحشاء والمنكر ناهيك عن انه يخاطبه كملك لمصر عندما قال فى البيت قبل الاخير «بمصرك».

وقال مرتضى الزبيدى:

هو روح الإله فى كل مجلى
هو تاج الجمال والعلياء

وكثيرا ماشبهوا شيخ السادات بالنبى محمد صلى الله عليه وسلم. من ذلك قول أحدهم:

رقيت سمى المصطفى وابن سبطه
مراتب عز قد غدا فضلها جما
تبوأت منها رغم شانيك منصبا
مكان رسول الله فى هاشم قدما

أو يذكرون اسمه كما يذكر اسم النبى محمد. مثال ذلك قول أحدهم:

سريرته كسيرته وأسنى
فيا حسناه إذ يعنى ويقصد
فذاك السيد السند المفدى
أبو الأنوار سيدنا محمد

وشيخ السادات يعلم الغيب. قال الخشاب:

له قلم بعلم الغيب يجرى
وبالأرزاق والقدر المتاح

وزيارة شيخ السادات فرضة كالحج بل أكثر. قال أحد الشعراء:

فلبيته سعى الأفاضل عندهم
فرض كفرض الحج فى عرفات
والحج مفروض علينا مرة
ولبيتهم عدد من الكرات

* * *

وفى الشعر العلوى نجد كثيرا من الصور الدينية كالحج والطواف والسعى والوقوف بعرفات وغير ذلك . قال أحد الشعراء:

ياخير من حجت إليه ركائب الـ
ـفضلا تقبل ركنه المحروسا
وتراهمو يسعون فى مرواته
وصفاه لا يلقون منه عبوسا
يقفون فى عرفات واسع فضله
متأزرين من الخشوع لبوسا
بحماك حط مفتت الأكباد من
شط الديار وقد أناخ العيسا
تهنا بعيد الفطر جاءك زائرا
فقريته التسبيح والتقديسا
أرضيت ربك فى قنوتك ليله
وأغظت فى أيامه إبليسا

وقال محمد بن شبانه:

مولى إذا حضر الأفاضل عنده
نزلوا نزول الحج فى عرفات
يرجون غفران الذنوب جميعها

من أكبر الآثام والتبعات

شبه كبير بين هذه المدائح التى كان ينظمها الشعراء فى الخلفاء والأئمة الفاطميين ، وبخاصة كانت تقال فى عيد الفطر أو عيد الأضحى كما كانت الحال مع الخلفاء.

ويكثر فى الشعر العلوى الإشارة إلى الآيات القرآنية والاقتباس منها مثال ذلك قول القائل:

فصل له شكرا وقم وانحر الفدا
وكبر على الأعدا فشانيك أبتر
وقد زلزلوا بالعاديات وأهلكوا
بقارعة فيها مع الصرصرصر
وألهاهمو بالعصر ويل لخسرهم
وأحوالهم فى سورة الفيل تذكر

والأمثلة على ذلك كثيرة.

* * *

وكان الشعراء فى مدائحهم لشيخ السادات ينظرون إلى ما نظم قديما. مثل قول السفاقسى:

هل تفكون أسيرا من قياد
أو تجيرون صديقا من معادى؟
أو توالون محبا صادقا
وده فى كل يوم فى ازدياد؟
أو تراعون حقوقا أوجبت
أن تراعى حقها أهل الوداد؟
يابنى السادات قوموا سرعة
وانفضوا عن مضجعى شوك القتاد

ياكرام الحى فاحموا حوزتى
وامسحوا عن ناظرى كحل السهاد
أنتمو القوم الأولى عاداتهم
نصرة العانى وإسداء الأيادى
مبتغى العافين فى يوم الندا
ملجأ العاصين فى يوم المعاد
يا أبا الأنوار من أنواره
أشرقت فى كل أرجاء بهادى
ياسمى المصطفى خير الورى
ياسليل السادة الشم الجياد
ياولى العهد من بعدهمو
ياعهاد الخير من قبل العهاد

إن هذا الشاعر قلد ابن هانئ الأندلسى فى قصيدته التى مطلعها:

امسحوا عن ناظرى كحل السهاد
وانفضوا عن مضجعى شوك القتاد

بل إنه سطا على كثير من ألفاظه وعباراته ومعانيه. والأمثلة على ذلك كثيرة.

وشيخ السادات هو الأمين على سر الرسول . قال أحدهم:

وهو الأمين على سر الرسول ومن
سواه من سره زهر المنى اقتطفا
تثنى عليه بقاع الأرض أجمعها
وكل حى صفى ذكره ألفا

نبذة عن شعر المدرسة الشعبية المصرية فى ظل الاحتلال العثمانى

هذه مدرسة قديمة عرفت فى مصر قبل الاحتلال العثمانى، وفى مطلع هذا الاحتلال نرى من شعرائها:

١ ـ ابن إياس الحنفى المتوفى سنة ٩٣٠ هـ فقد نظم شعرا كثيرا باللغة المصرية فى أغراض مختلفة مثال ذلك قوله:

كان ابن عثمان مذ جاء مصر مثل الطيف
وحل وولى علينا كل صاحب حيف
مباشرين يجوروا فى الشتا والصيف
أطراف أقلامهم للفعل فعال السيف

ففى هذين البيتين صور ابن إياس آلام الشعب ومعاناه من ظلم الحكام وعمال الخراج الذين لا ينقطعون عن تحصيل الأموال حتى استنزفو دماء المصريين وأذاقوهم الجوع والخوف . وفى قوله «أطراف أقلامهم تفعل فعال السيف» تصوير رائع لإفراط الجباه العثمانلية فى إيقاع المظالم بالشعب.

٢ ـ ومن معاصرى ابن إياس، زجال مشهور هو بدر الدين الزيتونى (٨٣١ - ٩٢٤هـ) كان أحد نواب السادة الشافعية، فاضلا عارفا بصناعة القضاء والتوقيع، ماهرا فى الخطب، فكه المحاضرة ، كثير العشرة للناس، علامة فى فن الأزجال، والموشحات والمواليا، وكان وكان، والقوما. وله قصيدة طويلة من فن الزجل فى مائة وعشرين بيتا، رثى فيها السلطان الغورى وسرد ماحدث من المعارك بين الجيش المصرى والجيش العثمانى نذكر منها:

غربت شمس الدولة الغورى
وابن عثمان نجمو طالع ساير
وبهذا رب السما قد حكم
والفلك دار ولم يزل داير
خامس عشر من ربيع آخر
تسعمائة اثنين وعشرين عام
ورخوها من هجرة الهادى
شافع الخلق فى نهار القيام
كان خروج السلطان بتجريده
لابن عثمان طالب بلاد الشام
والأمارة فى خدمتو موكبين
بالمماليك والطلب تتفاخر
وخروج الجميع من القاهرة
كان بتقدير الواحد القاهر
فى محفه خرج معو القاضى
وكاتب السر المنتخب محمود
والخليفة المتوكل ولد يعقوب
هو محمد فعلوا الجميل محمود
.... إلخ

وقد حرص الزيتونى على أن يسجل فى هذه القصيدة كل ما شاهده منذ خروج الغورى إلى اللحظة التى قتل فيها. وحدثنا عن ألمه وحزنه لما حل بالجيش المصرى من هزيمة. ثم عزى نفسه بذكر القواد والملوك الذين ماتوا وذهب ملكهم وأصبحوا فى ذمة التاريخ من أمثال سليمان الحكيم، والنمرود وكسرى أنو شروان، والاسكندر الأكبر، ونلاحظ أن حبه للتسجيل التاريخى قد غلب عليه.

ومما هو جدير بالذكر أن استخدام الشعر الشعبى

في الرثاء قد كثر في هذا العصر، كما انتشرت النساء اللاتي احترفن فن التعديد وهو نوع من الشعر مازال حتى أيامنا هذه ينشد في المآتم.

وفي حوادث سنة ٩١١هـ كثر الحريق بالقاهرة بسبب وجود الدريس في منازل المماليك، وكانوا قد أفرطوا في خزنه. وشرع الوالي يقبض على الناس ويرغمهم على نقل الدريس بعيدا عن مواطن الحريق. فتعطلت أعمالهم، وصنفوا رقصة وهم يقولون :

اهرب ياتعيس

والا يحملوك الدريس

فلم يجدوا أمامهم سوى الهرب من حمل الدريس، إذ لم يكن في قدرتهم أن يفعلوا شيئا غير ذلك، فمن اختفى استراح، ومن ظهر سخر في نقل أحمال الدريس. ويبدو أن العامة قد واجههم عناء شديد وبلاء عظيم في هذه الحادثة فتحركت مشاعرهم بهذا الغناء.

وفي حوادث سنة ١١٣١هـ خلع المماليك الباشا التركي عقب فتنة كبرى سالت فيها الدماء وتناثرت الأشلاء، وخربت دور كثيرة. وكان هذا الباشا هو مدبر تلك الفتنة، فلما خلع اجتمع عليه الأولاد الصغار وأخذوا يرقصون ويغنون بصوت مرتفع قائلين:

ياباشا، ياباشا ياعين القمله

مين قال لك تعمل دى العمله

ياباشا، ياباشا ياعين الصيره

من قال لك دبر دى التدبيره

ومن أنواع المواليا التي عرفت في مصر قبل العصر العثماني وانتشرت انتشارا كبيرا في خلاله :

١ ـ القرقيا : وهو ما يتناول الهزل.

٢ ـ البليق : ويستخدم في الغزل.

٣ ـ المكفر: بكسر الفاء ، ويستخدم في الوعظ.

فمن المكفر قول محمد سالم الحفناوى المتوفى سنة ١١٨١هـ:

يامبتغي طرق أهل الله والتسليك

دع عنك أهل الهوى تسلم من التشكيك

إن اذكروني لرد المعترض يكفيك

فاجعل سلاف الجلاله دايما في فيك

وهذه المواليا في الوعظ والإرشاد. فهو يخاطب من يريد الوصول إلى الله وسلوك طريق المتصوفة والانخراط في صفوفهم، وينصحه بترك الاعتراض على الناس وبمداومة ذكر الله.

وقد استخدم محمد البكرى المتوفى سنة ٩٩٤هـ الموشحات في الدعوة لشراب القهوة مثال ذلك قوله:

أدر القهوة في كاس البها

قهوة البن وناهيك بها

هي حل مانهى عنها نهى

فاسقني ياصاح

شنف الكاسات واسمع ما أقول

إنها شرب الأجلاء الفحول

أولياء الله أرباب الوصول

لحمى الفتاح

ماعلينا من عذول جاهل

مفترى زور كلام باطل

خامل الذكر وميت زائل

راح من راح

ففى هذه الموشحات تصوير للنزاع العنيف الذى نشب بين أنصار شراب القهوة وخصومها. وقد حاول البكرى أن يتحدى هؤلاء الخصوم، فطلب من الساقى أن يدير عليه القهوة فى الكئوس الجميلة. ثم ذكر أن شراب القهوة لذيذ جدا، وحلال عند أرباب العقول السليمة، والقهوة شراب الأكابر وذوى المراتب الرفيعة من أولياء الله المقربين إليه. ويقول إنه لا يكترث بكلام الجاهل الذى يلومه على تعاطي هذا الشراب، والذى يحرمه مستندا إلى أدلة فاسدة وآراء باطلة. وهذا الجاهل نكرة لا يعرفه أحد، ولا يسمع به إنسان، فكأنه فى عداد الأموات

وهذه الموشحة جيدة التراكيب قوية الأساليب، واضحة العبارة، مليحة الإشارة

ومن موشحاته التصوفية قوله:

طلعة المحبوب كل القمر
هكذا هيمت كل البشر
كيف لاتسرى بكل الصور
وهم هالات
وحدت معناك عينى نظرا
قال لى قلبى شهدت الأثرا
ماترانى عين سعدى ماترى
وحدة بالذات
زال لبس حيث نفسى أعربت
وكذا شمسى بأفقى غربت
مثلما روحى بروحى طربت
والهوى لذات

.... إلخ

فالبكرى يقول إن الله تجلى فى مخلوقاته فهو كالقمر الذى هام الناس بحبه والمخلوقات تحيط به إحاطة الهالة بالقمر. وهو واحد بذاته وصفاته. ولما أدرك هذه الحقيقة زال من قلبه كل شك، وامتلأ فرحا وسرورا، ونعم بهذه اللذة الروحية التى غرق فيها.

* * *

ومن الشعر الشعبى الذى وصل إلينا من هذا العصر مجموعة عنوانها «الروض الوضاح فى نهاية الأفراح، المسمى باجتماع الشمل فى فن خيال الضل» وهذا النوع من الشعر التمثيلى الذى يشترك فى إلقائه بضعة أشخاص يمثلون موضوعات مختلفة، ويقفون فوق منصة مرتفعة وراء ستار، مستخدمين بعض آلات الطرب، ويرقصون ويغنون، و يقومون بحركات بهلوانية كالتى تشاهد فى الأراجوز ومما جاء فى هذه المجموعة:

عن خيال الضل دايم محتجب
فانتبه يامن غفل عنو ونام
تلتقى هزلو وجدو شى عجب
وعبارات شبه الأحلام فى المنام
والمرقص من ورا الستر احتجب
والشخوص تحكى شخوص هذه الأنام

كان هناك مرقص وستائر وتماثيل دقيقة الصنعة، وصور تشبه صور الناس والحيوانات والمبانى والحدائق وغيرها.

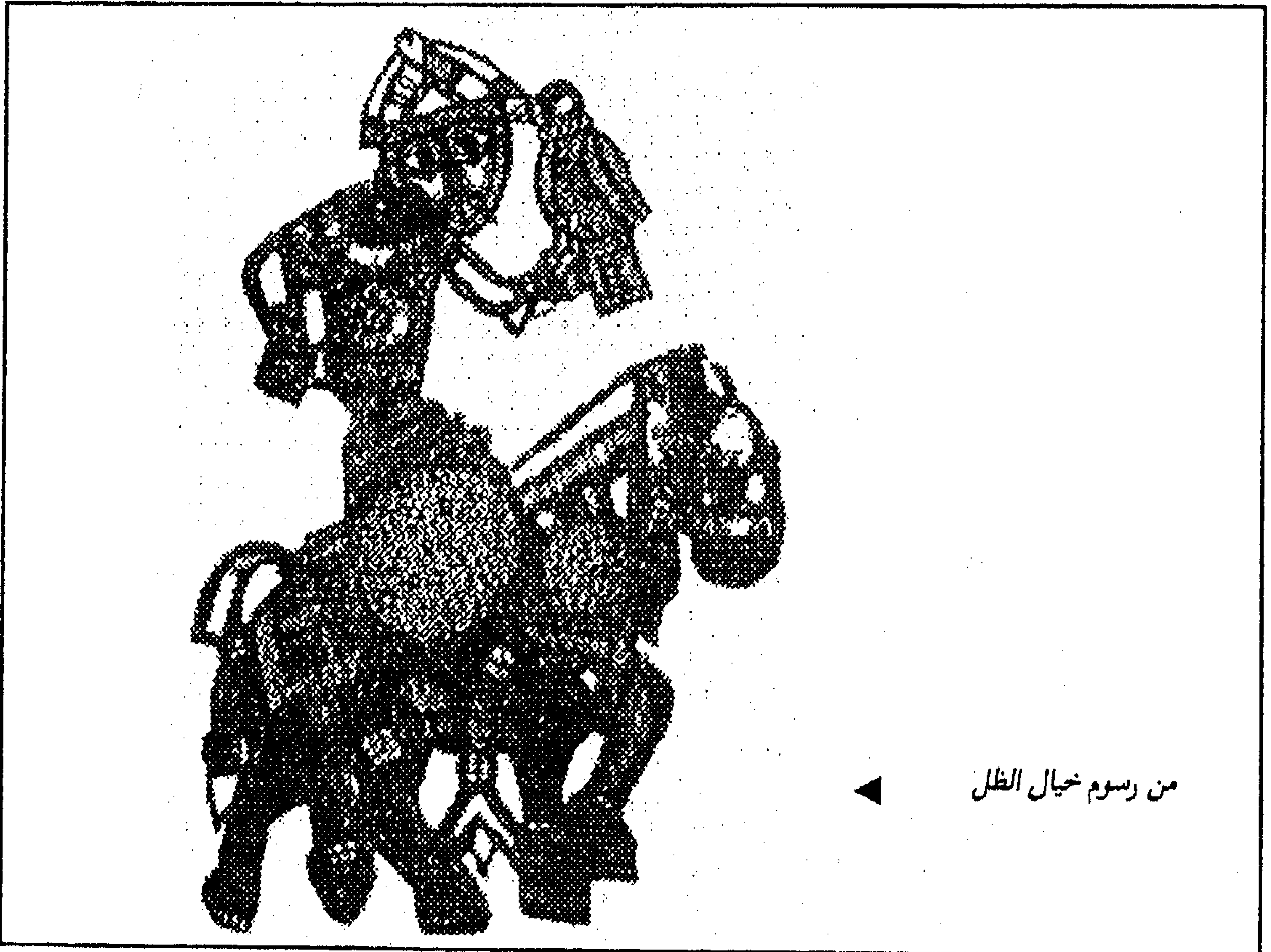
ومنها:

ليلة سعيدة عند ما قد رأيت
أهل الأدب يحكو بدور الكمال
لما طلبتونى إليكم أتيت
للعب والتفريج وفن الخيال
ياسادتى أنى بكم اقتديت
يامن حويتو الفخر والامتثال

ربى يفــرح قلوب الجـــمـــيع
بزيارة النبى الهــادى ودار الســلام
ياسـامـعين قـولوا مـدد ياحـسين
والفـاتحـه اقــروها لبنت الإمـام

فمن هنا نرى أن اللاعب قد بدأ التمثيل بتحية الناس الذى دعوه ليعرض عليهم ألعابه . وقد ذكر أنه لبى دعوتهم وحضر ليدخل على قلوبهم الفرح والسرور ، وليطلعهم على فن خيال الظل. وقال أنه يتخذ من الحاضرين قدوة حسنة له فى حياته. فهم أهل الفضل والأخلاق الحميدة. ثم سأل الله أن يوفقهم إلى زيارة النبى صلى الله عليه وسلم، وطلب منهم أن يلتمسوا العون من الحسين ، وأن يقرأوا الفاتحه لبنت الإمام ، أي السيدة زينب. ومنها:

وبعـد هذا انتظروا أشـيـا عـجب
فى الأدب والحظ والانـشـــراح
أشـخاص وحـازوا كل معنى طرب
كان السبب من مصر دا الفن راح
وحــبى ظهــر شكلو لأهل الرتب
نالو الأرب بأهل الوجـوه السـمـاح
يارب بالهــادى نبـينا الشـفـيع
وبالصــحـابه الفــائزين الكرام
تغــفــر ذنوبى ياكــريم يامــعين
بفـضلك وادخلنا ديار الســلام



من رسوم خيال الظل

ولما فرغ من المقدمة السابقة التفت إلى الحاضرين وأخبرهم بما سيشاهدون من عجايب فنه، وغرايب تمثيله. وذكر أن هذا الفن كان قد اختفى من مصر مدة من الزمن ومدح الحاضرين وأعرب عن حبه لهم. ثم دعا الله أن يغفر له ذنوبه وأن يدخله الجنة.

ثم ذكر بعد ذلك أسماء الممثلين وهم : (١) نرجس بن تقادير (٢) الكابس (٣) أبو حردان (٤) أبو قراميط (٥) السكران

ولكن من هؤلاء الأشخاص دور يقوم به، وموشحات ينطق بها.

ويغلب على هذه التمثيليات الغزل والشكوى من فراق الحبيب، ولنداء الليل وغير ذلك مما هو معروف الآن. كما اشتملت على مدح الأولياء والوعظ والإرشاد، والحث على التمسك بمكارم الأخلاق، ففيها الهزل والخلاعة والمجون إلى جانب الجد، ومن التمثيليات الجدية تمثيلية «فلاح فى بطن تمساح» . وقد وقف شخص اسمه الكابس يخاطب الفلاح بقوله:

«دور من الكابس للفلاح وهو فى بطن التمساح» :

يا أخى أعلمنى على دى القصة
لما بقيت فى بطن تمساح كاسر
ياهلترى غضبوا عليك إخوانك
والا مرابط كان سرو حاضر
وألا أبوك قلبو غضب من يمك
والا دعت أمك فى الظلام العاكر
انهض واعلمنى صحيح واصدقنى
يامن رماه وعدو وأصبح نواح
قل لى على من أخرجك من بيتك
لما عليك قد اغتدى ذا التسماح

فالفلاح كما نرى قد وقع فى شدة عظيمة، وضيق مؤلم إذا أضحى محبوسا فى بطن تمساح، وقد طلب منه الكابس أن يحدثه عن سبب وقوعه فى هذه المصيبة. وهل كان سبب ذلك غضب إخوانه أم غضب أحد من الأولياء ؟ أم غضب والده؟ أم غضب والدته ودعاءها عليه فى جنح الليل. وطلب منه أن ينهض ويخبره الخبر الصحيح، وأن يكون صادقا فى قوله عن السبب الذى أخرجه من بيته وأوقعه فريسة لهذا التمساح الجبار الذى التقمه وحبسه فى بطنه.

فيرد الفلاح قائلا (دور من الفلاح) :

أبكى ودمع العين
جارى على خدى
حالى صبح مسكين
واللى انكتب وعدى
وقعت وقعة شين
وعدى لا بيدى
لكن أقول يارب
ياباعث الأرياح

فالفلاح هنا يبكى بكاء مرا على ما وصلت إليه حاله من بؤس وشقاد، ولكنه مع ذلك لم ييأس من رحمة الله، بل يطلب الفرج ويؤمل فى النجاة، ويرجو اليسر بعد العسر.

وبعض هذه التمثيليات يبدأ بمدح النبى ثم يذكر الخلفاء الراشدين ومشهورى الصحابة. وتنتقل بعد ذلك إلى الأغراض التى أنشئت من أجلها. وهى تصور بوجه عام وقوع بعض الناس فى ضيق وشدة،

ثم استغاثتهم بالله والأنبياء والأولياء ، ورضاهم بالقضاء والقدر. ثم تنتهي بحدوث الفرج بعد الشدة.

* * *

ومن الشعر الشعبى تلك القصائد التى وردت فى سيرة الظاهر بيبرس والأميرة ذات الهمة وكقصيدة أبى شادوف التى شرحها يوسف بن محمد الشربينى سنة ١٠٩٨ هـ فى كتابه «هز القحوف».

* * *

وقد نظم ابراهيم الشافعى سنة ١١٧٧ هـ قصيدة طويلة من فن الزجل، مدح بها الأمير عبد الرحمن كتخدا ، عنوانها «مشارع خيرات حسان فى مدح الأمير عبد الرحمن» سجل فيها كل ماشيده الأمير المذكور من المبانى، وما أنفقه من الأموال فى أوجه البر. ومما جاء فيها:

وكم عرايا قد كسا
وكم غريب قد أكرمه
بأرض الجزيرة لو سبيل
تجاه بولاق فافهمه
عليه سواقى دايره
منه الحسود قد انكمد
بشارعه حوض للدواب
شيد بناه ونظمه
وعبد الرحمن أمير
بفعل خير قد انفرد
وربنا صار لو معين
وأقمى الأعادى بالكمد

وكان بعض الشعراء يقلدون الموشحات الأندلسية، وينسجون على منوالها. نذكر منهم إسماعيل بن خليل الملقب بالظهورى ، المتوفى سنة ١٢١١ هـ فقد نظم موشحة على وزن موشحة ابن الخطيب الأندلسى جاء فيها:

ليت شعرى ياأخلاء الهوى
هل أرى بدرى بحانى مؤنسى
أم أقاسى من زمان قد قسا
ورمى أحشاى سهما عن قسى
دور
ياسقى الله زمانا قد مضى
فى مغانى مصر فى عيش خصيب
حيث بدرى قد قضى لى ماقضى
بالتدانى إذ غفت عين الرقيب
شب من تذكارها نار الغضى
فى فؤادى وتلافى فى النحيب
واعترتنى دهشة حين جرى
من دموعى سائلا فى الغلس
وغدا قلبى كليما مذ سرى
بارق فى نخر ذاك المكنس
دور
يارياضا حسنها زاه يشيق
جاد فى مشواك منهل السحاب
كم مضى لى فيك من معنى أنيق
حين كان اللهو مزهى الجناب
هل ترى عينى محياك الشريق
لابسا برد التهانى والشباب
وأرى بدرى يناجينى على
ذلك البسط الشهى السندس

وأحلى صـــبـــر دهرى بالمنى
من مـــعـــان زاهيـــات الملبس

وهكذا يستمر الشاعر إلى آخر تلك الموشحة الطويلة فى أسلوب قصصى سهل ممتع. فيذكر الحان وأيام الصبا واللهو والعبث التى أمضاها ونعم بها بين حدائق مصر وبساتينها. ويحدثنا عن اتصاله بمحبوبته بعيدا عن أعين الرقباء . ثم أخذ يتحسر على تلك الأوقات السعيدة الحلوة التى لن تعود.

وما تركته فى نفسه الذكريات من لوعة، وماتذرفه عيناه من دموع وما أصاب قلبه من جروح، ثم وقف يخاطب الرياض، واصفا إياها بالجمال والفتنة، ذاكرا الأيام الحلوة التى قضاها بين ربوعها، متمنيا لو أن تلك الأيام قد عادت إليه مرة أخرى ليمتع نفسه بوصال الغيد، والجلوس معهن على الحشائش الخضراء السندسية، تحت ظلال الأشجار الوارفة. ومن أشهر الزجالين فى هذا العصر الشيخ عامر الأنبوطى المتوفى سنة ١١٧٣ هـ والذى وردت ترجمته هنا تحت رقم ٢٦٣

واحتاجت المقاهى الكثيرة التى ظهرت فى ذلك العصر إلى المغنيين مما دفع أفراد تلك الطائفة إلى الإجادة والإتقان ليحوز كل منهم قصب السبق فتنهال عليه الأرباح الوفيرة. واتصل المغنون يلتمسون منهم نظم المقطوعات الغنائية المناسبة للعصر الذى يعيشون فيه. وقد لبى الشعراء هذه الدعوة ونظموا كثيرا من الأدوار الغنائية التى تسيل رقة وعذوبة. وفى تراجم معظم شعراء هذا العصر نجد مثل هذه العبارة «وله موشحات وأزجال ومقطوعات عديدة مشهورة بين أرباب الفن والأغانى و منتشرة بين الناس، يتغنون بها فى أوقات سمرهم» ومن أشهر مؤلفى الأغانى فى ذلك الوقت عبد الله الشبراوى انظر ترجمته رقم ٢٤٦ قال:

والله مليح وجميل وكامل الأوصاف
وأنا احـــبــــه ملو قلبى وأهواه
لطيف ظريف الشكل مالوش مثيل
فى رقـتـه أمـا كـلامـه مـاأحـلاه

وقال:

شفـتـه على غـفله قـوى حبيتـه
أسـمـر ومن طبـعى أحب الاسـمـر
مـيلت ناغـشـتـه لقـيت له رقـه
ولطف زايد والبـشـاشـه اكـثـر
يا أهل الأدب والله وحق المختـــار
مـاشفت عـمرى فى الجـمـال مثله
قـمـر مـصـور مـانظرتش حـسـنه
فى حـد من بعـده ولا من قـبله

والمدرسة الشعبية مازالت قائمة تؤدى رسالتها. وقد اتسعت دائرتها.

فن القصص والملاحم

ظهر فى هذا العصر كتاب استخدموا لأول مرة اللغة العامية الدارجة فى كتبهم . وأهم هذه الكتب ألف ليلة وليلة، عنترة بن شداد، أبو زيد الهلالى، وسيف بن ذى يزن، والأميرة ذات الهمة ، وسيرة الظاهر بيبرس التى كتبها (كما هو الحال بالنسبة للكتب الأخرى) عدة مؤلفين متتابعين كان كل منهم يزيد عليها فصلا أو عدة فصول. أو يجرى عليها بعض التعديلات التى تناسب الوقت والمكان.

وقد ظهرت قصة الظاهر بيبرس في ظل ظروف الصراع المملوكي ضد الاحتلال العثماني لمصر ولهذا فليس ببعيد أن يكون واضع هذه القصة كان يهدف في أول أمره إلى الدعاية للعنصر المملوكي. وإذا كان هناك أبطال مثل عنترة وأبي زيد الهلالي وسيف ابن ذي يزن، وإذا كانت هناك قصص تروى عن هؤلاء الأبطال، فلماذا لا يكون للعنصر المملوكي أبطاله؟ ولماذا لا تؤلف عن هؤلاء الأبطال قصص على نحو ما ألف عن عنترة و أبو زيد؟ هذا على مايبدو منشأ الفكرة التي سيطرت على ذهن المؤلف في أول الأمر، ووجدت تشجيعا من المماليك الذين كانوا يتوقون إلى إحياء مجدهم السابق الذي أزيل على يد العثمانيين. فهي خير من يذكرهم بهذا المجد، وخير من يبعث فيهم الهمم على الكفاح والنضال.

إن شخصية بيبرس هنا تكاد تضارع أعظم الشخصيات الملحمية التي عرفت بالعدل والاستقامة، والعزم والحزم، والغضب للحق، والشدة في مواطن الشدة، واللين في مواضع اللين. والغيرة على الإسلام والمسلمين، والكفاح ضد الكفار والمشركين. بل إن القصة صورت بيبرس رجلا لا يخطئ ، ولايحيد عن سواء السبيل.

وإلى جانب الإشادة بالعنصر المملوكي تجد الرغبة في التشهير بالحكم العثماني . ففي مواضع كثيرة تطالعك حيل ملتزمي الأراضي الزراعية، وماطبعوا عليه من بطش وظلم وقسوة في تسخير الفلاحين في الأعمال الشاقة مقابل أجر ضئيل جدا، لايتجاوز رغيفين وبصلتين في اليوم. وترى فساد القضاء، يحرمون الحلال ويحللون الحرام ففيها إذن حض على الثورة في وجه الحكم العثماني.

وقد أخذ العنصر المملوكي يسترد قوته يوما بعد يوم. ولما شعر العثمانيون بالخطر اجتهدوا في الإيقاع بين المماليك. فانقسموا إلى فقارية وقاسمية، وظلوا يتنازعون فيما بينهم على السلطان، وأخيرا ظهر منهم علي بك الكبير. وقد صار نفوذ العثمانيين في مصر اسميا، وكان الحكم الحقيقي للعنصر المملوكي منذ سنة ١١١٩هـ.

وقد حرص مؤلفو القصة على أن يربطوا بين مصر والشام. ألم يكن بين البلدين ارتباط وثيق قبل الغزو العثماني؟ ولذلك ترى بيبرس ينتفع بكثيرين من أبطال الشام مثل الفارس المغوار ابراهيم الحوراني صاحب قلعة حوران بالشام. وكان كما جاء في القصة مقيما مع أتباعه الحوارنة في مساكن خاصة بهم. وقد ظل ابراهيم طوال حياته مخلصا لمولاه . أما البطل الثاني فهو سعد بن دبل البيساني، وهو ابن خالة ابراهيم الحوراني وعملهما متشابه، فهما يحرسان القصر السلطاني ليلا، ويلازمان بيبرس في حله وترحاله ملازمة الظل. والبطل الثالث أيدمر البهلوان. وقد اشترك في جميع الحرب والمعارك التي خاض غمارها الجيش المصري . وشاهد من الأهوال ما يعجز القلم عن وصفه.

وفي القصة مجال واسع للجاسوسية .،وبراعة في التخفي والتنكر. فمن أبطال الجاسوسية جمال الدين شيحة وأولاده، وكانوا يعملون في خدمة بيبرس بنشاط منقطع النظير. فتراهم يتنكرون في هيئة رهبان، أو دراويش ، أو تجار من بلاد الروم، أو من بلاد العجم. وأحيانا في صورة فتيات جميلات، أو جواري حبشيات . ويطلون أجسامهم بألوان تناسب الحالة التي يتنكرون فيها ولهم مهارة فائقة في تسلق جدران القصور والأسوار، والحصون

والقلاع ، والتسلل إلى داخلها ليلا، واستخدام البنج ليفقد العدو وعيه، وحينئذ يحملونه ويهربون به.

وكان شيحة كما تصوره القصة حافظا للإنجيل، إذا رتل بصوته الشجى أثر فى سامعيه إلى حد كبير. ويجيد التكلم بلغة الفرنجة، كما كان خبيرا ببلادهم وعاداتهم وتقاليدهم . لذلك كان إذا تنكر فى هيئة مسيحى لم يستطع أن يكشف حقيقة أمره.

وفى القصة نرى أحد رجال الدين المسيحى ،، وهو بطرق جوان ، الذى جعله المؤلف لا يقل مهارة فى التنكر والتخفى عن شيحة. وكان جوان حافظا للقرآن ، ولكثير من الأحاديث النبوية ، دارسا لأمهات الكتب اللغوية والنحوية، وكتب الفقه والتفسير. فاستطاع أن يدخل القاهرة متنكرا فى زى عالم مسلم اسمه الشيخ صلاح الدين. وأن يظفر بوظيفة قاضى الديوان الملكى نجم الدين أيوب، وهى من الوظائف التى يشغلها أكبر علماء المسلمين. وشرع جوان ، أو الشيخ صلاح الدين، يدس الدسائس للكيد للمصريين حكومة وشعبا. ويراسل الفرنجة سرا، حاضا إياهم على غزو مصر واحتلالها. واتخذ له مسكنا بحارة الروم.

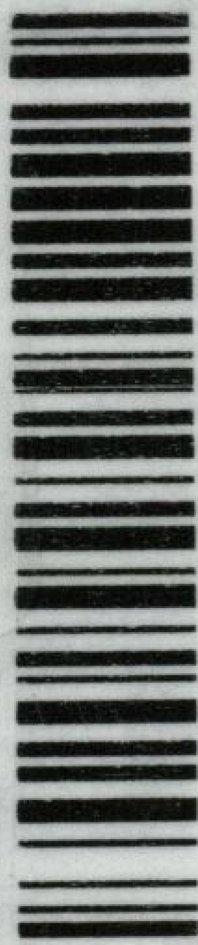
والبيئة المصرية ظاهرة فى القصة ظهورا لاخفاء معه. فلم تترك ناحية من نواحى الحياة المصرية دون أن توفيها حقها من البحث والتمحيص والتحليل. كما ورد ذكر لكثير من أحياء القاهرة وحواريها وشوارعها ، كحى بولاق ، وباب الشعرية ، والحسينية ، ومصر العتيقة ، وباب الخلق، والجماميز، والبساتين ، وقلعة الكبش، وقناطر السباع، وشبرا ، والرميلة ، وغيرها من المدن: بنها العسل، وقليوب، والاسكندرية، ودمياط وغيرها.

وإلى جانب ما تقدم نرى حيزا كبيرا يصور البيئة الشامية، وبخاصة بيئة الفداوية. والفداوية طائفة تعتنق مبادئ شيعية وتسكن فى بعض جهات الشام. وقد حاول صلاح الدين أن يقضى على نفوذها فلم يوفق. وظلت تتمتع بقوتها حتى خضعت أخيرا لبيبرس، ولم يكن لها فى أيامه شأن يذكر . هذا ماسجله التاريخ، ولكن القصة صورت الفداوية فى صورة قوم جبابرة عتاة، أولى بأس وقوة. ولهم سلطنة اسمها سلطنة القلاع والحصون. وهم يسكنون هذه القلاع، وكل قلعة أو حصن حوله مدينة أو عدة مدن تتبعه. ويتمتع سلطانهم بحكم نافذ عليهم ، لامرد له ولا معقب لأمره. وهم لا يخضعون لأحد غيره، ولايحكم بينهم شخص سواه. وحتى هؤلاء الأبطال الذين عاونوا بيبرس كابراهيم الحورانى وسعد بن دبل لم يكونوا خاضعين لبيبرس إلا بأمر من سلطانهم شيحة. وإذا حدث منهم مايستوجب العقوبة تولى سلطانهم التحقيق معهم والحكم عليهم بما يراه.

ويكثر فى القصة استخدام البنج بوضعه فى الطعام أو الشراب، أو مع البخور، أو إلقائه فى المواقد. وأحيانا نرى السم بدله. كما يكثر فيها الاستعانة بالسحر.

وبالقصة ماشئت من ضروب التهكم وأنواع السخرية، والتحليل النفسى الدقيق، والمآزق التى تسمى عقدة القصة. وفيها من قوة الخيال مايبعث الدهشة ويثير الإعجاب. وبها صراع عنيف بين الخير والشر، وشعر عامى، وهو غالبا فى المديح النبوى، أو التوسل والاستغاثة. كان يتغنى به من حين إلى حين ترفيها عن السامعين وتنشيطا لهم. وقد شغلت كرامات الأولياء جانبا كبيرا منها.

وبالقصة كلمات تركية مثل باشا، وبك، وطوبجى، وخانجى. وكلمات إفرنجية مثل كرستيان، ورين ودوكاتا، وجلف أى خليج.


Bibliotheca Alexandrina
12400087